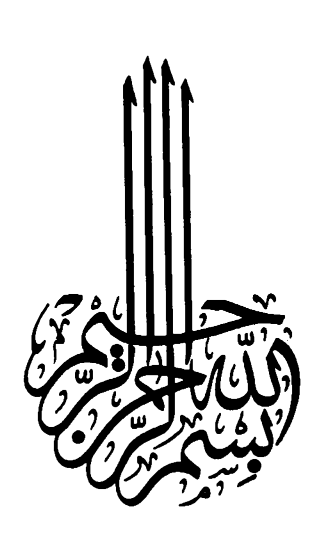
الأنبياء والمترفون في القرآن

فرح موسى





الأنبياء والمترفون
في القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

الأنبياء والمترفون في القرآن

فرح موسى



الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٨٣٤٢٦٥ - ٨٢٠٣٢٠ - فاكس: ٦٠٣٣٧٩ - ٨٢١٢٠٣

ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

الإهداء

إلى خليفة الرحمن . . . إلى مظهر العدل والإيمان .

إلى صاحب الزمان وشريك القرآن .

إلى منقذ البشرية ومحقق العدالة الإلهية .

إلى الإمام الحجة المنتظر (ع) أقدم هذا السفر المتواضع سائلاً المولى عزّ وجلّ الأجر والثواب .

مصطلحات مستعملة في الكتاب

را : راجع .

قا : قارن .

ص . ن . : الصفحة نفسها .

م . س . : مصدر سابق .

م . ع . : مرجع عينه .

المقدمة
المال والسلطة والترف

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

لقد حاولنا في هذا الكتاب استكشاف طبيعة العلاقة السلبية بين الأنبياء والمترفين في التاريخ على ضوء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنصوص التاريخية التي يمكن من خلالها الوقوف على حقيقة وجوهر هذا الصراع بين النبوة والمترفين بكل مظاهره وأبعاده. وما تضمنه هذا الكتاب بفصوله الخمسة هدف الى بيان معنى أن يكون الإنسان مترفاً في مشاريعه وسياساته وأهدافه، كما بينا حقيقة ما أرشدت إليه النبوة فيما جاءت به من بينات وقوانين لهداية الإنسان وإخراجه من الظلمات الى النور، بعد أن أفسد الترف عليه حياته وجعله أسير الشهوة والطاغوت. إن الصراع بين الأنبياء والمترفين لم يكن صراعاً بين أشخاص أو على مصالح شخصية، وإنما كان بين مشروعين، مشروع أرضي مادي يقوم على منهج ومنطق الإخلاد إلى الأرض والإفساد فيها والعبث بنعم الله واتخاذ المال والسلطة غايةً نهائية

لتعزيز ملك الفرعونية ودورها في استعباد الناس، وبين مشروع إلهي إيماني يقوم على الدعوة الى الله وتوحيده، وهداية الناس الى الإيمان وكل القوانين والأحكام التي تضمن لهم السلامة في الدنيا والآخرة، إضافة الى تمكينهم من تحقيق الهدف الذي استخلفوا من أجله على هذه الأرض.

إنه منهج النبوة القائم على الإيمان، والداعي الى حياة الروح، والمانع من أن تكون الأموال والأولاد منتهى الآمال والأحلام والغايات، كما أنه منهج يسعى الى تأمين حياة إنسانية سليمة ومتوازنة يستطيع الانسان من خلالها تجاوز كل المظاهر المادية إلى ما هو خير وأبقى.

فالنبوة زمان حي وتاريخ اكتملت فيه معاني الحياة، وانتصرت فيه الروح على المادة والدم على السيف، والإنسان بمقدار ما يكون معبراً عن هذه الروح ومترجماً لها، بمقدار ما يكون تاريخياً، لأن التاريخ هو تاريخ النبوة الحية في فعلها الممتد في الزمان والمكان ومع كل إنسان.

وبما أن الحضارة ليست شيئاً خارج التاريخ والزمان، فليس أمام الإنسان إلا السعي في سبيل حضارة روحية يعبر بها عن تاريخه وزمانه وتتحقق معها جميع أبعاده بحيث يكون فعله الإيماني مستحضراً لكل القيم والأهداف والمبادىء التي يزكو معها فعله وتحيا بها فطرته وتزدهر بها حياته.

لقد أهمل المترفون روح الإنسان وعرّفوه على أساس ما يملك من مال وجاه وولد، وقالوا: ﴿**نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين**﴾. إن معنى أن تكون مترفاً ـ بحسب هذا المنطق ـ أن تكون قيمتك وحضارتك وحياتك كلها ما تملك من مال وسلطة وجاه، لا ما تحسن قوله وفعله وتسعى إليه من غايات نبيلة وأهداف سامية.

ان النبوة لم تأتِ لتنزع الثروة ممن يملكها، ولا من أجل إقامة سلطة قاهرة، وإنما جاءت بهدف تحقيق المجتمعات الإنسانية على مستوى الروحية والأخلاق لتسلك بها سبيل السعادة والكمال، وبهدف ترشيد الإنسان وتصحيح مفاهيمه عن الحياة والمال والأولاد، فلا يتعصب لآثار مواقع النعم، ولا يخلد إلى الأرض، بل يعقل عن الله، ويجاهد في سبيل إقامة الحق والعدل.

هذه الدعوة وما رافقها من بينات لم تلقَ آذاناً صاغية من المترفين فاندفع هؤلاء إلى مواجهتها في سبيل حفظ مصالحهم ومكاسبهم المادية، وللحيلولة بينها وبين الناس خشية أن تحدث وعياً وتحقق عدلاً فتمنعهم من ممارسة فنون الإستعباد والاستخفاف. لقد أغنت النبوة حياة الروح وأظهرت الذات وتحولت الحياة معها إلى قيم ومبادىء وأهداف، وأصبحت الأموال أدوات لإشباع حاجات الإنسان خلافاً لما تنطلق منه دعوة المترفين القائمة أساساً على استثمار القيم والمبادىء والناس في مشاريع التجارة والسياسة لتنمية الثروة وتحقيق الهيمنة، وترسيخ حالة الاستخفاف التي سبق للناس أن عرفوا مساوئها في ما عايشوه وتفاعلوا معه من أحداث وتجارب على طول تاريخهم.

إن النبوة أثارت العقل ومنعت من الظلم، وأكدت على جوهرية الإنسان بما هو إنسان مكرّم من الله تعالى، ومتميز بالروحية التي تتجاوز به كل المظاهر المادية إلى كيانية مقدسة قوّمتها شهادة عالم الذر وعززتها الفطرة فيما عبرت به عن نفسها حيث أنها انسجمت مع دعوة النبوة وتبعتها في مواجهة المترفين ونصرة قضايا الحق والعدل والحرية. إن المترفين عكسوا المبادىء والمفاهيم وحرصوا أن تكون النظرة إلى الإنسان حيوانية وإلى الكون والحياة مادية! ذلك هو ما تتضمنه وتعبر عنه أطروحة الترف

القديمة الحديثة وتدعو الى المحافظة عليه من خلال السلطة والمال لتعزيز ما تركه الآباء والأجداد من إرثٍ في الإستبداد والطغيان وعبادة الأوثان، وهذا ما عبّر عنه القرآن في جملة من الآيات حيث قال تعالى: **﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذيرٍ إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد أرسلنا موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾**[2].

المال والسلطة:

إن من جملة ما وفقنا الله تعالى للكشف عنه ونحن نبحث عن موقع النبوة وموقع الترف في القرآن، هو ما يتضمنه قول الله تعالى: **﴿وقارون وفرعون وهامان. . .﴾** من دلالات ومضامين عن المال والسلطة ودورهما في حياة الناس، وفي تشكيل المجتمع السياسي، فالآية المباركة نجد أنها تجمع بين قارون وفرعون وهامان، وتقدم قارون على فرعون، دون أن يكون لقارون أي ذكر في سائر الآيات التي تجمع بين فرعون وهامان، وبينا في بحثنا عن المال والسلطة، أن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وقد تساءلنا عن وجه الجمع وتقديم قارون على فرعون وهامان، وخلص بنا البحث انى القول بأن التقديم ناظر الى المال وما يكون له من سلطة وتأثير في المجتمع باعتباره سلاحاً سياسياً، كانت ولا تزال السلطة تتطور وفقاً لحالات الثراء وأشكاله في المجتمع، فالمال يفسد الحياة الانسانية إذا لم يكن خاضعاً لقوانين وضوابط عادلة، ويحوّل السلطة إلى أداة للقهر والاستبداد، وقوله تعالى: **﴿ولقد أرسلنا موسى بالبينات فاستكبروا في**

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

الأرض﴾، مرشد الى ان الاستكبار والتحلل من الضوابط والقوانين التي ترعى شؤون المجتمع وتحميه من الاستغلال والاحتكار يدفع الى توظيف المال في وجوه الشر والفساد. من هنا، فإن النبوة إنما جاءت بالبينات لأجل ترشيد الإنسان فيما يملك من مال وسلطة ليكونا في خدمة الناس، لا ان يكون الناس في خدمة المال والسلطة، كما هو حال المترفين دائماً.

كما أننا لم نلحظ في ما بين أيدينا من تفاسير للقرآن أي اهتمام لهذا التقديم في الآية على الرغم من الاهتمام الكبير الذي أعطاه المفسرون لقارون في سورة القصص.

وكيف كان، فإن الآية ناظرة الى المال والسلطة، وقد يكون فيها دلالة واضحة (والله أعلم) على ان المال هو السلطة سواء أكان صاحب الثروة في الحكم أم لم يكن، باعتبار انه قادر على الحكم وإن لم يكن متصدياً بنفسه لهذا الأمر، فمن يملك المال يملك السلطة، بدليل ما نشهده اليوم في ظل سياسة الاستكبار العالمي المرتكزة على المال والمعبرة عنه في جميع سياساتها ومنطلقاتها، وبدليل قرآني واضح أيضاً وهو ما ذكره القرآن عن كنوز قارون وعن حالة الناس حينما عرض قارون زينته امامهم ففتنوا به وقالوا: **﴿يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم﴾**، ولم نجد قولاً بهذا المعنى بشأن فرعون على الرغم من أنه كان صاحب زينة وأموال، مما يعني أن السلطة لم تكن لفرعون وهامان وإنما كانت للمال الذي يملكه قارون وفرعون وهامان، وسلطة هؤلاء تكون مفسدة ومستبدة وطاغية ما لم تخضع لبينات موسى وعيسى ومحمد، وسائر من يمثل النبوة على امتداد الزمن ويطبق القانون الإلهي، لأن التمرد على البينات الإلهية وعدم الخضوع لقوانين السماء فيما يملكه الناس من أموال وسلطة يؤدي الى الاستكبار في الأرض، والى أن تكون نتيجة المال والسلطة الظلم والطغيان في المجتمع،

وفي النهاية يكون الخسف بهما معاً ويقول الناس **﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾**.

الثروة والتفاوت بين الناس:

ليست الثروة بديلاً عن الانسان، ولا دليلاً عليه، فهي وسيلة لتحقيق غاية الاستخلاف في الأرض، وما جاء به الأنبياء والرسل والأوصياء من بينات لم يكن هادفاً إلا إلى صلاح المجتمع وهدايته لما تكون له به السلامة في الدين والدنيا، وهذا ما أداه الأنبياء والأئمة الى الناس، فلا الثروة كانت هدفاً، ولا الحرص على الدنيا كان مطلباً، بل كان الهدف هداية الناس وحفظ توازن المجتمع وتحقيق العدل والتكامل الاجتماعي بحيث يتمكن كل إنسان من أن يعيش عيشاً رغيداً وهادفاً، لا مجرد إنسان فيزيولوجي تبطره النعمة، وترهقه السمنة...؟!

فالمترف إنسان همه ان يعيش، ولو كان له هدف لما أبطرته النعمة، كما أنه يجهل الهدف من خلقه والإنعام عليه، وغالباً ما يدّعى انه الخالق، وهذا كله أدى به الى اعتبار الثروة والمال سبباً وحيداً للسعادة، وسبيلاً وحيداً للحياة الخالدة، ولم تكن هذه الادعاءات مجرد أقوال ونظريات، بل كان لها انعكاسات على الواقع الاجتماعي للناس سواء لجهة ازدراء الفقراء وتحقيرهم، أو لجهة الاستخفاف بالناس واستخدامهم عبيداً لدى أصحاب الثروات. هذا الوضع عاشه الناس قبل النبوة، وحينما دخل النبي عالم الزمان والمكان كان من أولى مهماته تحرير الناس من أسر الطواغيت دون تمييز بين فقير وغني، أو بين قوي وضعيف، فكل الناس من منظار النبوة لهم القيمة والكرامة وحق العيش الهادف.. ففي الوقت الذي كان المترفون فيه يلعبون على الفوارق الاجتماعية مستغلين المال والسلطة في تعزيز حالة الانقسام بين الفقراء والأغنياء، جاءت النبوة لتساوي بين الناس بحيث يكون

المعيار للتفاضل هو التقوى وليس المال، ولم تكن مهمة النبوة إزالة التفاوت وإلغاء الخصائص والمميزات، لأن هذا التفاوت بين الناس في القدرات والكفاءات والخصائص هو شرط استمرار الحياة والتفاعل والتكامل، اذ من دونه لما احتاج الناس الى بعضهم البعض، ولما كان هناك ثمة ضرورة لأن يمتحن الانسان بغناه وفقره، وهذا ما عبر عنه الامام علي عليه السلام بقوله: «وإن الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله من النعماء والابتلاء والجزاء في المعاد...»[1]. فالنبوة لم تأتِ لتجعل من الناس شيئاً واحداً، ولا لتميز بين الناس على أساس الثروة والمال، والغنى والفقر، والقوة والضعف، وإذا كان المترفون قد فهموا من القوة الاستبداد والاستخفاف، ومن الغنى الترف والاستغناء، فذلك ما عملت النبوة على تصحيحه وتقويمه وسعت الى إلغائه من خلال إيجاد وضع اجتماعي سليم، وتوفير مناخات للتعاون بين البشر بهدف تحقيق التكامل، لأن استمرار الحياة وتحقيق الغاية مما خلق لأجله الإنسان يستدعي أن يكون الناس على تفاوت فيما يعود الى ذواتهم وأوضاعهم الإجتماعية والاقتصادية وغير ذلك مما يحتم التعاون والتفاعل فيما بينهم لتحقيق التكامل وإحراز السعادة، يقول إبن سينا: «ثم منَّ عليهم بفضل رأفته منّاً مستأنفاً بأن جعلهم في عقولهم وآرائهم متفاضلين، كما جعلهم في أملاكهم ومنازلهم ورتبهم متفاوتين لما في استواء أحوالهم وتقارب أقدارهم من الفساد الداعي إلى فنائهم لما يلقى بينهم من التنافر والتحاسد، ويثير من التباغي والتظالم، فقد علم ذوو العقول أن الناس لو كانوا جميعاً ملوكاً لتفانوا عن آخرهم، ولو كانوا كلهم سوقة لهلكوا عياناً بأسرهم، كما لو أنهم استووا بالغنى لما مهن أحد لأحد، ولا رفد حميم حميماً، ولو استووا في الفقر لماتوا ضراً وهلكوا

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.

بؤساً، فلما كان التحاسد من أطباعهم والتباهي من سوسهم وفي أصل وجودهم، كان اختلاف أقدارهم وتفاوت أحوالهم سبب بقائهم وعلة لقناعتهم»[1].

إذن الصراع بين النبوة والترف، ـ في جوهره ـ صراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، هدف من ورائه الأنبياء إلى إثارة دفائن العقول، وإحياء الفطرة الإنسانية بعد أن اختفت وراء الحجب الظلمانية والمادية، ولو أن المترف عقل عن الله وسمع لنداء النبوة، لما كان حلَّ به ما حلَّ من البلاء حين أخذه الله بذنبه حيث أنه كذَّب فسوف يكون لزاماً.

لقد عمل المترفون في كل زمان ولا زالوا يعملون لإيجاد تناقض إجتماعي واقتصادي وسياسي مناسباً لطموحاتهم مستغلين الثروة والسلطة لتحقيق هذا الهدف، فجاءت النبوة لا لتزيل التفاوت الطبيعي بين البشر بل لهدايتهم إلى ما هم ميسَّرون له وقادرون عليه، لكونها تعلم أن الاختلاف بين الأفراد حقيقة مطلقة وليس نتيجة إطار إجتماعي معيّن، «فلا يمكن لنظرة واقعية تجاهلها، ولا لنظام إجتماعي إلغاؤه في تشريع»[2]. إنها حقيقة كونية لا قدرة للإنسان على تغييرها وهي من شروط تفاعل البشر وتكاملهم في الحياة.

هذا هو منهج النبوة ومنطقها في مواجهة المترفين، وقد استطاعت تصحيح المسار البشري، وإزالة التناقضات الاجتماعية، وتصويب حركة الإنسان على ضوء البيِّنات الإلهية، وحالت دون أن يكون الفقراء أسرى الأغنياء، وأحيت المبادىء والقيم السامية في مجتمعات كانت ولا تزال تعجّ

---

(1) ابن سينا، كتاب السياسة، طبعة مجلة المشرق، ١٩٠٢، الفصل الأول.
(2) السيد محمد باقر الصدر، إقتصادنا، بيروت، دار التعارف، ط١٧، ١٩٨٦، ص٧٠٧.

بالترف والمترفين.

إنها حركة النبوة في الواقع البشري، وما كان الله تعالى بحكمته وعدالته وقدرته ليترك الناس عرضة لأهل الترف وما يعبدونه من أموال وأصنام وغير ذلك، وكان لا بدّ من تحقيق إرادة الله تعالى من خلال هذه الحركة النبوية التي كان من خصائصها ومميزاتها أنها لم تكن حليفة الأقوياء والمترفين بل حليفة الفقراء والمستضعفين، وقد اشتهر هذا عن جميع الأنبياء والرسل والأئمة، مما يؤكد لنا أن الهدف من التفاوت في الخلق والأحوال والقدرات ليس إخضاع الضعفاء للأقوياء ولا الفقراء للأغنياء، بل إقامة الحق والتعاون على تحقيق العدل، وعلى البرّ والتقوى، ذلك هو معنى أن يكون الانسان إجتماعياً بحيث لا يكون الفضل لأي إنسان على أساس ما يملك من مال وسلطة وإنما على أساس التقوى والإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[1].

إن المال الذي رأى فيه المترف سبباً للسعادة والخلود، ومعياراً للتمييز بين الحق والباطل، وسبيلاً إلى القيمة والكرامة، هو شيء ثانوي إزاء ما أعدّ له هذا الإنسان، هذا فضلاً عن أنه ممتحن فيه، فهل يشكر وتكون له زيادة في النعمة، أم يكفر ويعرّض ماله للزوال والإنتقال؟ وكذلك الفقر، فهل يصبر الإنسان أم يجزع ويكون مأزوراً ويموت متأسفاً؟ وهذا ما عبَّر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «وقدر الأرزاق فكثرها وقللها... وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها»[2].

هذا هو الهدف من الفقر والغنى الإمتحان للإنسان لمعرفة ما يكون منه، وليس للمترفين أن يبطروا بنعمة الله، ويتعصبوا لآثارها، لأن الله تعالى

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٩١.

يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبيّن الساخط لرزقه.

فلو كان من شروط الكرامة والقيم الإنسانية والسعادة أن يكون الإنسان غنياً أو قوياً لما كان هناك أحد أولى من الأنبياء والأئمة بالمال والسلطة والقوة، بل نجد أن الله تعالى ابتلاهم بالمجهدة والمخمصة وبصنوف من المكاره، وعاشوا على مستوى ضعفة الناس، وتحمّلوا المشاق كلها في سبيل الفوز بالسعادة الأخروية التي لا سبيل اليها بالترف، وإنما بالإيمان والعمل الصالح كسبيل وحيد إليها، ولو كانت الأنبياء ـ كما يقول الإمام علي ـ أهل قوة لا ترام، وعزة لا تضام لكان أهون على الخلق في الاعتبار. هكذا بدأ الصراع بين النبوة والترف، وهكذا استمر، وهكذا ينتهي، ولم يكشف التاريخ لأصحاب المال والسلطة أنهم كانوا فائزين في هذا الصراع رغم كل استبدادهم واستخفافهم، بل كانت النبوة هي المنتصرة دائماً، وهذا إن كان يدل على شيء فإنه يدل على أن الفقر والغنى ليسا مقياساً للسعادة، ولا سبباً للإنتصار، وكما قال الإمام علي: «إنه لحق مع محقّ ولا نبالي ما يصنع الملحدون». فما دامت العزيمة قوية، والفطرة سليمة، والقلب حياً بحقائق الإيمان، فإن المال والسلطة يمكنهما في ظل ذلك أن يؤديا وظيفتهما في إصلاح المجتمع، وحينما تستبد الثروة، وتهيمن الغريزة، وتنطفىء شعلة الإيمان، فإن وظيفة ودور المال والسلطة تصبح عبئاً على المجتمع وشراً عليه، كما أنها تمنع من القيام بأمر الخلافة على الأرض، لأن المال والسلطة يصبحان غايةً يسعى الإنسان وراءها، ولا يتورع حينئذٍ عن سلوك سبل غير مشروعة للحصول عليها، وتكون النتيجة الإخلال بالتوازن الاجتماعي والإفساد في الأرض.

امتداد النبوة واستمرار الصراع:

إن الصراع ضد المترفين ليس له نهاية، وقد استمر مع أتباع الأنبياء

وأنصارهم، والحق يقال ان هذا الصراع مثلما أن جذوره تضرب في أعماق التاريخ، فإنه مستمر إلى أن يحق القول على الذين لا يؤمنون. وإن مما يزيد الأمر سوءاً، والإنسان بؤساً هو ان يتخذ الدين غطاءً وشعاراً سواء اليهودية أو المسيحية أو الإسلامية للترف وممارسة الاستبداد، وقد بينا في أحد فصول هذا الكتاب كيف تحوّلت الفرعونية الظاهرة الى فرعونية خفية تستثمر الدين في المشروع السياسي لتنتج ترفاً في الدين والسياسة، وفساداً في الدولة والمجتمع، وقد رأينا أيضاً أنه من مسؤولية الفقهاء أن يبقوا في موقع النبوة لإدارة الصراع ضد الترف والمترفين بحيث تبقى آثار النبوة وتعاليمها وأهدافها حية في قلوب وعقول وحياة المسلمين. أما أن يصبح موقع النبوة بعد غيابها هدفاً للترف، فذاك أمر في غاية الخطورة على الناس لما للتدليس والخداع والنفاق من آثار سلبية تحول دون امتداد النبوة في الزمان والمكان. فالفقيه وريث النبوة ودوره ومسؤوليته حماية الدين من سوء التأويل والتحريف، وحماية الفقراء والمستضعفين من المترفين. هذا هو معنى أن يكون الفقيه في موقع النبوة، أن يمارس حقه في حماية العباد والبلاد، وأن يحقق العدل بل وأكثر من ذلك أن يكون مرشداً ووليًاً وحاكماً ومدبراً للأمة كيما تستولي عليها حياة الترف من جديد لتحول بينها وبين من يمثل موقع النبوة.

لكنك أيها القارىء تجدني قلقاً إزاء ما أذهب إليه في كلامي هذا، لأنك حيثما ضربت بطرفك لا تجد إلا فقيراً يكابد فقراً. وغنياً بدّل نعمة الله كفراً، وترفاً يأكل من الدين سراً وجهراً. . . وما أخالك ترتدع عني فالسؤال محدق والليل يأكل من نهاري، فأجيبك مهلاً لا تعجل على أمة طال سباتها وعلقت بحبال الترف حتى غربت شمسها، فطال المكث وبعد الأمل ونامت الأحلام على أساورة من ذهب. . . فما بالك أخي تعود فتسأل، فهل رأيت

الضمير قد أفاق، أم أنك تنام فتحلم بفك الأطواق، إنه سبات عميق عميق حتى الظلام!! لا تيأس من غدٍ فروح الله في الغد آت، فترى كيف يعود الدين روحاً وحياة، لا تذهب نفسك حسرةً فالمجد والعلى من السماء، ولكني أراك تضمر شيئاً وأنت في شعبان وما أدراك ما شعبان، هناك ولد الهدى فالكائنات كلها في الغد ضياء.

هكذا أميل مع السؤال، ولكن عجبي لا ينقضي إلا حينما أسمع بجواب فيه الشفاء، هكذا تسبر غوري لتراني أسير غدٍ يحيا فيه الزمان بصاحبه... فتعود لتسأل عن الترف والمترفين، فأقول لك إنهم هباء. والحمد لله رب العالمين.

٢٣ شعبان ١٤١٧ هـ

الموافق ٢/ ١/ ١٩٩٧م

فرح محمد موسى

الفصل الأول

النعمة والترف في القرآن

تمهيد

١ ـ الترف في اللغة

٢ ـ بين النعمة والترف

٣ ـ العقل بين النعمة والترف

٤ ـ بين الترف والغنى

٥ ـ المترفون هم الأغنياء والفقراء

تمهيد

لقد تدبّرنا جملة من الآيات المباركة التي تتحدث عن العقل والبصر، فوجدنا أن المترفين يركزون على البصر خاصة والحواس عموماً فيما يسعون إلى تسويغه وإقناع الناس به، ولإظهار صحة وسلامة ما يدعون اليه من آراء ومعتقدات ومشاريع سياسية وإجتماعية وغير ذلك مما كانوا يجدون فيه الوسيلة لصرف الناس عن إعمال عقولهم وبصائرهم!

في مقابل دعوة المترفين الى اعتبار البصر مقياساً للتمييز بين الحق والباطل، كما في قول الله تعالى: ﴿**ونادى فرعون في قومه قال: أيها الناس، أليس لي ملك مصر والأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون**﴾ نجد منطق ودعوة النبوة التي تحض على اعتبار العقل مقياساً ودليلاً وحاكماً، والبصيرة ميزاناً للفصل بين الأشياء، ومعرفة ما هو حق مما هو باطل، ولهذا قال تعالى: ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه**﴾، وقال تعالى: ﴿**كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون**﴾.

إن من جملة ما ردَّ به القرآن على منطق ودعوة المترفين، قوله تعالى: ﴿**وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان**

أباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾.

هذا ما أردنا أن نمهّد له في الفصل الأول من هذا الكتاب، حيث أننا أشرنا إلى ما انتهت اليه حالة العقل والبصيرة في ظل حضارة البصر الفرعونية التي استعملت العقل وتدبرت به، ثم ارتدت عليه لتمنعه من الاعتبار فيما أنتجه وتوصل اليه من علوم ومعارف، فانقلب العقل الى جهل، والخير الى شر، والحق الى باطل، والنعمة الى ترف. إن حضارة اليوم هي أشبه ما تكون بالإنسان العالِم المتفقه الذي عضَّ على العلم بضرس قاطع. . ولكن لا ينتفع بعلمه على النحو الذي يؤدي به الى أن يكون حياً في قلبه وعقله، وفي جميع شؤون حياته الروحية والمادية، فهو عالم بالعقل، وجامع للمعارف، إلا انه جاهل بما يعلمه وجداناً وروحاً، وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام : «ربَّ عالمٍ قتله جهله وعلمه معه لا ينفعه».

اننا أمام ترف عقلي وحضاري يستثمر نعم الله المادية والروحية، في مشاريع اللذات والشهوات، ويدفع بالإنسان الى أن يكون في خدمة الحياة التي سخرها الله لخدمته، ذلك هو معنى أن يكون العقل مترفاً، والنعمة نقمة. الله سبحانه وتعالى يقول: **﴿فلا أقسم بما تبصرون وبما لا تبصرون انه لقول رسول كريم﴾** فلو أن الإنسان تأمل وتدبَّر وعقل عن الله لما استقل بالبصر دون البصيرة، ولما كانت تستقر به الحواس عند حدود ما ينظر اليه دون اعتبار لما تحدثه الحاسة من انعكاسات على قلبه وعقله وروحه، ولما كان للغشاوة سبيل الى ما أنعم الله به عليه، وما دام الإنسان مترفاً، فسيبقى ينظر دون بصر، كما قال تعالى: **﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾** ويعلم دون عقل، ويعيش دون أمل، ويأكل دون شبع، كما قال تعالى: **﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل**

أولئك هم الغافلون﴾ .

غداً يكشف الغطاء ويعرف الإنسان معنى أن يُقسم الله بما لا تبصرون، كما في قوله تعالى: **﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾** . إن من استقرت به الحضارة المادية عند حدود اللذة والشهوة، والبصر دون البصيرة، والعلم دون العقل لا يسعه إلا أن ينادي في القوم، كما نادى فرعون، أيها الناس أليس لي ملك الدنيا والأنهار تجري من تحتي، وقد أفلح اليوم من استعلى!! انه فقر نفسي وذل روحي يعيشه المترفون ويحسبونه عزةً وكرامةً وخلوداً ودهرا...!؟

إلهي **﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾** أراك في نفسي فأبصر معجزةً، وفي قلبي فأفقه سرَّ خلقك وعظيم منِّك، بل أراك في الآفاق، فأشهد حقاً، وأقول صدقاً، حتى ترتوي بالشهادة تربة قبري، فيعظم أجري ولا يطول مكثي في العذابات...

وما أدراك ما عذاب المترفين: **﴿لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلَّكم تسألون﴾** الذين **﴿ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾** . هذا هو معنى أن تكون حضارياً في لغة اليوم وأمام حضارة البصر أن يكون إلهك الهوى، وروحك المادة، وعقلك الجريمة، أن تكون في ترف اليوم لا تسأل عنه، وفي ظلمة لا تبصر فيها! هذا هو ما رُمنا بيانه في هذا الفصل، في مجمل ما جاء فيه، ونحمدالله تعالى على ما وفقنا له، ونسأله العفو والمغفرة على ما أخطأنا فيه. **﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾** .

الترف في اللغة

قال ابن منظور في لسان العرب: «الترف هو التنعم. . . والمترف: المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها، وفي الحديث؛ ان إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، فُرّ به من جبار مترفٍ، ورجُلٌ مترف ومترّف: موسع عليه، . . . وقوله تعالى: ﴿إلا قال مترفوها﴾، أي أُولوا التّرفة واراد رؤساءها وقادة الشر منها. . . »[1].

وجاء في معنى الترف انه التنعم الزائد الذي يؤدي بصاحبه إلى الاستغراق في ملذات الدنيا وشهواتها، فيقال: «اترف فلان، أصر على البغي وأبطرته النعمة. . . »[2].

بين النعمة والترف:

هناك فرق كبير بين النعمة والشكر عليها، وبين الترف وعدم شكر المنعم، إذ ان الله تعالى الذي انعم على عباده بكل النعم المادية والمعنوية قد بين أن الهدف من وراء الانعام تمكين الإنسان من بلوغ سعادته وكماله في

---

(١) ابن منظور لسان العرب بيروت، دار المعارف، ج١، ص٤٢٩.

(٢) المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية، ج١، ص٨٤.

هذه الحياة، واستثمار هذه النعم في سبيل الله تعالى، وليس من التنعم في شيء أن يسيء الإنسان استخدام هذه النعم في طريق المعصية لله تعالى، لأن الهدف من النعمة كما قلنا أن يتواصل الإنسان مع خالقه فيحمده على نعمه ويشكره على ما مَن به عليه وقد ذكر الإمام علي في هذا المعنى أن الله تعالى لو لم يتوعد على معصيته لكان يجب ألا يعص شكراً لنعمه، ومن أعطى الشكر لم يحرم الزيادة. فالإنسان كلما شكر الله، كلما زادت نعم الله عليه، كما قال تعالى: **﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾**[1]، ولو تأمل الإنسان قليلاً في حاله واحواله لأدرك ان الشكر على النعمة المادية لا يكاد يكون شيئاً أزاء الشكر على النعم المعنوية، وكذلك نعمة تمتع الإنسان بالقدرات العقلية والإدراكات الحسية وغير ذلك مما يعد من النعم التي تستوجب على الإنسان عظيم الشكر لله تعالى، قال تعالى في محكم كتابه: **﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنةً مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون، فكُلُوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون﴾**[2].

نلاحظ في هذه الآية أن الله تعالى يجمع بين النعم المادية والمعنوية، فأما النعم المادية، فهي المعبر عنها بقول تعالى: **﴿آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان...﴾**، وأما النعم المعنوية، فهي المعبر عنها بقول تعالى: **﴿ولقد جاءهم رسول فكذّبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾**. ونلحظ أيضاً ان فقه الآية ودلالاتها يسوق إلى نكتات هامة جداً، منها الإشارة إلى أن الأمن والاطمئنان واتيان الرزق إنما يكون كذلك فيما لو

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ١١٢.

أضيفت إليه النعمة المعنوية، واعني بها الرسول الذي من شأن تكذيبه وقوع المظالم وفقدان آثار النعم المادية، إذ ليس بإمكان الإنسان فيما لو كذَّب الرسول التعرف على حدود النعمة المادية بحيث تبقى نعمة ولا تتحول إلى ترف وطغيان، وهذا ما يمكن استفادته من الأبحاث التاريخية والإجتماعية التي خلصت إلى اعتبار الترف نتيجة حتمية لتكذيب الرسل والأنبياء، والقصص القرآني عن تاريخ الصراع بين الأنبياء والمترفين خير دليل على ذلك، فمن الناس من اخذتهم الصاعقة، ومنهم مَن قضى بريح عاتية ومنهم مَن أخذه الطوفان، إضافة إلى كثير من الأحداث التي كانت تقع عقب كل تكذيب لنبي من أنبياء الله، يقول الإمام علي عليه السلام: واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات... فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا ان تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم، فالزموا كل أمرٍ لزمت العزة به شأنهم وزاحت الأعداء له عنهم، ومدت العافية به عليهم، وانقادت النعمة له معهم... وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء... اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب، وجرعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة... حتى إذا رأى الله جدَّ الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه، جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، وأئمة أعلاماً..»[1].

فالأمن والاطمئنان واتيان الرزق والسلام على مستوى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ما كان ليكون أمناً ولا اطمئناناً ولا سلاماً على أي مستوى من المستويات، لولا حضور النبي الذي أوكلت إليه مهمة ارشاد الناس إلى سبيل الرشاد، وهدايتهم إلى السبل الكفيلة بإبقاء

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

النعم المذكورة حية في المجتمع، إذ انه بمجرد ان يستقل الناس في فهم هذه النعم، وفي استخدامها بمعزل عن هداية الرسول لهم يصبح من الصعب جداً تحقيق الصلاح في المجتمع أو حماية النعم من أن تتحول إلى نقمة عليهم تجلب لهم العذاب في الدنيا والآخرة معاً.

من هنا نرى أن الهدف الرئيسي من بعثة الرسل والانبياء في كل زمان اخراج الناس من الظلمات إلى النور، وحينما يعبر بالظلمات عن حالة ما قبل النبوة والإمامة، فليس معنى ذلك انه لم تكن هناك نعم مادية، وانما يعني ذلك أن النعم كانت موجودة بعيدة أو قريبة في الأرض والسماء، إلا أنها لم تستعمل في وجوه الخير ويعبث بها من قبل الإنسان حيث انه لم يكن لديه أدنى معرفة بقيمتها، فجاءت النبوة لتعطي هذه النعم قيمتها ومعناها، وتجعل منها نعماً عامة يستفيد منها كل البشر، فلا تكون حكراً على المترفين وحدهم، أو مستغلة في معصية الله تعالى، فالنبوة جاءت بالنور، أي بالعلم والهداية وسائر القوانين التي تحقق الأمن والاطمئنان والسلام على المستوى الإجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي. . .

إن النبوة أعطت لكل شيء معناه، وحالت دون استمرار العبث بنعم الله تعالى، ودفعت بالناس إلى التأمل والتدبر فيما خلقه الله ومَنَّ به على الإنسان لإخراجه من ظلمات الجاهلية، وإن أي مجتمع يتجاهل هذه النعمة المعنوية ويريد استغلال النعم المادية وفقاً لما يراه ويناسب مصالحه الخاصة، فضلاً عن شهوته ولذته، لا بد أن ينتهي به الأمر إلى الترف بحيث يستبد به من قبل مجموعة اشخاص كل همهم جمع الثروات وتكديس الأموال تماماً كما كان يفعل الفراعنة والطواغيت في كل زمان، وقد بين القرآن أنه ما من مجتمع مترف إلا وكانت نهايته على يد النبوة التي كانت دائماً تحمل معها الأمن والاطمئنان والسلامة في الدين والدنيا، وحيث لا

نبوة، لا أمن ولا اطمئنان ولا سلامة، ومن هنا يمكن للباحث التيقن من استحالة إبقاء البشرية دون إمام يعمل على اصلاحها ويدبر أمورها على ضوء ما أمر الله به ونهى عنه، يقول الإمام علي عليه السلام: «فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث اليهم رسولاً، فعقد بملته طاعتهم، وجمع على دعوته الفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت لهم جداول نعمها... قد تربعت الأمور بهم في ظل سلطان قاهرٍ، وأوتهم الحال إلى كنف عز غالب، وتعطفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت فهم حكام على العالمين، وملوك في أطراف الأرضين، يملكون الامور على من كان يملكها عليهم، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم..»[1].

وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: ﴿**وما كان الله ليعذّبهم وانت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**﴾[2]، وقد استنبط الإمام علي عليه السلام من هذه الآية أن لله تعالى أمانان في الأرض النبي والاستغفار، يقول الإمام علي عليه السلام: «أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما الآمان الباقي فالاستغفار»[3]. والاستغفار كما نعلم ينتهي إلى النبي وليس أماناً مستقلاً باعتبار أننا لم نعلم معنى الاستغفار إلا منه وممن جعلهم امتداداً له، كما ان الأمان في الآية ليس خاصاً في حالة من الحالات بأن يقال: إن المقصود هو الأمان على مستوى الدين، فالأمان هنا عام وشامل في الدين والدنيا معاً...

إذن طبيعة التدخل الإلهي في حياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقبل ذلك كله الدينية، من خلال النبي أو الإمام المعصوم حتمت أن يكون هناك صراع قوي ومستمر بين الأنبياء والمترفين في كل

(١) م.ع، الخطبة: ١٩٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.
(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٨٨.

زمان، ولهذا نحن نلاحظ العلاقة الجدلية السلبية في القرآن كما في قوله تعالى: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾**[١].

وبما أن منشأ الاستبداد السياسي والترف الاجتماعي والاقتصادي هو عدم الاعتدال في تناول النعم، وجعلها في يد التفريط تارة، والافراط طوراً اخر، فقد جاء الرسول بالبينات ليقوم الناس بالقسط، فلا يسرفوا، ويعتدلوا في تناول ما أحله الله لهم من النعم، وعدم الاعتدال وتمكن الاستبداد والترف إنما هو نتيجة لغياب أو تغييب النعم المعنوية التي جعلها الله تعالى شرطاً أساسياً من شروط استقامة وسلامة المجتمع الإسلامي سواء لجهة الوصول إلى الكمالات المعنوية أو لجهة الارشاد إلى كيفية التعامل مع النعم الإلهية المادية والاستفادة منها في سبيل الخير والسعادة، وهذا كله يؤكد ضرورة وأهمية تصديق النبي وطاعته فيما يأمر به وينهى عنه لتحقيق مبدأ الاعتدال في حياة الناس، كما أنه يؤكد على ضرورة الشكر لله تعالى على نعمه الكثيرة التي خص الإنسان بها على مستوى الروح والمادة معاً، وما لم يتحصّل ذلك ويتأكد على مستوى الإنسانية فإن الترف والكفر بأنعم الله سيكون هو المهيمن والطاغي على حياة الناس الخاصة والعامة باعتبار أن معنى الترف هو الطغيان، وهذا الأخير لا يكون إلا نتيجة للكفر بأنعم الله المادية والمعنوية معاً، ومن الطبيعي جداً أن لا يكون للإنسان زيادة في النعم كما بين الله تعالى، وحينما يستبد الطغيان تنتفي كافة المعايير الإنسانية وتتحول النعم المادية والمعنوية إلى مجرد شعارات قد يرافقها الكثير من الشكر الظاهري، كما في قوله تعالى: **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾**[٢].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

فالمطلوب هو الشكر القلبي والعملي بحيث تحفظ نعم الله تعالى على مستوى الاقتصاد وعدم التبذير والاسراف، والاستفادة منها في سبيل تحقيق التوازن الاجتماعي وعدم الطغيان بها على المجتمع، وان لا يستبد بها في حكم الناس لما بيناه في معنى اللغة من أن المترف هو ذاته الإنسان الذي أبطرته النعمة وسعة العيش، وأترفته النعمة أي أطغته[1]. كما هو حال الكثيرين من امثال قارون وفرعون وهامان وأشراف قريش، وصولاً إلى مجتمعنا المعاصر الذي يعيش منتهى الترف والطغيان مع فارق بسيط بين القديم والحديث لما يمتاز به الإنسان المعاصر من تقدم على مستوى العلوم التي أدت بدورها إلى ازدياد فنون الترف في المجتمع. وإذا كان هذا يدل على شيء، فإنه يدلك على مدى ما انتهت إليه مفاهيم الناس ومعارفهم عن حقيقة النعم المادية والمعنوية حيث انهم فهموا من غياب النبوة غياب معناها، ومن وجود النعم المادية احتكارها والاستبداد بها دون أن يكون لأكثرية الناس أي نصيب منها، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: ﴿**وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين**﴾[2].

ليس الهدف من النعم ان يستغني بها الإنسان عن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**كلاّ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾[3] وكذلك ليس الهدف منها أن لا يتمتع بها الإنسان بحيث يزهد بها ولا يكترث لها، حيث قال تعالى ﴿**وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾[4].

---

(١) المعجم الوسيط في اللغة، م. س، ص٨٤.

(٢) سورة يس، الآية: ٤٧.

(٣) سورة العلق، الآية: ٦.

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٧.

وهذه الإساءة في استخدم النعم إنما يعود سببها إلى تكذيب النبي وعدم الاكتراث لوصاياه وارشاداته، ولو أن الناس اطاعوا قولاً وفعلاً، وشكروا قولاً وفعلاً، لما كنا رأينا هذه التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة على مستوى العالم وخاصة على مستوى العالم الاسلامي، ولهذا نحن نرى ضرورة لإعادة النظر في كل الابحاث الإجتماعية والسياسية التي تربط التخلف بهيمنة الاستعمار الأجنبي، وتعلّله بكثير من الاسباب الواهية، فإن من شأن إعادة البحث فيما يعيشه العالم الاسلامي اليوم من ترف وتخلف معاً، أن يكشف عن أسباب جديدة لم يلتفت إليها في كثير من الأبحاث، لأن الترف لا تقع تبعاته على الاستعمار أيضاً ولا على التبعية له، إنه حالة متجذرة في عالمنا الإسلامي، وهو الباب الذي دخل منه الإستعمار إلى هذا العالم. ولا ندري لما الحرص والاصرار عند مثقفينا وأهل السياسة أيضاً على اللحاق بالحضارة المادية طمعاً بما توفره من ترف زائد على ما عندهم من ترف؟! وكما قال تعالى: **﴿انهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾**[١].

إن الأمن والاطمئنان وإتيان الرزق والسؤال عن ذلك كله يبقى مرتبطاً بحضور النبي وأُولي الأمر في حياة الأمة وطاعتها لهم فيما يأمرون به وينهون عنه، إذ إنه بمقدار ما يكون الإمام حاضراً في حياة الأمة يكون الفعل السياسي، وكذلك الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، منسجماً مع أطروحة النبوة كوننا لا نستطيع التحدث عن طريقة استخدام النعم، فيما تستخدم فيه من وجوه أو عن الكفر بها أو عن الشكر لله على نعمه أو عن التقدم أو التخلف ما لم تكن النعم المعنوية ماثلة أمامنا ومؤثرةً في حركتنا وفي سائر وجوه حياتنا، ذلك أن الفصل بين وجود النعم المادية والمعنوية غير ممكن

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٤٥.

لما بيناه فيما سبق من كلام، لأن هدف النبي أو الإمام هو الإرشاد إلى ما يكون به الصلاح في الدين والدنيا وقد أثبتت التجارب الإجتماعية أن المظالم لم ترتفع من حياة الناس ولم يتم التعرف على حقيقة الأهداف التي ينبغي تحقيقها إلا بعد أن بعث الله الأنبياء منذرين ومبشرين ومعلمين، وعدم ملاحظة هذه الحقيقة أو التصرف بمعزل عن مدلولاتها يفضي إلى مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية من شأنها أن تفسد المجتمع الإنساني التي تحل به. إن الترف كما قلنا ليس شيئاً غير كفران النعم المادية والمعنوية معاً، يقول العلامة الطباطبائي: «قوله تعالى: ﴿**ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه**... هو النعمة المعنوية التي أضافها إلى نعمه المادية المذكورة. وكان فيها صلاح معاشهم ومعادهم وتحذير لهم من الكفران بأنعم الله وشرح ما فيه من الشؤم والشقاء، لكنهم كذبوا رسولهم الذي هو منهم يعرفونه ويدرون أنه إنما يدعوهم لأمر الهي ويهديهم إلى سبيل الرشاد وسعادة الجد، فظلموا ذلك فأخذهم العذاب بظلمهم﴾[1].

---

(١) تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي بيروت، ١٩٩١، ج١٢، ص٣٦٣.

العقل بين النعمة والترف

لقد بينا في معنى الغنى والترف، أن الحياة الإنسانية ما كانت لتستمر وتكتمل إلا بنعمتين، وهما النعمة المادية والنعمة المعنوية، ولكل من هاتين النعمتين أثره في حياة الإنسان، ولكن الميول والأهواء والشهوات تدفع بالإنسان إلى أن يكون كافراً فيما انعم الله به عليه، فيستشعر في نفسه العزة والاستغناء، ويبذل طاقاته فيما لا ينفعه حتى في حياته التي قد يظن أنها لن تبيد أبداً!؟

وكما سنبين في أبحاثنا اللاحقة، ان الترف ليس وليد النعمة الزائدة، وانما هو خاصية عامة مكنونة في نفس الإنسان، فقد يكون ترفاً من غير نعمة، وقد يكون متنعماً من غير ترف، باعتبار ان المقياس في ذلك كله، وفي تحديد ما إذا كان الإنسان مترفاً أم غير مترف، هو النفس الأمارة بالسوء التي هي مناط الحركة، ومعقل الشهوة، ومبعث الهوى، فما لم تروّض هذه النفس، فإن العقل يصبح محكوماً لها وتابعاً لما تأمر به من أهواء وتعيشه من ملذات. . . ؟!

من هنا، فإن ما يعيشه العالم اليوم ليس أزمة ثروة أو سلطة، وإنما

هناك أزمة نفس انسانية خرجت من قمقمها لتلتهم كل شيء مستعملة الإنسان وكل ما يملك من طاقات وقدرات وكفاءات في سبيل الشره والحرص والطمع. إنها أزمة الروح في عالم هجر معبد التقوى والايمان، وكفر بكل امتيازاته التي منحه إياها الله تعالى..

انها أزمة عقل انساني أبدع في الكشف عما انطوى عليه هذا العالم الطبيعي، ولكنه اخفق في ادراك ماله من قيمة ترتفع به عن كونه عقلاً له حدود هذا العالم لتجعل منه جوهراً مطلقاً له موقعه في عالم العقول وسره في عالم الأمر الإلهي، الذي جعل من شروط خلق هذا العالم أن يكون الإنسان بما منح من عقل وكرامة، سيد هذا العالم وقطب رحاه، إذ من دونه لما كان للفَلك من قيمة. إذن نعمة العقل في أصل وجودها، هدفت إلى أن يكون الإنسان حاكماً على الأشياء ومتصرفاً فيها ومبيناً لغوامضها وكاشفاً عن أسرارها، فما لم يكن للعقل هذا المعنى فإن الإنسان يخسر كثيراً من معناه، وتنتهي عملية التعقل عند حدود الأثر المادي الذي حققه، في حين ان العقل له معاني اخرى تتجاوز المادة الى طبيعة التعقل نفسها بما هي عملية روحية حاكمة وكاشفة عما هو وراء الفعل المادي، يقول أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله خلق العقل وهو أول ما خلق من الروحانيين عن يمين العرش من نوره، فقال له أدبر فأدبر، ثم قال له أقبل فأقبل؛ فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرّمتك على جميع خلقي»[1].

في هذا السياق نرى ان نبدأ بالحديث عما آل إليه العقل الإنساني في ضوء ما استجد من تطورات على صعيد العلم والمعرفة لنرى ما إذا كان هذا العقل قد احتفظ بموقعه، ولعب دوره في إظهار معنى النعمة والقيمة لكل ما يعيشه الإنسان ويتفاعل معه سواء على صعيد الذات أو على صعيد

(١) انظر: الملا صدرا، مفاتيح الغيب، مؤسسة مطالعات، إيران، ص١٦٥.

الموضوع، فنقول: إن الإنسان ـ بما لديه من نعم ـ لم يتمكن من حماية نفسه مما أنجزه على مستوى عالم المادة حيث يترافق انحصار العقل والروح مع كل تقدم يحصل للكشف عن غوامض وأسرار العالم الطبيعي، وكما يقول علي حرب: «انه لمن السذاجة أن يدافع أحدنا عن مقولة التقدم فيما العنف يزداد عما قبل، وازدياد العنف يعني في المقام الأول تراجع العقل. إذ العقل هو إدارة الصراعات بين المختلفين من البشر بأقل قدر من النبذ والإستبداد والعنف»[1]، ومن هنا نستطيع القول: إن الإنسان اليوم يستثمر العقل في إفساد نفسه والعالم معاً، ولهذا قال تعالى: ﴿**وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**﴾[2].

فالعقل يمكن أن ينتج الكثير مما يحتاج إليه الإنسان في حياته، وان يكشف عما يحيط بالعالم الطبيعي من غموض، لكن ذلك كله لا يكون من التعقل الحقيقي في شيء ما لم تستثمر الإكتشافات في تزكية الإنسان وتطهيره بحيث يكون لفعله ولكل عملياته العقلية والنفسية أثار وانعكاسات ايجابية على المجتمع الإنساني. فلا يفتن الإنسان بالأنجازات التي يحققها العقل دون أن يكون له أي معنى روحي. فالرجس إنما يكون على الذين لا يعقلون حينما ينعدم التأمل والتدبر فيما خلقه الله تعالى وجعله موضوعاً للعقل، أي حينما يتحول العقل إلى مجرد آلة تستعمل للشكف عما هو غامض دون تدبر بالهدف والغاية التي يريد العقل الوصول إليها، إذ إن طبيعة عمل العقل فيما لو اعتبر مجرد آلة تعمل عملها في العالم الطبيعي وتكشف عما هو غامض أن تتحول القيمة عن العقل إلى ما هو منتج، مما يؤدي إلى أن تكون العملية العقلية عملية مادية محضة كما هي النظرة المادية إلى العقل التي تعتبر

---

(١) علي حرب، نقد المثقف، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٦، ص١٠٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٨ ـ ١٠٠.

العملية العقلية مجرد وظيفة مادية جسدية، وأن العقل هو ما يفعله الجسم بحسب نظرية سكنِر[1].

إن العقل حينما يصبح عملية مادية لا هدف لها يصبح موضوعاً للرجس، يقول العلامة محمد جواد مغنية: «إن المراد بالرجس هو الكفر أي ان الإعراض عن آيات الله وعدم تدبرها يؤدي حتماً إلى الكفر، كما ان تدبرها يؤدي حتماً إلى الإيمان»[2].

فما من تدبر في العالم إلا ويؤدي إلى الإيمان، فيما لو أحسن الإنسان التدبر في نفسه وفي العالم، وكلما كان الإنسان أقدر على الغوص في غوامض عالم الطبيعة كلما كان أقدر على تجاهل نفسه وجميع ادراكاته العقلية، وكلما كان الإنسان أقدر على معرفة نفسه والتدبر فيما يبديه من احوال، كلما كان أقوى على الاعتبار فيما ينتهي إليه من انجازات مادية في الواقع، لأن عالم النفس والعقل أعقد بكثير من العالم الطبيعي، ومن شأن التدبر في هذا العالم النفسي ان يجعل الحالة الإيمانية اقوى على الحضور من أية حالة اخرى، من هنا نقول: إن انعدام الإيمان انما هو دليل على حضور الرجس في عالم العقل وعلى غياب العقل عن ذاته، ولهذا قال تعالى: **﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾** فيكون معنى الرجس غياب معنى العقل بما هو تدبر وتأمل وليس العقل نفسه، وإلا لما كان عبر الله تعالى بقوله لا يعقلون. فالعقل موجود إلا أن عليه رجساً يزيد الترف من كثافته كلما ازداد الإنسان اعراضاً عن آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق. لقد خلق الجهل ـ كما في الحديث ـ من البحر الأجاج ظلمانياً فقيل له أدبر فأدبر، ثم

---

(1) انظر: علي زيعور، مذاهب علم النفس، بيروت، دار الأندلس، ط٥ ١٩٨٤م، ص١٩٥.

(2) مجمد جواد مغنية، تفسير الكاشف، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨١م، ص١٩٥.

قال له أقبل فلم يقبل، فقال استكبرت فلعنه، فلما رأى الجهل ما أكرم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة»[١].

إن هجرة العقل عن ذاته وعدم الإقبال على عالم الروح، هو الذي يجعل العقل موضوعاً للرجس، وعدواً لنفسه.

وهنا قد يقال ما علاقة الترف بدور العقل، أو ما علاقة الأعراض عن التدبر بآيات الله بموضوع النعمة والترف؟

نقول: إن نعمة العقل هي من اعظم النعم الإلهية على الإنسان، ولولاها لما كان هناك أي معنى أو قيمة للنعم الأخرى، والترف مثلما انه يؤدي إلى افساد العالم الخارجي والعبث بكل ما ينتجه الإنسان، فكذلك هو يؤدي إلى افساد نعمة العقل، فبدل أن يكون العقل حافظاً للإنسان، ومدبراً لحياته الخاصة والعامة، يصبح مجرد آلة في ظل الترف تتحكم به الأهواء، وتدفعه إلى أن يستعمل نفسه في سبيل الشر، كما هو حال عالمنا اليوم الذي أصبح عمل العقل فيه في مجال الشر أكثر من عمله في مجال الخير، مما يدل على ان الكفر بنعم الله وخاصة نعمة العقل، ينتج عنه أن يكون العقل خادماً للشهوة واللذة، ومن مساوىء الترف الأكثر بلاءاً على الإنسان ان يتحول العقل من كونه نعمة فيصبح نقمة على الإنسان فلا يستفيد منه في هداية نفسه، ولا في تدبير واقعه، ولهذا قال تعالى: ﴿**الم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً واحلّوا قومهم دار البوار**﴾[٢].

والتبديل هنا لا يمكن فهمه إلا على نحو أن العقل لم يعد عقلاً، بل رجساً، والايمان لم يعد ايماناً، ولا الهداية هداية، وإذا تبدلت هذه النعم المعنوية والروحية والعقلية إلى ما يناقضها، فلا بد من أن يتبعها تبديل في

(١) انظر: الملا صدرا، مفاتيح الغيب، م.س. ص١٦٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢١ ـ ٣١.

النعم المادية، ونتيجة هذا التبديل كما بين تعالى هي احلال دار البوار. ولا شك ان التبديل سواء أكان في النعم المادية أو الروحية لا يكون إلا إذا اترف الناس اترافاً شديداً بحيث تكون الشهوة بديلاً للعقل، والحيوانية بديلاً للإنسانية، وهذا كله يستتبعه ويترتب عليه اثار سلبية في الواقع وفي النظرة إلى النعم المادية التي لا يكفر بها إلا بعد أن يكون قد تحقق الكفر في النعم الروحية. وما دامت الآية ناظرة إلى هذا المعنى، ومتحدثة عن قادة الكفر والضلال الذين اختاروا الضلالة على الهدى، والشهوة على العقل، والشر على الخير، فإن ذلك كله يرشد إلى أن مَن يستبدل العقل بالشهوة والشر بالخير، لا يمكنه أن يحسن التصرف في النعم المادية باعتبار ان أهم شيء في الإنسان قد تم التبديل فيه، فمن أين تكون للإنسان القدرة على وضع الأمور في مواضعها في ما هو خارج نفس الإنسان!

يقول الملا صدرا: «ثم لو لم تكن أوهام المعطلين، وخيالات المتفلسفين والدهريين وسائر أولياء الطاغوت ومراتب جربزتهم وفنون اعوجاجاتهم، لما انبعث أولياء الله وأهل الحكمة والعرفان في تحقيق الحقائق وتعليم العلوم وطلب البراهين لبيان التوحيد وعلة الحدوث للعالم على سبيل اليقين»[1].

إن مَن يربح نفسه، ويستفيد من نعم الله الروحية والمادية، هم أولئك العاقلون الذين يدبرون ويقبلون على ضوء أمر الله تعالى، فما لم تحفظ نعمة العقل، فإن كل شيء يمكن ملاحظته على ضوء البصر وسائر الحواس التي لم يعد لها بعد تحقق الجهل جذور لا في نفس الإنسان ولا في عقله، تماماً كما فعل فرعون حينما نادى في قومه أليس لي ملك مصر، قال تعالى: **﴿ونادى فرعون في قومه قال: أيها الناس أليس لي ملك مصر والأنهار تجري من**

(١) انظر: مفاتيح الغيب، م.س. ص١٦٥.

تحتي أفلا تبصرون﴾[1].

قوله أفلا تبصرون هو مقياس صحة ما هو عليه فرعون من ترف وكفران بالنعم الروحية والمادية، ولو أنه كان على شيء من التدبر والتأمل والإدراك العقلي، لما قال لقومه أفلا تبصرون، مما يدل على أن فرعون ما كان يسعه إلا أن يسترشد بالبصر والجهل والسحر لتبرير ترفه وطغيانه، وتدعيم ملكه، رغم أن كل ما كان عليه فرعون من حضارة مادية كان من نتائج العقل، إلا ان عقله قد جعل عليه الرجس وتعصب لآثار مواقع النعم، وظن السخط والرضا بالمال والولد؟!.

وما نحن عليه اليوم من حضارة مادية لا يختلف عما كان عليه السابقون ممن اترفوا وكفروا بنعم الله تعالى، كما ان تبرير الترف والطغيان انما يتم من خلال ما تراه الابصار من حضارة وتقدم، فلا يقال «أفلا تعقلون» لأنه ليس للعقل في هذا العالم ما يبرره على مستوى الروحية والايمان، أو على مستوى التدبر في الآيات في الأنفس والآفاق، تلك هي حالة الحضارة اليوم، الفتنة فيها للبصر، والعمل فيها للعقل المترف..!؟

ففرعون يطلب إلى قومه ان ينظروا، وموسى وسائر انبياء الله تعالى يطلبون إلى قومهم ان يعقلوا ويتدبّروا آيات الله كما قال تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها﴾**[2]، وبين البصر والبصيرة فرق كبير، وما دامت الحضارات تقوم على البصر وتتقوّم به، فلن يكون هناك عقل إلا في خدمة مشاريع الترف التي تتجمع عليها الشهوات وتبنى على أساسها حضارات الجهل، وتستأجر فيها العقول لخدمة قادة الإنحراف والضلال، وإذا كان هناك ثمة مَن يعترض، فيقال له أفلا تبصر كيف تجري الأنهار،

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥١.

(٢) سورة محمد، الآية: ٢٤.

وتصعد الأقمار الاصطناعية، وترتفع أمجاد وعروش الصنمية، أفأنت تشك في ملك الفرعونية!؟ بلى لك يا فرعون ملك مصر، والأنهار تجري من تحتك ما دمنا نبصر، لكن حينما نعقل سندرك ان الملك لله، يؤت الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير وانه على كل شيء قدير، وقد أتى الملك لأنبيائه ورسله، وهدى النجدين إما كافراً وإما شكورا، ولما جاءت النبوة لم تقل لي الملك، ولا قالت الأنهار تجري من تحتي، ولكنها قالت: أيها الناس: «وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها» أفلا تعقلون. . . «إن الإنسان لظلوم كفار»!!.

نعم لا تحصى وكفر لا يدوم:

إذا كان البصر مقوّم الحضارات، ومنتهى التدبر في الآيات الباهرات، وإذا كان العقل أسير الشهوات، والنفس مبعث الظلمات، فلم يعد لنا ثمة حاجة للبحث فيما وراء الظاهرات. . وفي ما يراه البصر من واقعات الحوادث في عالمنا اليوم، لأن المعوّل عليه في الشكر على نعم الله تعالى أصبح رجساً تستثمر فيه الروح والمعرفة لتنتج مزيداً من الكفر والطغيان، وتبديلاً في النعم الظاهرة والباطنة، ذلك هو معنى ومصير النعم التي لا تحصى، وهكذا يكون الكفر بها سبباً لعموم البلاء في مجتمعات تنقسم بين مترف وفقير بسبب سوء استخدام الثروة والجهل بالنعمة، فالعالم اليوم كما كان في السابق تحركه أيدي العابثين وتحكمه عقول المترفين، وتطوف به شهوة اللذة جاعلة منه مسرحاً للاغواء ومعقلاً للأهواء، ومدفناً لعقول الأصحاء فيبيتون الليل قلقاً، ويحيون النهار أملاً وشوقاً إلى من تعود معه النعمة، وتزول على يده فنون الترف، ويملأ الدنيا قسطاً وعدلاً بعدما ملأها الفراعنة ظلماً وجوراً. . ؟!

إنه عالم مليء بالنعم من فوق الناس وتحتهم، ولو ان الناس استقاموا

على الطريقة لأسقاهم الله ماءً غدقاً، لكن الإنسان بدل نعم الله كفراً، وفصل بين العقل والروح، وبين الإيمان والعمل، فأنتج ظلماً وجوراً، وساس نفسه بالمحرمات والاثم والبغي بغير حق، فأصبحت حياته كلها نكراً، فأحاله الترف والشرك بالله والقول على الله ما لا يعلم إلى ذُل النفس وفقر الروح وغير ذلك مما يدفعه إلى الظن بنفسه وحياته دهراً، كما قال اولئك الذين أبعدوا واترفوا، **﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمعذبين﴾**[1].

إنه عالم مليء بالثروات، يعيشه انسان ظلوم كفار أبطرته النعمة، واماتت قلبه وعقله الشهوة. إنسان لذته أن يتمتع ببؤس الفقراء، ومهمته أن يدّعي احتكار الثروات والاسراف فيها لزيادة شهوته قوة، وحياته ترفاً. انه الإنسان الذي ضاق بنفسه وعقله العالم رغم اتساعه لما لا يعد ولا يحصى من النعم المادية والروحية. هكذا يؤدي الجهل والكفر إلى أن يضيق بالإنسان ما يتسع له العالم، فلو انه آمن واتقى لأبصر عظيم النعمة. وادرك حقيقة المكانة التي جعله الله عليها، والكرامة التي منحه إياها...!؟

لقد أمسك الإنسان خزائن الرحمة، واستبد بالنعمة، وحمّل نفسه مشاق النقمة بما أترف فيه حينما استأثر بالخيرات، وعبث بالثروات حتى كان ما كان منه من هلاك للحرث والنسل غير ممتنٍ لأحد فيما اجاده على نفسه من نعم الحضارة المادية التي أعمته عن رؤية الحقيقة، وأسلمته إلى الشيطان مغفوراً، بدلاً من أن تسلمه هذه النعمة إلى الله غير مكفور...

إن الحضارة المادية اليوم لم تبق على صلاح لا في الأرض ولا في السماء، وتسببت في إظهار الفساد في البر والبحر، وجعلت من الفقر عنواناً للإنسان، ومن الترف عنواناً للنعمة!!

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٧.

وما هكذا الظن بالإنسان خليفة الله ان يجهل نفسه، وأن يكفر بنعم الله عليه، وان يحرص على تبديد الثروة، وتعميق الهوة بين نفسه والعالم...؟!

قال تعالى: **﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخرّ لكم الليل والنهار، وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾**[١].

فالآية كاشفة عما أتى الله الإنسان من نعم لتدبير نفسه وعالمه وتأهيله للسعادة الأبدية بعد أن يكون قد تأمل وتدبر واعتبر وغير ذلك مما يحمله على الشكر طوعاً، الشكر العملي المانع له من أن يسيء استخدام الثروة، والمؤدي به إلى تحقيق العدل الاجتماعي، فلا تسره الهيمنة الاقتصادية ولا حالات الفقر الناشئة عن الجهل والكفر بنعم الله تعالى. إن سوء استخدام الثروة والعبث بموارد الطبيعة واستغلالها من قبل الفراعنة هو نتيجة حتمية لغياب الروح الإنسانية، وحقائق الايمان عن قلب الإنسان، مما أدى إلى أن يكون أكثر سكان العالم اليوم فقراء ومحرومين من أدنى الحقوق التي جعلها الله لهم في الخيرات والثروات، تقول سوزان جورج تحت عنوان كيف يموت النصف الأخر من العالم نقلاً عن الاستاذ روجر ريفيل من جامعة هارفرد: «بأن الأرض تستطيع اطعام سكان يتراوح عددهم بين ٤٠ و٥٠ مليار نسمة»[٢] بينما نجد العالم اليوم يضيق ب ٥ مليارات نسمة نصفهم

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) سوزان جورج، كيف يموت النصف الأخر من العالم، ترجمة كمال خوري عن وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٨١م نقلاً عن مجلة الفكر العربي عدد ٥٤، =

فقراء واموات بسبب سياسات الترف التي يعتمدها قادة الشر والضلال في العالم، «وتصر الكاتبة على أن المشكلة لا تكمن في زيادة السكان بقدر ما تكمن في مشكلة توزيع الأغذية أو وسائل انتاجها»[1].

وهذا ما يمكن استظهاره من الآيات الكريمة التي عبرت عن الوفرة والإتساع والزيادة ﴿**وأتاكم من كل ما سألتموه**﴾ ولا يعقل أن تكون زيادة عدد السكان سبباً للفقر، لأن قول الله مطلقاً في الزمن، ومهما بلغ عدد سكان العالم، فإن الثروات والخيرات تبقى زائدة عليه ما لم تحتكر هذه الثروات وتصرف في وجوه الترف، ذلك ان الذي خلق العالم وجعله على هذا النظام المتقن والتدبير المحكم هو أعلم بما خلق، وأجل من أن يترك الناس عرضة للفقر أو القلة، ولهذا أتى الإنسان كل ما سأله بعدما عرض مسألة خلق السماوات والأرض، وما سخر للإنسان من أشياء في الأرض والسماء وكلها نعم لا تعد ولا تحصى، وقد سأل الله مستنكراً ما بدا من بعض العباد، كما في قوله تعالى: ﴿**افرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون**﴾[2]. وقال تعالى للناس: ﴿**قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق...**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**أمن هذا الذي يرزقكم إن امسك رزقه**﴾[4].

نعم العالم بما فيه من خيرات وثروات وموارد طبيعية يكفي لإطعام الإنسان ما دام هناك سماوات وأرض وأنهار وشمس وقمر دائبين، لكن الثروات تنفق في سبيل الشر، ويكفر بها على نحو ما ترى في العالم من ترف

= ١٩٨٨، ص٢١٨.

(١) م، ع. ص ٢١٩.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

(٤) سورة الملك، الآ١ية: ٢.

وتسلح وسياسة اقتصادية مهتمة بانسان على حساب أخر، وقد بينت الابحاث والدراسات أن تكاليف قنبلة ذرية أو هيدروجينية تكفي لبناء مئات المستشفيات والمدارس، ولإطعام دول العالم الثالث برمتها. إنها سياسة الترف الفرعونية التي تريد أن تقول للفقراء وللمستخف بهم: اليس لي ملك العالم. . . أفلا تبصرون. . !؟

ويزداد الأمر وضوحاً، وتظهر بأدنى تأمل دلالات الآية المباركة حينما نعرف بأن ما استورده الاتحاد السوفياتي من الحبوب عام ١٩٧٢، ١٩٧٥ كان مخصصاً لإطعام المواشي لا البشر، واكثر من ذلك عجباً، هو ما نقرأه عن نسبة اللحوم التي تأكلها الحيوانات والكلاب في امريكا التي تعطي من الاهتمام والعناية الصحية للحيوان أكثر مما تعطي للإنسان؟!

كما أنه يكفي ان تعرف ما هو عليه عالمنا العربي والاسلامي الذي يعيش الفقر والجهل والمرض وفيه من الثروات ما يكفي لاشباع مليارات البشر، ولكن سياسة الترف والاحتكار والتبعية تحول دون تنعم هذا العالم بنعم الله، ودون أن يكون له نصيب أو دور في رسم سياسة العالم مما يستدعي إعادة النظر في الهيكلية السياسية والاجتماعية والاقتصادية الحاكمة لعل ذلك يُسهم في منع الاستغلال والاحتكار وسياسات الترف من التحكم بالثروة، وفي تحقيق التوازن الإجتماعي، وفي تلبية حاجات الإنسان، وفي هذا المعنى يقول الشهيد محمد باقر الصدر: «إن الآيات الكريمة بعد أن استعرضت مصادر الثروة التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان أكدت أنها كافية لإشباع الإنسان وتحقيق سؤله (واتاكم من كل ما سألتموه)، فالمشكلة الواقعية لم تنشأ عن بخل الطبيعة أو عجزها عن تلبية حاجات الإنسان، وإنما نشأت من الإنسان نفسه كما تقرر الآية الأخيرة ﴿**إن الإنسان لظلوم كفار**﴾ فظلم الإنسان في توزيع الثروة وكفرانه للنعمة بعدم استغلال جميع المصادر

التي تفضل الله بها عليه استغلالاً تاماً هما السببان المزدوجان للمشكلة التي يعيشها الإنسان البائس منذ أبعد العصور وبمجرد تفسير المشكلة على أساس انساني يصبح بالإمكان التغلب عليها والقضاء على الظلم وكفران النعمة بايجاد علاقات توزيع عادلة، وتعبئة كل القوى المادية لاستثمار الطبيعة، واستكشاف كل كنوزها. . . »[1].

إنها حضارة البصر الفرعوني، والترف التاريخي الذي لم يتولد عنه إلا البؤس والحرمان والفقر بشتى صوره واشكاله، وإذا كانت النعم الإلهية لا تعد ولا تحصى، وإذا كان الجهل والكفر مانعاً من استخدام هذه النعم في طريق الخير، ومؤدياً في كثير من سياساته إلى إهلاك النوع البشري بما ينتجه من ادوات للشر، فذلك كله لا يشكل قاعدة لاحتواء الخير واهله، بل هو حالة سبق للبشرية أن عاشتها وتأثرت به سلباً، ولكنها كانت لا تلبث أن تعيد الأمور إلى مواضعها من خلال انتصار مشروع النبوة الذي كان دائماً يثير العقل بما يؤهله لانتاج حضارة العقل والفطرة الإنسانية على انقاذ حضارة البصر الفرعوني الممتد تاريخياً وزمانياً ما دامت الحياة الدنيا، وكما قال تعالى: **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾**[2]، وهذا دليل على أن النعم لا تعد ولا تحصى وان الكفر والجهل لا يدوم، ولا بد أن تحقق العدالة على هذه الأرض قبل يوم القيامة. . .

---

(١) محمد باقر الصدر، اقتصادنا، م. س. ص٦٧٤ ـ ٦٧٥.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

بين الترف والغنى

ليس دائماً الإنسان المترف هو الإنسان الغني، فقد يكون الإنسان غنياً ولا يكون مترفاً، باعتبار ان للتقوى والعلم بالكتاب والسنة والالتزام بما يأمر به العقل والشرع دخالة كبيرة في تهذيب نفس الغني بحيث يفهم ان المال الذي بيده ليس ماله، وإنما هو مال الله وهو مستخلف فيه ينفقه في وجوهه. وفي سبيل الله تعالى.

أما الغني الذي تستبد به اللذات والشهوات، ويعتبر المال مالاً له، أوتيه عى علم عنده، كما قال قارون فهو الغني الذي يذمه العقل والشرع معاً، لأنه يؤدي به إلى الطغيان والكفران بالنعمة، ويصبح المال عنده غاية ليس بعدها غاية كما هو شأن المترفين في كل زمان، وقد قيل في هذا الغني الذي شأنه الطغيان والكفران انه الفقر بحد ذاته باعتبار ان الذي يكدس الأموال ويحتكر الثروات وتميل به الرغبة دائماً إلى الشره وحبس المنافع المادية عن الناس، هو انسان بالدرجة الأولى ظالم لنفسه ولمجتمعه معاً، لأنه يبخل على نفسه، ويقوده حب المال إلى معصية الله تعالى، إن أي انسان يعيش هذا الوضع؛ لا شك انه يسمى بالغني مجازاً، كون الغنى الحقيقي هو أن يتمتع الإنسان بنعم الله، وبكل ما أحله الله له من الزينة وطيبات الرزق،

كما في قوله تعالى: ﴿**قل مَن حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾[١].

فالغني المؤمن له أن يتمتع بكل ما أحله الله له، وأن لا يعتبر الثروة والمال مقياساً لكل شيء، أو سبباً للسعادة في الدنيا والآخرة، وانما يبتغي فيما آتاه الله الدار الأخرة ولا ينسى نصيبه، أي حظه من الدنيا وطيبات الرزق وغير ذلك مما جعله الله خالصاً يوم القيامة للذين آمنوا. فهذه الطيبات وكل ما عبرت عنه الآية بزينة الله ليست محرمة على الإنسان، لأن الله تعالى حينما ينعم على عباده، فإنه يحب ان يرى أثر نعمته عليه دون تجاوز حد الاعتدال لقوله تعالى: ﴿**ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾[٢].

وقد أوضح ذلك العلامة الطباطبائي بقوله: «إن إباحة الزينة وطيبات الرزق لا تعدو مع ذلك حد الإعتدال فيها والوسط العدل بين الإفراط والتفريط فإن ذلك هو الذي تقضي به الفطرة...»[٣].

إذن دلالة الآية المباركة يمكن فهمها على هذا النحو ان الغني المؤمن هو الذي يتمتع بنعم الله ويقتصد فيما يتنعم به فلا يكون مسرفاً، لأن الله لا يحب المسرفين، ولأن الله أمر بالقسط، أما الغني الكافر، أي المترف، فهو الذي يعتبر المال سبباً ومقياساً للسعادة وانه منتهى الغايات، ولا يكفيه التمتع فيما أحله الله له من المأكل والمشرب والملبس والمنكح، بل يتجاوزه

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.
(٣) العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س. ج١٨ ص٨٣.

إلى ما حرم الله تعالى، وكل ما تناولته الآية المباركة: **﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن...﴾**

فالآية في قسمها الأخير ناظرة إلى حال المترفين ودورهم في التعاطي مع نعم الله تعالى، حيث انك لا تجد مترفاً سواء أكان حاكماً، أو رجل أعمال أو غير ذلك ممن تنطبق عليه صفة الكفر والطغيان ممن أترفته النعمة إلا وقاطعاً لما أمر الله به أن يوصل، أو محلاً لما حرم الله.. هذا فضلاً عما يدعيه من قدرة وفن على جمع الثروة، وقد دخل الترف عالم الثقافة، وأصبح هناك مثقف مترف، وعالم دين مترف إلى جانب رجل السياسة المترف والتاجر وغيرهم كثير. باعتبار ان الحياة قد توسعت والدنيا أرخت عزاليها[1]، مما أدى إلى أن يكون الترف عاماً وشاملاً لكل قطاعات الحياة البشرية، بدليل انك قلما تجد انساناً في عالمنا اليوم إلا وقد اخذت الدنيا منه مأخذها، وبات من الصعب جداً الحديث عن القيم والمبادىء والاخلاق بمعزل عن الثروة والسلطان، فالترف لم يعد سمة بعض الأغنياء، بل تعداهم إلى كثير من اصناف المجتمع وهيئاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، وقد لا يكون هذا الكلام غريباً فيما لو عرفنا أن الناس أصبحوا أسرى المال والسلطة ولم يعد للإيمان والتقوى ما يبرر وجودهما ما دام المعيار الحقيقي لتقدم المجتمع ولاعتبار هيئاته معنوياً هو المال أو المال والسلطة معاً.

لسنا بصدد تشخيص الواقع الاجتماعي للناس أو الحالة الإيمانية أو التقوائية عندهم، وانما نحن بصدد الحديث عن الغني المترف، كما قلنا،

(١) مثل يضرب تعبيراً عن شدة وقوع المطر على التشبيه، تقول ارسلت السماء عزاليها، شدة وقع المطر على التشبيه بنزوله من أفواه المزادة، أي الحديث، ارسلت السماء عزاليها أي أفراحها.. انظر تفسير الميزان، ج٨، ص٩٣.

ولا يعني ذلك ابداً استثناء الواقع فيما نبحث عنه، لأن الواقع أصبح دليلاً حياً على ما يعيشه العالم اليوم من ترف يبيح كل شيء، ولا يرى قداسة لشيء إطلاقاً، وما تنظر إليه الآية المباركة في قسمها الأخير يستفاد منه هذا المعنى، وهو أن المترف قوام حياته على ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وعلى الاثم والبغي والعدوان، وعلى الكفر بنعم الله، إضافة إلى الشرك بالله تعالى من خلال اعتبار المال الهاً اخر يعبد من دون الله تعالى، وقد عبرت كلمة الله المسيح بن مريم عليه السلام عن هذه الحقيقة بالقول: إنك لا تستطيع أن تعبد الهين، الله والمال، فإما الله، وإما المال، والمترف ديدنه وقوام حياته، كما قلنا، أصبح المال كبديل لكل القيم والأهداف والمبادىء الإنسانية، هذا فضلاً عما يؤدي إليه ذلك من مظالم للناس في حياتهم الخاصة والعامة...

لقد بينا فيما سبق ان المترف يتجاهل النعمة المعنوية المتجلية بالرسل والأنبياء والمعبرة عن ارادة السماء، والمبينة لخطوط وتفاصيل شرع الله تعالى، وإذا كانت دعوة الأنبياء قد اصطدمت في بداية كل مرحلة ومع بعثة كل نبي أو رسول بالمترفين، فإن ذلك سببه كان ولا يزال خشية هؤلاء من أن تتغير أحوال الناس ومفاهيمهم عن الحياة والمال، فعاندوا وكابروا وظلموا لأجل أن تستمر حياة الترف القائمة أساساً على عبادة المال وطاعة الطاغوت، والمعبرة عن نفسها بمنطق: **﴿إلا قال مترفوها إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على أثارهم مقتدون﴾**[1].

وهذا ما بادرت السماء إلى القضاء عليه من خلال أرسال الرسل والانبياء بحيث تكون العبادة لله وحده، والمال وسيلة من الوسائل التي لا بد منها في اعمار الأرض وتحقيق الأمن وجلب الرزق لما يذهب إليه الفقهاء في

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

أن كل شيء في هذا العالم هو مال، وبما أنه مال الله تعالى ووضعه عند الناس ودائع، فذلك يقضي في حكمة الله ان لا يتخذ هذا المال وسيلة لظلم الناس وافساد حياتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية، وقد جاءت النبوة لتحقق العدل وتدل على وجوه المصارف وسبل السعادة والكمال للناس جميعاً، فبين أن يكون المال وسيلة في يد الأنبياء وسائر المؤمنين، وغاية في يد المترفين والطواغيت يوجد فرق كبير، ففي الحالة الأولى يكون المال نعمة ويتحول إلى مادة بناء في حياة البشر بينما في الحالة الثانية، أي أن يكون المال في أيد المترفين، فيتحول الى نقمة وإلى مادة افساد في حياة الناس كما هو حاصل اليوم في عالمنا المعاصر الذي أصبح المال فيه عنواناً لكل شيء وسبباً لكل شيء، وقلما نجد انساناً إلا ويقول لولا فلان لهلكت سواء في التعليم أو في الطبابة أو في غير ذلك مما يحتاج إليه الإنسان في حياته الإجتماعية والاقتصادية، لقد ورد في تفسير العياشي عن إبان بن تغلب قال: قال، قال أبو عبد الله عليه السلام أترى الله أعطى من اعطى من كرامته عليه أو منع من منع من هوان به عليه؟ لا ولكن المال مال الله يضعه عند الرجال ودائع، وجوز لهم أن يأكلوا قصداً، ويشربوا قصداً، ويلبسوا قصداً وينكحوا قصداً، ويركبوا قصداً ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلموا به شعثهم فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ويركب حلالاً . . . ومن عدا ذلك كان عليه حراماً. .[1]، ثم قال: **﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾**[2].

في هذا الكلام معانٍ دقيقة وجليلة واشارات إلى ما ينبغي أن يكون عليه حال المجتمعات الإنسانية، والامتثال له من شأنه تحقيق كل ما يحتاج

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٢) انظر: تفسير الميزان، للعلامة الطباطبائي، م. س. ج٨، ص٩٤.

إليه الناس دون منة من أحد ولا ذل، ولو اردنا اخضاع هذا النص للواقع، ومحاكمته على ضوئه لعرفنا كيف ان المال قد اعتبر ملكاً وحقاً لمن يجمعه دون سائر الناس، بما في ذلك مال الدول والمؤسسات، فإنها تتصرف بالمال على ضوء ما تمليه المصالح الخاصة، والمناسبات والاحتفالات والانتخابات، وهذا كله هو نتيجة لثقافة الترف المعاشة اليوم في عالمنا، وإذا كان لا بد من معالجة الأمر، فإنه لا بد من إعادة البحث فيما ينبغي أن تكون عليه المجتمعات الإنسانية بعدما تكشفت كل مساوىء المترفين في عالم السياسة والثقافة والدين وفي سائر وجوه حياة الناس، لعل ذلك يؤدي إلى الكشف عن العلة التي حولت المجتمع إلى مساكين وفقراء وقطاع طرق ومجانين ولصوص هذا من جانب، ومن جانب أخر، الكشف عن العلة التي تمكن المترفين من تكديس الثروة والاستئثار بها، ومن ثم انفاقها في سبيل استعبادهم واستخفافهم تمهيداً للتحكم بأرواح الناس ومصالحهم. . . !؟

إن الذي يعيد الأمور إلى طبيعتها، ويحقق العدالة وينفي الظلم هو حضور النعمة المعنوية في حياة الناس، لأنها وحدها المؤهلة لإقامة القسط وقطع دابر الذين ظلموا، وهذا ما دلت عليه كل التجارب التاريخية وكشفت عنه الأبحاث الاجتماعية، فما لم تعد النبوة إلى حياة الناس، أو من يملأ فراغها من الفقهاء العدول، فإن المترفين سيزدادون تمرداً وطغياناً وسيمعنون فساداً، باعتبار أن ثقافة الترف مضادة لثقافة الإيمان والتقوى. إذن الغني حقيقة هو ذاك الإنسان المؤمن بالله وبرسوله والعامل بما أمر به ونهي عنه المنفق في السر والعلانية، وهذا الغنى كما بينا ليس مذموماً ولا منهياً عنه، وهو دائماً خاضع للحالة الايمانية التي يعيشها الإنسان، وكلما ازدادت هذه الحالة، ازدادت معها القدرة على اصلاح المجتمع، وكلما تضاءلت، كلما اقتربت من الترف والفساد، ومن هنا نلاحظ ضرورة أن يكون

الإنسان متابعاً وملازماً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ حتى يتمكن من مواجهة سياسة وثقافة الترف التي اصبحت بديلاً للايمان عند كثير من الناس! ونحن نعنى بالمتابعة والملازمة الاقتداء بكل ما أمر به الرسول وأهل بيته وسائر الأئمة المصلحين الذين عانوا ما عانوا من المترفين، والقول بخلاف ذلك لا بد أن ينتج عنه مساوىء اجتماعية وسياسية جديدة، لأن الأمة غير مؤهلة لتوظيف طاقاتها وقدراتها في هذا الصراع مع الترف بمعزل عن النعمة المعنوية التي لا يمكن تصور أي إصلاح أو عدالة من دونها، وقد قال تعالى: **﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾**[1]، وفي مقابل ذلك يقف المترفون والمستبدون والفراعنة في كل زمان ولسان حالهم يقول استجيبوا لما يميتكم دنيا واخرة، وأقل تأمل في مسيرة البشرية، وخصوصاً في الحقب والفترات التي لم تكن فيها نبوة ولا إمامة، كما في قريش قبل بعثة النبي لا بد أن يكشف عن هول الفساد والترف، وهو لم ينف عن المجتمعات الإنسانية إلا حين بعث الأنبياء لأخراج الناس من الظلمات إلى النور وهدايتهم إلى سبل الرشاد والصلاح، وإذا ما قسنا ما نحن عليه اليوم من حضارة مادية وترف وبطر وطغيان إلى ما كان عليه الناس في الجاهلية لما اختلف الوضع كثيراً على الرغم من وجود واحات نور تشع في الأفاق والانفس، وهذا لا يعني أن العالم بخير سواء لجهة المادة أو الروح بل هو في خطر كبير نتيجة لهيمنة المادة على كل شيء إن كل هذا يقتضي إعادة النظر فيما يحتاج إليه المجتمع من قيم ومبادىء ومعايير جديدة، وهي قيم ومعايير الاسلام التي سبق لها أن حررت المجتمع والانسان من الوثنية والعبودية لغير الله، وافصح فأقول: إن العالم بحاجة اليوم إلى نبي أو مَن ينوب عنه لقيادة الصراع ضد الترف والمترفين، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الخلق سدىً ولم يتركهم

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

هملا، ولا بد من استمرار النبوة وحفظ ما كان منها في سبيل إقامة الحق وتحقيق العدل.

غاية القول في بيان الفرق بين الغني المؤمن، والغني الكافر، هو ان هذا الأخير يشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً، ويقول على الله ما لا يعلم، ويعيش على ربى الفواحش ويحكم بالظلم والبغي والعدوان، وماله هو في الحقيقة عبء على المجتمع والدولة معاً، ونحن إذ نؤكد على بيان الفرق بين الغني المؤمن والغني الكافر لإظهار ان الغني في الإسلام ليس مذموماً فيما لو كان وسيلة لاصلاح المجتمعات وتحسين حياة الناس، إلا أنه سلاح ذو حدين ولا يمكن لمجتمع يتجاهل تعاليم السماء وسنن الأنبياء وتعاليمهم ووصاياهم أن ينجو من ظلم المترفين الذين يتخذون مال الله دولاً وعباده خولاً[1]، كما في وصف الإمام علي عليه السلام لمترفي زمانه، فإذا ما قام بالمال رجل يخاف الله في قوله وفعله، فإن مجرد فقدان هذا الرجل يعني وجود ذهنية وعقلية الترف وما يستتبع ذلك من مظالم ومفاسد. ومثلما أن الناس على استعداد تام لتقبل الغني فيما لو عرض عليهم، فكذلك هم مستعدون لقبول حالة الترف، ولهذا لا بد من وازع ديني واخلاقي، وقبل كل ذلك لا بد من إمام عادل له القدرة على وضع الأمور في مواضعها، ومن لطيف ما ذكر في بيان معنى حالة الغني وانه ليس مذموماً، هو قوله تعالى: **﴿وما اموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا مَن أمن وعمل صالحاً﴾**[2] وفي معنى هذه الآية روى ان رجلاً ذكر عند ابي عبد الله عليه السلام الأغنياء ووقع فيهم فقال أبو عبد الله: «اسكت فإن الغني إذا كان وصولاً برحمه وباراً بأخوانه، أضعف الله له الأجر ضعفين لأن الله يقول وما أولادكم ولا أموالكم بالتي تقربكم

---

(١) انظر: نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٧.

عندنا زُلفى إلا من أمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون»[١].

فإذا كان الغنى كذلك، فكيف يكون الغني مذموماً، وأنى للغني المترف أن يكون وصولاً لرحمه أو باراً باخوانه، فهو فضلاً عما يدّعيه لنفسه من كثرة في الأموال والأولاد، وينفيه من أنه لا عذاب ولا حساب كما في قول المترفين «نحن أكثر أموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين»، تراه مترفاً لدرجة السكر والغيبوبة عن نفسه وماله وولده..؟! إن منطقاً كهذا يختصر الحياة في هذه الدنيا وينكر الغيب لا يمكن أن تكون نتيجته الوصال والبر وغير ذلك مما يكون الدافع اليه الايمان بالله والفوز برضوانه «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».

(١) انظر البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني، بيروت دار الهادي، ط٤، ١٩٩٢، ج٣، ص٣٥٢.

المترفون هم الأغنياء والفقراء

إن مَن أبطرته النعمة وأطغته، واستغلته الشهوات واللذات في الحياة الدنيا، وكذلك مَن اعتبر المال سبباً وغاية ليس بعدها غاية، وانطلق في حياته بهدف تكديس الثروات ليحول دون تمتع عباد الله بها، جاعلاً نفسه رهينة الطيبات من الرزق وربي الفواحش، فلا يميز بين ما احله الله وما حرمه على عباده، معطلاً نعمة العقل لحساب الشهوة، ونعمة الروح لحساب الجسد، هذا الإنسان المترف الذي يجهل قيمة نفسه، ويشريها لحساب المال واللذة، هو من باب أولى أن يكون متجاهلاً لقيم الناس وكرامتهم، ومستبداً بهم كي تكون له الطاعة إلى جانب الثروة. !؟

إن انساناً هذه حاله لا يقيم وزناً للقيم، ولا يعتبر الدنيا دار زوال، هو الإنسان الفقير حقاً، وهذا ما اشار إليه الراغب الاصفهاني بقوله: «إن الإنسان الذي يصرف عمره في الجمع والتملك فلا تستجيب له حاجة حتى يتلهف إلى حاجات اخرى، ولا تنقضي له شهوة حتى تغريه شهوات جمة، حريص على أن يأخذ ما في أيدي الناس وما ليس في أيديهم لا يشبع من الامتلاك والادخار، ولا يرض بما هو فيه، مثل هذا الإنسان هو الفقير حقاً، وان الطمع يجره إلى الشعور بالحاجة، ولأن الحرص يصور له الافتقار إلى

ما ليس في يده. . . »[1].

فهذه صفات الإنسان الغني المترف الذي يؤدي به الجشع وحب الدنيا بكل ما فيها من حرام وحلال إلى الحرص والبخل والجبن وسائر الصفات المذمومة، وهي صفات كما يقول الإمام علي عليه السلام يجمعها سوء الظن بالله كما في عهده إلى مالك الأشتر حيث قال له: «فلا تدخلّن في مشورتك البخيل والحريص والجبان فإنها غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله تعالى»[2].

فالمترف سواء أكان حاكماً أم رجلاً عادياً، فهو مصدر خطر على المجتمع الإنساني، لأن همه لا يتجاوز نفسه، وتنحصر سعادة وشقاء المجتمع بسعادته وشقائه، وما دام هو سليماً معافى لا داعي للبحث أو السؤال عن سلامة المجتمع، واعظم دليل على ما نذهب إليه هو وضع المجتمع الإنساني اليوم، حيث انه يعاني من ترف الحاكم في شتى المجالات، ويلهو بنفسه عن سائر قضايا ومشاكل الناس الذين انتخبوه ليكون معبراً عنهم وملاحظاً لكل ما يعرض لهم من مشاكل ومصائب، وقلما تجد حاكماً مترفاً يسمع الام الناس أو يشارك الناس في همومهم والامهم كما كان أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال: «أأقنع من نفسي أن يقال هذا أمير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر أو اكون اسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، تكترش من اعلافها وتلهو عما يراد بها»[3]. لا شك ان الإمام عليه السلام يشير في هذا الكلام إلى ما كانت عليه حالة الأمراء والخلفاء الذين أخذ منهم الترف

---

(١) انظر: صالح عضيمة، مصطلحات قرآنية، الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية، لندن ط١، ١٩٩٤، ص٣١٣.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

(٣) م. ع، الكتاب، ٤٥.

مأخذه وبلغ منهم مأمله، باعتبار ان عصر الإمام وما حفل به من احداث يبعد بكلامه عن أن يكون وصفاً لما ينبغي أن يكون عليه الحاكم، وما أكثر الأدلة على ذلك فيما لو استعرضنا المراحل التاريخية التي عايشها الإمام عليه السلام وتصدى لها، وكان من جملة ما تصدى له الإمام عليه السلام في بداية ولايته كما نعلم جميعاً إعادة المال الذي نهب إلى بيت مال المسلمين لما تسبب به ذلك المال من حالات افساد وترف في المجتمع الاسلامي انذاك. . .

هذا على مستوى الحاكم والحكومة وما اترف فيه، أما على مستوى هيئات المجتمع سواء في العصور الغابرة، أو في عصرنا الحاضر، فقد أدى الترف إلى زيادة الانحراف على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي، فضلاً عما ادى إليه من فقر في ميزانية الدول وفقراء يتسولون في الشوارع في وقت كان المال ولا يزال متوفراً لسد رمق الجائعين، ويؤمن للدولة كل ما تحتاج إليه للدفاع عن شعبها والوصول به الى حالة الكفاية والعيش الكريم.

إذن الدليل التاريخي والاجتماعي قائم على أن سبب المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية هو الترف سواء اكان مصدره السلطة الحاكمة أو بعض أفراد المجتمع من تجار ومزارعين وصناعيين وغيرهم، وحينما يقول الإمام علي عليه السلام: «انكم في زمان. . . لا يعظم صغيرهم كبيرهم ولا يعول غنيّهم فقيرهم»[1] أو «فما جاع فقير إلا بما متع به غني»[2]، فهو يقصد بذلك من حيث البعد الشامل لهذه النصوص المترفون الذين يجمعون الثروة ويبخلون بها على الناس، مما يعرقل الدورة المالية والاقتصادية في البلاد، ويتسبب بمشاكل اجتماعية واقتصادية تنعكس سلباً

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٢.
(٢) م.ع. قصار الحكم ٣٢٨.

وفقراً وفساداً في حياة الناس.

إن الفقر المشار إليه في كلام الإمام، والذي يكاد يبلغ حد الكفر «كاد الفقر أن يكون كفراً»، هو فقر المترفين، وليس المقصود به تحديداً وحصراً أولئك الذين يعزفون عن النهوض بما لا بد من كسبه لاستمرار الحياة بحجة الزهد وغيره، كما هو مذهب بعض الصوفية الذين يؤثرون الكسل على النشاط، ويدعون إلى تعطيل الحياة الاجتماعية للناس تحت عناوين شتى..!؟

فالفرق بين الفقر الذي يتسبب به القعود والكسل والفقر الذي يتسبب به المترف لنفسه ومجتمعه يمكن تلمسه من خلال التأثيرات والمفاعيل الاجتماعية والاقتصادية التي يحدثها كل منهما في المجتمع، باعتبار انه في بيان معنى الفقر الذي يصيب بعض الناس بسبب الكسل يمكن رؤية آثاره الفردية وانعكاساته السلبية على بعض أفراد المجتمع، في حين ان فقر المترفين له تأثيرات سلبية على الدولة والمجتمع معاً، لأن المترف فيما لو كان حاكماً، أو عضواً في المجتمع إذا بخل بماله، وامتنع عن اداء الحقوق التي للدولة وللناس عليه، فإنه يتسبب من حيث يدري أو لا يدري بفقر شامل يصيب كافة قطاعات المجتمع ومؤسسات الدولة، ويكون مثله مثل العالم الذي يبخل بعلمه وتكون النتيجة جهلاً عاماً، وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «يا جابر قوام الدين والدنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع اخرته بدنياه، فإذا ضيع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلم وإذا بخل الغني بمعروفه باع الفقير اخرته بدنياه..»[1].

كما أن حروب الإمام علي عليه السلام ضد الحكام المترفين والصحابة

---

(١) م. ع. قصار الحكم ٣٧٢.

المترفين من امثال طلحة والزبير وغيرهم ممن نصب العداء للإمام وحكومته، هي في جوهرها حرب ضد الفقر النفسي الذي تجلى بكثير من الصفات المذمومة من قبيل الحرص والجشع والبخل والجبن وحب الرياسة، فهذه صفات تبلغ بأصحابها حد الكفر بنعم الله تعالى، وذلك حين يصل الأمر ببعض اصحاب الثروات إلى مستوى الردة عن الاسلام ومحاربته إذا كان من أهدافه والقيمين عليه أخذ الحقوق من أموالهم والانتقاص منها، إذ ان البخل والحرص والجشع كلها صفات تؤدي بصاحبها إلى الفقر النفسي الذي هو شر الفقر، كما أنها تمنع هؤلاء من أن يؤدوا للناس حقوقهم من أموالهم أو للدولة وهذا ما حصل مع أمير المؤمنين، وقد عبر الإمام عن ذلك بقوله: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الاماء، لرددته فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق»[1].

فالفقر حينما يكون معناه فقدان الحاجة الملحة، وتحقق الفاقة والحرمان لا يكون كفراً ولا ترفاً فيما لو كان الإنسان عاجزاً عن تأمين قوته وعن التماس الأسباب التي بتوفرها يرتفع العوز ويكتمل النقص، ومن مسؤولية الحكومة تأمين ما يلزم للفقراء والمساكين، وذلك من قبيل قوله تعالى: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها﴾**[2] وقوله تعالى: **﴿للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. . لا يسألون الناس الحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾**[3].

أما إذا كان معنى الفقر أن الناس فقراء إلى الله تعالى؛ فهذا الفقر ليس

---

(١) م. ع. الخطبة: ١٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

كفراً ولا ترفاً، إذ ان كل شيء في هذا الوجود فقير إلى الله تعالى، كما قال تعالى: **﴿يا أيها الناس انتم الفقراء إلى الله وهو الغني الحميد﴾**[1].

يبقى الفقر الذي يقابل الغنى، فهناك من الناس من لا يملك المال الكثير، ولا ما يكفل له استمرار الحياة السعيدة، وهو ما يعبر عنه بالفقر الشرعي حينما لا يكون مالكاً لمؤنة سنته، وكما نعلم ان هذا النوع من الفقر ليس مذموماً، باعتبار حالة الانبياء جميعاً وسائر الأئمة الذين كانوا فقراء من حيث انعدام الثروة والملك حيث قال تعالى: **﴿رب اني لما انزلت إليّ من خير فقير﴾**[2].

إذن الفقر بما تقدم من معانيه ليس كفراً ولا ترفاً، وانما هو حاجة، وعند الانبياء زهد وتقوى، وإذا ما قيست حالة الأنبياء والأئمة على حالة المترفين، فإنه يمكن تلمس معنى الفقر الذي يكون كفراً وترفاً، إذ انه ما دامت النفس غنية وبعيدة عن الشره، وقانعة بما قدره الله لها من الرزق، فإنها بذلك تكون قد توفرت على غنى نفسي وروحي يبعد بها عن كونها مترفة، وهذا ما تميزت به أنفس الأنبياء والصالحين من عباد الله، حيث انهم كانوا على غنى نفسي وروحي قلما استطاع أن يصل إليه احد من الناس، يقول الإمام عليه السلام: «كانوا قوماً مستضعفين قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة..» ولم يدفع بهم الفقر المادي إلى اليأس والقنوط، أو إلى الشعور بالفقر النفسي الذي هو نتيجة لغياب حقائق الإيمان من القلب ولا أثر للمال في تحقق الإنسان بها. انها حالة اخرى للنفس ترتفع بها من كونها نفس بشرية لتصبح نفساً قدسية، وأني للفقر المادي أن يؤثر على حالات النفس الروحية لطالما ان الإنسان المؤمن يزهد بكل شيء في هذا العالم

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٥.
(٢) سورة القصص، الآية: ٢٣.

المادي طمعاً في تزكية نفسه، وهذا هو سر انتصار النبوة في صراعها مع المترفين، لأن المعادلة كانت بين نفس مترفة فقيرة أغرقتها الشهوات وأبطرتها النعم فحملتها على البغي والاثم، وبين نفس قوية العزيمة والايمان والصبر، ولم يحل الفقر المادي في الثروة والسلطة عند النبوة دون تحقيق الانتصار، مما يدل على ان الفقر المادي لم يكن سبباً في انتصار النبوة مثلما انه لم يكن سبباً في هزيمة المترفين، وإنما النفس بما تكون عليه من حالات هي التي تحقق النصر أو الهزيمة في ساحة الصراع. وبمقدار ما تكون النفس متوجهة إلى الله تعالى، بمقدار ما تكون غنية ولهذا يقول عليه السلام اللهم أغنني بالافتقار إليك، ولا تفتقرني بالاستغناء عنك» ومن قبيل هذا قول الشاعر:

ويعجبني فقري إليك، ولم يكن ليعجبني، لو لا محبتك الفقر

ان النفس المترفة، موسومة دائماً بالشره والطمع مما يجعلها فقيرة في جميع حالاتها حتى ولو كانت تملك الثروة والمال، وكما في حكمة أمير المؤمنين: «من عدم القناعة لم يفده المال غنى».

إذن الفقر الذي يكون كفراً وترفاً، وكذلك الغنى الذي يكون كفراً وترفاً هو فقر النفس، وهذا ما يمتاز به المترفون الذين يدفع بهم الحرص والبخل وسوء الظن بالله إلى فقر لا يمكن أن يشعر به أو ان ينتهي إليه ذلك الإنسان الفقير الذي لا يملك مؤنة سنته، لأن فقر النفس هو في الحقيقة أشد الفقر، وأكثر من يملك المال يعيش الفقر بسبب ما يلابس نفسه وقلبه من خوف دائم من الافتقار إلى المال، فيحرص على ماله، وتصبح نفسه أكثر حرصاً على الحياة، وتكون النتيجة فقر في المادة والروح معاً، في النفس والواقع، ذلك هو حال الذين اترفوا في الحياة الدنيا ان تكون ثرواتهم سبباً لموت قلوبهم وانفسهم، وسبباً للشعور بالذلة، ومن ألطف ما قيل في معنى الفقر في الدنيا والاخرة قول أمير المؤمنين عليه السلام: «عجبت للبخيل الذي

يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الاغنياء»[١].

إن المترف فقير لشدة ما تكون عليه نفسه من حرص وبخل وسوء ظن بالله، تسوق الأموال نفسه في كل اتجاه، لأن المال يملك عليه حياته، ويصبح ميزان الأمور كلها عنده ما ينمي الثروة، وليس أدل على ذلك من مقولة المترفين أنفسهم: «نحن أكثر اموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين» فالمال والولد عندهم هو الطريق الوحيد إلى السعادة، وذلك يحتم أن تكون النفوس والمبادىء والقيم في خدمة المال، والحق هو ان المترفين ـ كما نعلم من سيرتهم قديماً وحديثاً، كانوا كلما ازدادت ثرواتهم واموالهم ازدادوا حرصاً عليها وسعياً في طلبها، لأن الاحساس بالفقر النفسي يتولد عنه احساساً عاماً بالفقر، وخوفاً دائماً من الافتقار، فلا يأمن المترف على حاله، فينفق نفسه ووقته في سبيل الإكثار من المال، وكما قال المتنبي:

ومَن ينفق الساعات في جمع ماله   مخافة فقر، فالذي فعل الفقر[٢]

إذن تشخيص حالة الفقر واستكناه معناه الحقيقي يمكن أن يتم من خلال ملاحظة أحوال المترفين وانفسهم وكل ما يظنون انه من الغنى حقيقة، وقد دلت سيرتهم على طول التاريخ، بما لا يدع مجالاً للشك، أن حرصهم على الفوز بالدنيا والتمتع بنعمها واستغناءهم بأنفسهم واعتمادهم على ربى الفواحش وعلى كل ما حرمه الله تعالى، ادى بهم إلى أن يكونوا على فقر روحي وذل نفسي لم يخفف المال من وطأته ولا الاستخفاف والاستكبار من حدته. لقد جاءت النبوة لتمنع هؤلاء من الافساد في الأرض وبما ينذر القلوب والعقول، ويرشد إلى استثمار نعم الله في طريق الخير، وهذا ما

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٢٦.
(٢) صالح عظيمة، مصطلحات قرآنية، م، س، ص٣١٢.

وجد فيه المترفون حرباً عليهم وانتقاصاً من سيادتهم، وتقليلاً من أهميتهم واعتداءً على أملاكهم وثرواتهم، فأعلنوا الحرب على النبوة مستخفين بما هي عليه من فقر مادي وقلة من الأعوان والأنصار. لكن ذلك كله لم يحل دون انتصار النبوة وتبليغ الرسالة، اضافة إلى ما نزل بالمترفين من عقوبات فقرٍ مشهودةٍ في تاريخ هذا الصراع بين الحق والباطل. وقد ظهرت علامات الفقر عليهم فيما لجأوا إليه من شكوى وسوء تصرف ورداءة طبعٍ وتمردٍ وسخط ومعصية لله تعالى، يقول الإمام علي عليه السلام «إن لله عز وجل في خلقه مثوبات فقر وعقوبات فقر فمن علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره، ومن علامات الفقر إذا كان عقوبةً أن يسوء عليه خلقه ويعصي به ربه ويكثر به الشكاية ويتسخط القضاء»[1].

يعقب أبو طالب المكي بقوله: «وهذا النوع هو عقوبة من الفقر وقد استعاذ منه النبي وهو فقر النفس»[2].

ان شره النفس وفقر الروح وغياب حقائق الإيمان هو الذي يفسد على الناس حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية، ويسمح باقامة صروح الترف، وما دام الناس يبحثون عن الغنى المادي وعن الجمع والادخار دون اعتبار للأهداف والغايات، فإنهم لن يبلغوا الغنى الحقيقي وسيبقون عرضة للترف والاستخفاف إلى حين يتحقق أمر الله فيبعث فيهم من لديه القدرة على اغناء النفوس وإثارة العقول ومواجهة المترفين الذين يعبثون بنعم الله ويسعون في الأرض فساداً وكما قال تعالى: **﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم بالخيرات بل لا يشعرون﴾**[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص٣١٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٣١٣.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٥.

إن نظرة دقيقة فيما هي عليه الأمة اليوم من أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية، إضافة إلى ما هي عليه من فقرٍ روحي، لا بد أن تدفع بالباحث إلى ملاحظة الأسباب التي أدت بالامة إلى هذه الحال، وهي وإن كانت بخير في مالها ورجالها وتوسع احوالها، إلا أنها ليست بخيرٍ في الأهداف والغايات التي تطمح للوصول إليها. فما لم تقم الأمة بدورها وتتحمل مسؤولياتها، وتستثمر أنعم الله عليها في سبيل الوصول إلى الهدف المقدس، فإنها ستبقى عرضة للترف والمترفين، ذلك وحده الذي يحفظ للأمة موقعها في هذا الصراع التاريخي ضد الاستبداد والترف، ويعيد لها العزة والكرامة والحرية فضلاً عن الغنى والقناعة والدور، وهذا كله يبقى محتاجاً إلى إمام عادل يسوس الأمة بأمر الله ونهيه ويقف للمترفين بالمرصاد ليحول بينهم وبين عبثهم واستبدادهم.

إن استحضار الأمة لتاريخها الناصع ودورها المميز، ولما كانت عليه من شهادة ووسطية يجعلها قادرة على تحقيق نفسها بالرسالة التي بعثتها من الظلمات وجعلتها على نور في سعيها، فإذا غابت بينات النبوة والإمامة، فإن الأمة ستبقى عرضة للظلم والقهر لقوله تعالى: **﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾**[١].

(١) سورة النحل، الآية: ١١٣.

إلتفاتة شاملة وموعظة كاملة

إن مشكلة الذين يريدون الحياة الدنيا، ويرغبون في ان تكون دار قرار لهم، هي أن هؤلاء جعلوا المال والثروة هدفاً رئيسياً، واعتبروا الوصول إلى هذا الهدف دليلاً على صدق مزاعمهم في أن كل شيء في هذه الحياة يمكن الوصول إليه فيما لو اجتمع المال الذي هو بنظرهم جوهر السعادة البشرية، وبه تكون خاتمة الأحزان والعذابات. إنه سبيل أوحد للظفر بالحياة الدنيا، وقد تجاوز الذين أرادوا الحياة الدنيا ذلك إلى القول بأن من تكون له الثروة في الدنيا، هو الفائز حيثما انتقل سواء في هذه الحياة أو في غيرها كما قال الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه: **﴿وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدت إلى ربي لأجدَنّ خيراً منها مقلباً﴾**[1].

الله سبحانه وتعالى يبين بوضوح تام في جملة من الآيات، أن الذين يريدون الدنيا هم انما يطلبونها جهلاً بحقيقتها، وتقليداً منهم لمن يعيشها كغاية ليس بعدها غاية، بدليل قوله تعالى: **﴿فخرج على قومه في زينته، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون إنه لذو حظ**

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

عظيم﴾[1].

لم يترك الله تعالى الناس على ما هم عليه من فتنة بهذه الظاهرة، وطلب اليهم من خلال الذين أوتوا العلم الحقيقي، أن يتمنوا شيئاً اخر غير الثروة والزينة، وكان من جملة ما قيل لهم: **﴿ويلكم ثواب الله خير لمن أمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾**[2]. ولم يقتصر الأمر على هذه الموعظة فقط، بل تعداه إلى الخسف بقارون وبداره كيما يعتبروا بذلك، ويكون لهم بما رأوه من حالة قارون ـ الهداية إلى ما ينبغي أن يتمنوه حقيقة، والنكتة اللطيفة في الآيات القرآنية التي تعرض لقارون وقومه، هي ان الله تعالى: قال: **﴿فخسفنا به وبداره الأرض. . .﴾** ولم يقل: فخسفنا بهم وبدارهم الأرض حيث انهم اعتبروا قارون ذو حظ عظيم، وطلبوا أن يكون لهم مثل هذا الحظ فيستوون مع قارون فيما هو عليه من محنة وابتلاء. وهذا يستفاد منه ان الله تعالى لم يخسف بهم وخسف بقارون لإرشادهم إلى الحق، بحيث يكون لهم من ذلك كله الإعتبار والسماع للذين اوتوا العلم بأن الحظ العظيم إنما يكون في الإيمان والعمل الصالح وليس بالثروة والزينة.

نلاحظ انه في آيات سورة الكهف التي عرض فيها الله تعالى لحالة أهل الدنيا في حوار بين المؤمن والكافر بين الذي همه الدنيا والاخرة معاً، وبين الذي همه الدنيا فقط، والذي ظن ان جنته لن تبيد ابداً، وانه ما ظن الساعة قائمة ابداً، فقد انتهى الحوار بينهما حينما احيط بثمر الكافر، ورأى جنته خاوية على عروشها، فما كان قوله إلا: **﴿يا ليتني لم أشرك بربي احداً. . ﴾**[3].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٩.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٠.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

وهنا نلفت النظر إلى أن الرجل الذي أراد الحياة الدنيا وجعلها غاية له انتهى امره إلى أن يبقى وحيداً حيث قال تعالى: **﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾**[1]، وهو الكلام ذاته الذي قاله الله تعالى عن قارون حينما خسف به وبداره الأرض، قال تعالى: **﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾**[2].

إن الذي يمكن استنباطه من عرض هذه الآيات فيما ترشد إليه من نتائج، هو ان الله تعالى لم يهلك الناس دائماً مع الجبابرة الذين ارادوا الحياة الدنيا، بل أبقى على كثير منهم لأجل أن يعتبروا، بحيث يدركون ان ثواب الله إنما يكون باتخاذ الدنيا وما فيها من ثروات وخيرات وزينة سبيلاً إلى الآخرة، ولهذا وسعتهم رحمة الله ليكون لهم الاعتبار والندم على ما ظنوه خيراً وسلامة في ما اعتمدوه من الأساليب والاهداف، وهنا نعرض لآيات اخرى تبين حقائق اخرى من شأنها أن تقدم المزيد من الدلالات والمعاني عن حقيقة أولئك الذين أرادوا الحياة الدنيا، واستحال عليهم الاعتبار لما كانوا عليه من فساد في نفوسهم وأمراض في قلوبهم، ومن هنا حق القول عليهم أنهم يريدون الحياة الدنيا، وهم على الرغم من كل ما اظهروه من ندم بعد ان رأوا ما حلّ بالفراعنة والطواغيت واصحاب الأموال، استمروا كما يستفاد من العديد من الآيات، في طلب الدنيا، لأن الأعتبار المباشر والمؤقت لم يكن ليدوم طويلاً، ولو أن الذين ارادوا الدنيا اعتبروا بما جرى لهم مع الفراعنة لما كنا نرى في أيامنا هذه كل هذا الحب للدنيا وزينتها وزخرفها..!

فالمال لا يزال مهيمناً ومانعاً من سلوك سبيل الآخرة، والناس لا تزال صورة قارون ماثلة أمامهم، إلا أن غلبة الدنيا عليهم تمنع من الاعتبار،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨١.

وتدفع بهم إلى مزيد من التمني. وخير ما يمكن الاستدلال به على وضع هؤلاء المترفين سواء اكانوا اصحاب ثروات، أو تبع لهؤلاء هو وصف الله لهم بأنهم الذين أرادوا الدنيا، ومن أحب الدنيا، وجعل منها منتهى الأمال والأحلام، فهو الذي حق عليه القول كما في قوله تعالى: **﴿ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾**(١).

وهناك دليل آخر يمكن أن نسوقه لبيان هذا المعنى، وهو ما تتضمنه آيات المباهلة التي تعرض كيف ان الذين ارادوا ان يباهلوا الرسول ﷺ قد علموا يقيناً أن الرسول ﷺ لو باهلهم لاشعل الوادي ناراً، وجعل وجودههم هباءً منثوراً، ولكنهم رغم علمهم هذا وتيقنهم من صدق الرسول ﷺ، فإنهم لم يتخلوا عن حب الدنيا، مما يدل على أن الإعتبار بالحوادث كان معدوماً أو لنقل ملحوظاً في ساعته دون أن يكون له ديمومة عند اللذين ارادوا عرض الدنيا، ولهذا نجد القرآن بعد عرضه لحالة فرعون ولما جرى من حوارات بين القوم المؤمنين والكافرين ينتقل مباشرة للحديث عن الآخرة، ففي سورة الكهف بعد الحديث عن الحوار الذي جرى بين المؤمن والكافر، يقول الله سبحانه وتعالى: **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح . . .﴾**(٢) إلى قوله تعالى: **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً﴾**(٣)، وبعد عرض لحالة قارون مع قومه بين الله سبحانه وتعالى ان الدار الآخرة هي الهدف كما في قوله تعالى: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾**(٤). إذن الدنيا

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٦.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.
(٤) سورة القصص، الآية: ٨٣.

والترف غالباً مايمنعان الإنسان من سلوك طريق الآخرة، في حين ان الهدف من خلق الدنيا والزينة، وتسخير كل شيء لخدمة الإنسان، ان ينطلق في بناء حياته، وقبلها بناء نفسه على أساس ان كل شيء زائل إلا الله سبحانه وتعالى، فهو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فما لم ينته الإنسان بما انعم الله عليه في عقل وارادة وحرية وكرامة، ومن ثم ثروات وزينة إلى حقيقة ان الدار الأخرة هي الهدف، فإن الإنسان يكون قد اخفق في تربية نفسه على ما يصلحها ويجعلها ممتدة في الوجود، وفيما وراء الوجود، وكذلك يكون الإنسان قد جهل موقعه ودوره ومسؤوليته، وكل ما القى على عاتقه بعد أن حمل الأمانة، وهذا كله فيما لو ثبت في حق الإنسان، فإنه لن يبقى له على شيء من القيمة والكرامة، لأن الركون إلى الدنيا واستغلال ما فيها لصالح الشهوة والسلطة، يحول دون وصول الإنسان إلى اهدافه الحقيقية، وبالتالي إلى سعادته الحقيقية.

وما انتهى إليه محبو الدنيا في تاريخهم يحتم علينا أن نلقي الضوء على مسيرة هذا الإنسان في الحياة الدنيا، حيث ان الناس لا يزالون حتى اليوم يتمنون أن يكون لهم حياة عرضها عرض السماء والأرض، وان يكون لهم ما كان لقارون وفرعون وغيرهما، وذلك كله سببه ان الناس لا يعتبرون بما جرى مع السابقين، فتكون النتيجة الوقوع فيما قد حذروا منه، لأنهم ينطلقون في الحياة الدنيا من اجواء المال والزنية والعيش الرغيد دون أن يكون هناك أي حسبان لما قد يقع عليهم من السماء أو من الأرض. ومن هنا، فإننا نرى حال الناس مع كل واقعة يعودون إلى الله تعالى ويتركون كل ما يملكون ظهرياً، ولو أنهم عاشوا هذا الوضع في أيام رخائهم لفتحت عليهم البركات من الأرض والسماء ولكنهم ـ كما يقول القرآن الكريم ـ كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون. . .

إن الحديث عن الدنيا والترف كما هو متجلٍ في القرآن، يؤكد حتمية

وصول الإنسان إلى مرحلة لا بد أن يقول فيها «ويكأنه لا يفلح الكافرون»، لكن المطلوب منه هو ان يعي هذه الحقيقة قبل أن يصبح عرضة للخسف به وبداره، وقبل أن تدفع به الحوادث إلى موقع الندم، لأن الله سبحانه وتعالى بين للإنسان كل ما يجعله في أمن وسلامة في دينه ودنياه، فلا يجعل من نفسه شيئاً نكراً بعد أن تأكدت ذاتيته في هذا العالم على النحو الذي يجعله مستحقاً للثواب أو العقاب، كما أن ذلك يحتم عليه انذار نفسه وترويضها لتأتي امنة يوم الخوف الأكبر، وما دام الإنسان قد علم ما جرى للسابقين، وانه يعيش في مساكنهم، فلم يعد يسعه إلا الإعتبار بما قدم له وعلم إياه بحيث لا يكون لسانه ناطقاً بما لا ينفعه، وماله مبذولاً فيما يضره، ومن جملة الآيات الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: **﴿واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾**[1]، وكذا قوله تعالى: **﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا اخرنا إلى أجل قريب نجِب دعوتك ونتّبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾**[2].

هـذا هـو مصير مـن لا تفيـده العبـرة، ومـن يعلـم حقيقـة انـه لا يفلـح الكافرون، فليس بوسعه الا التذكر دائماً لهذه الحقيقة، حتى لا يصيبه ما اصاب أولئك الذين اقسموا من قبل وكانت عاقبة امرهم خسراً، فإذا احسن الإنسان لنفسه، وعقل عن الله، ورجع إلى ما سبق له ان ندم عليه وعرف حقيقة أمره، فإن شيئاً بعد ذلك لا يمكن أن يحمله على الركون إلى الدنيا أو الاطمئنان اليها، إذ ان معنى أن يندم الإنسان على ما فتن به في الدنيا، ان يعلم بأن ما عند الله خير وأبقى، والعاقبة للمتقين. . .

(١) سورة هود، الآية: ١١٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٤ ـ ٤٥.

الفصل الثاني

الأنبياء والمترفون في القرآن

تمهيد

١ ـ العلاقة السلبية بين الأنبياء والمترفين .

٢ ـ بين مشروع النبوة ومشروع المترفين .

٣ ـ النبوة تحسم الصراع .

٤ ـ الله لا يصلح عمل المفسدين .

٥ ـ الدنيا والآخرة في القرآن .

تمهيد

إن المتأمل في كتاب الله تعالى، والناظر فيما صرفه الله من آيات في الآفاق والأنفس وفيما انطوى عليه من أحكام وقوانين، لا بد أن تثيره تلك العلاقة السلبية بين النبوة والترف بحيث تدفع به هذه العلاقة الجدلية إلى ملاحظة الوجوه الاعجازية الأخرى في القرآن الكريم الذي لم يكتفِ باطلاق التحدي بأن يؤتى بسورة واحدة من مثله، من قبل الذين ارتابوا فيما اوحى الله به إلى رسوله ﷺ، بل هناك وجوه اخرى للتحدي تتجاوز الاعجاز في اللغة إلى القوانين الاجتماعية والتاريخية. إذن التحدي ليس قائماً فقط على الوجه الاعجازي البلاغي، وانما يتعداه إلى وجوه اعجازية اخرى من قبيل الارشاد إلى جملة من القوانين والسنن التاريخية والاجتماعية التي كانت ولا تزال حاكمة في العالم وستبقى حاكمة إلى يوم تبدل فيه الأرض غير الأرض، وهو ما عبرت عنه الآيات المباركة بسنة الله في الذين خلوا ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فهناك جملة من القوانين التي لا بد من التوقف عندها، والبحث في مدلولاتها، وبخاصة القوانين الاجتماعية والتاريخية، لمعرفة ما تنطوي عليه تلك القوانين من حقائق عايشها الإنسان وتفاعل معها، إضافة إلى ما استشعره من حاكمية لهذه القوانين في حياته على مر الزمن. إن نظرة فاحصة

عميقة في كتاب الله تعالى لا بد أن يترشح عنها فهماً دقيقاً لتلك العلاقة الجدلية السلبية بين الأنبياء والمترفين، وهي كما قلنا وجه اخر من وجوه الاعجاز في كتاب الله تعالى، باعتبار انه ما من حضارة ولا أمة، ولا أي شعب من الشعوب إلا ولامست هذه الحقيقة التاريخية الإجتماعية تارة على نحو السلبية، وطوراً على نحو الايجابية، فحيث كان الايمان والتقوى كان الاستقرار الاجتماعي والتقدم على مستوى المادة والروح معاً، وحيث كان يحل الترف وينتشر كانت تحل الكوارث الاجتماعية والسياسية، لأن الترف كما بين القرآن، كان ولا يزال له معنى الاخلاد إلى الأرض والافساد فيها نتيجة لتصدي قادة الشر لأمور الناس وسياستهم على ضوء المصالح الخاصة للمترفين، وهذا ما نمهد له في هذا البحث الذي اردنا أن يتجاوز حالات الترف الخاصة إلى ترف الحضارات والحكومات وكل السياسات التي تعاقبت على البشرية لا عن نحو التفصيل ومنهجية البحث التاريخي، وانما على نحو الاجمال ومنهجية البحث التحليلي لجملة من النصوص الواردة في الكتاب العزيز، لعل ذلك يسمح لنا بملاحظة جملة من الحقائق الإجتماعية التي حاول البعض مجانبتها وتخصيصها بدوائر معينة في الاجتماع تارة، وفي السياسة اخرى، دون أن يتمكن من اعطائها الأبعاد الشاملة، أو تعميم تلك القوانين على الاجتماع البشري منذ تكونه، ومروراً بكل مراحل تطوره، وبما ان كتاب الله تعالى قد ربط التغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وفي كافة مناحي الحياة، بما يكون عليه الإنسان في نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾[1]، فإن البحث في طبيعة هذه العلاقة السلبية بين الأنبياء والمترفين من شأنه أن يكشف لنا عن جملة من الأسباب والعوامل التي تحول دون وصول المجتمع الانساني إلى

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

السلامة والطمأنينة في حياته الاجتماعية والسياسية . . .

فالقرآن في جملة من الآيات (القوانين) يبين أن الترف، واستغلال نعم الله تعالى في غير وجوهها، هو من أهم الأسباب والعوامل التي تحول دون استقرار المجتمع وسلامته، إضافة إلى ما يتسبب به الترف من بلاءات سياسية واجتماعية واقتصادية، بلاءات عامة وشاملة، بدليل انه ما من حضارة تراجعت، أو تدهورت إلا وكان الترف سبب زوالها وانتقالها، وأدنى تأمل وتبصر فيما آلت إليه الحضارات سواء الفرعونية، أو الرومانية، أو الاسلامية وغيرها، يكشف عن أن هذه الحضارات لم تستمر وتدهورت لأنها كانت تقوم على الكفران بالنعم والاستبداد بكل ما انعم الله به على الإنسان من قبل جماعة المترفين الذين حاولوا في كل زمان التعبير عن انفسهم من خلال الثروة والمال والاستعباد. إن الناس دائماً كانوا يبنون ويجاهدون، ومن ثم تأتي هذه الجماعة لاستثمار متاعب الناس في وجوه المصالح الخاصة، فجاءت النبوة لتقف في جانب الفقراء والمساكين لتحفظ لهم مكاسبهم وحقوقهم، وتعلمهم وتهديهم إلى سلوك سبيل الخير، يقول الإمام علي عليه السلام «وبؤس لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون»[١].

إذن التمهيد لبحث جوهر هذه العلاقة بين النبوة والترف في كل سلبياتها سيلحظ هذه القوانين والسنن الحاكمة التي إذا لم يتدبرها الإنسان ويعمل وفقها، فإنها ستتحكم به وسيكون عرضة لها، وهذا هو سر دعوة الأنبياء إلى الاعتبار بما سلف وجرى للأمم الغابرة حينما تمردت على النبوات، وأبت إلا التقليد للأباء، وظنت انها في مأمن من أن يأتيها امر الله بياتاً أو صبحاً أو مساءً، وكانت النتيجة الخسف والهلاك والخسران المبين لكل الأقوام التي لم تسمع دعوة النبوة، ولم تعتبر بما جاهرها الله به من

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٢٦.

العبر !؟

وما دمنا نمهد لبيان حقيقة العلاقة السلبية بين النبوة والترف لمعرفة جوهر الصراع الذي يصح وسمه بالتاريخي، فإن ذلك لا يمنع البحث من تناول مسائل اخرى ذات معنى اجتماعي وسياسي وحضاري، لأن الصراع بين النبوة والمترفين هو في جانب منه صراع سياسي، بمعنى أخر نقول: إن الأنبياء عليهم السلام لم يكن هدفهم الهداية فقط وتعليم الناس الاخلاق والعمل الصالح، بل سعوا من اجل اعطاء معنى للسياسة في مقابل المترفين وكان من ضرورات هذا المعنى ان يسعى الانبياء في سبيل اقامة دولة العدل. . . وهذا ما سنبينه في البحث القادم.

العلاقة السلبية بين الأنبياء والمترفين

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها. . .﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون، وقالوا نحن أكثر أموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين﴾[2].

فالآيات في مضمونها ناظرة إلى حقيقة ما هو موجود وقائم في كل اجتماع بشري منذ بدء الخليفة إلى يومنا الحاضر، وقد يكون من المستحيل جدا معالجة أي مشكلة اجتماعية بمعزل عن ما يحيط بهذه المشكلة من أوضاع نفسية وامراض قلبية واعتقادات وقوانين وضعها الناس لأنفسهم واعتقدوا بها من دون الله تعالى، وهو ما لم ينزل به الله سلطاناً، وقد حذر الله تعالى من أن يشرك به الناس ما لم ينزل به سلطاناً، وان يقولوا على الله ما لا يعلمون، إلى كثير من الآيات التي تنهى عن اتخاذ الهوى والمال اربابا من دون الله تعالى.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

ان الاجتماع البشري منذ تكونه وفي كل مراحل تطوره شهد هذا الصراع بين الأنبياء والمترفين، وجوهر الصراع بالنسبة للأنبياء وسائر المصلحين كان يقوم على أساس أن الناس احرار وعباد لله تعالى، وليس للمترفين أن يتخذوا منهم ادوات لتبرير مشاريعهم وتمكين سلطانهم، وهو ما حمل أهل الترف على تربص الشر بالدعوة إلى التوحيد والايمان والعمل الصالح في مقابل ما كانت تدعو إليه جماعة الترف التي كان منطلق الصراع بالنسبة لها وجوهره ان يبقى الناس اسرى الشهوات واللذات، وقولهم كما في الآية المباركة: انا بما ارسلتم به كافرون، وانهم اكثر اموالاً وأولاداً، لم يكن الدافع اليه والباعث عليه معرفة ما جاءت به النبوة، أو العلم الحقيقي بحقائق الأمور، بل كان قولهم مرتكزاً إلى التقليد والفخر بما كان عليه الأباء والأجداد، ولهذا نراهم يعددون أسباب العزة والكرامة والخلود، ويفرحون ما عندهم من الأولاد والأموال، وبما أن النبوة لم تكن على شيء من ذلك، وضعيفة في المال وقليلة الأنصار، فما بالها تطرح نفسها بديلاً لهؤلاء المترفين ولكل ما يملكون من أسباب القوة؟!

هكذا فهمت جماعة المترفين حضور النبوة في حياة الناس، فانطلقوا في مواجهتها لحماية مصالحهم، وابقاء تحكماتهم، اخذين على النبوة تعرضها لهم فيما دعت إليه من مبادىء وعقائد جديدة تربطهم بالله الواحد الأحد، وتحول دون استمرار المترفين في الدعوة إلى أنفسهم على أساس أنهم الأكثر مالاً وولداً في الحياة الدنيا التي ما ظنوا أنها تبيد ابداً!

ـ إن المترفين فيما دعوا إليه من حب للمال والحياة معاً، كما نفهم من الآيات الكريمة، كانت لهم فلسفات وسياسات تهدف إلى استقطاب الجماهير ودفعهم باتجاه الفقر النفسي والذل الروحي كي يتمكنوا من ترسيخ مفاهيم معينة مناقضة تماماً للنبوة وتعاليمها، وهادفة إلى بناء مجتمع مادي

يقوم في جميع شؤونه واموره على المادة والثروة، ولم تكن دعوة المترفين إلى ذلك مجرد دعوة تحركها الأهواء والشهوات وحسب، بل كانت دعوة تقوم على فهم ورؤية وفلسفة معينة تسوغ بناء الحياة الإنسانية على أساس ان الدنيا هي منتهى الأمال والأحلام والغايات!! وكان أكثر الناس يؤيدون اطروحة الترف ويعملون على ترسيخها، بدليل قوله تعالى: **﴿حتى إذا اخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون، لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصِون. . . افلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يأت أباءهم الأولين، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون، أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون، ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾**[١].

هذه الآيات وغيرها ـ كما سنرى، تتحدث عن جماعات كثيرة كانت ترى بالترف سعادتها وكمالها، وهي لم تجأر إلا بعد أن أخذ الله المترفين بالعذاب، يقول العلامة الطباطبائي: «وانما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلاً بقوله: «أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين» وهم الرؤساء المتنعمون منهم وغيرهم تابعون لهم»[٢].

إذن الدليل قائم على أن المترفين ليسوا فقط قارون وفرعون وهامان، بل ينضم إليهم اكثر الناس الذين يكرهون الحق والايمان، ويتبعون قادة الشر والضلال ليكون لهم نصيب من الترف، وحظ من الجاه، كما هو شأن أكثر الناس في هذا الزمان حيث نراهم يتهافتون على مراكز المال والسلطة (فرعون وقارون)، ويتقربون من جنودهما طمعاً في مال أو جاه، وهم غالباً

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٦٤ ـ ٧١.
(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج١٥، ص٤٤.

ما يبذلون الكرامة ويبيعون الدين في سبيل الحصول على شيء يسير لا يغني ولا يسمن من جوع، ومن المصائب الكبيرة في مجتمعاتنا اليوم ان اكثرية رجال العلم والدين قد دخلت بازار الترف، إذ انك حيث ضربت بطرفك تجد هؤلاء يتقدمون جموع المحتشدين أمام قصر الفرعونية سواء اكان كبيراً أم صغيراً!؟

إن الفقراء هم حماة الدين، والنبوة انما جاءت لهدايتهم وتخليصهم من عذابات الترف واوهامه، ولأجل أن يكون لهم دور ومشاركة في بناء الحياة السليمة، «والقرآن انما نسب الكراهية إلى أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يُعبأ بهم ارادوا أو كرهوا»[1]، وهؤلاء هم انصار النبوة في كل زمان، وهذا ما يغيض أهل الترف دائماً سواء اكانوا قادة أم تبع لهم لما يبتغونه من أن يبقى هؤلاء الفقراء خدماً لهم يستعملونهم في تأمين ما يلزمهم، وقد عبر المترفون عن غيظهم هذا بقوله تعالى: ﴿**قالوا انؤمن لك واتبعّك الأرذلون**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي**﴾[3].

إن هؤلاء الفقراء الذين اتبعو النبوة ودخلوا معها في الصراع ضد الترف هم الذين أسسوا للحضارات، وحموا انجازات الإنسانية، ولو أن الأمر ترك للفراعنة في كل زمان، لما كنا شهدنا حياة ولا كرامة، كما هو حالنا الآن في ظل الفرعونية الحديثة التي تصنف الفقراء في خانة الماضي السحيق والظلام الكثيف، الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المترفين: ﴿**ولا أقول للذين تزدري اعيُنكم لن يؤتيهم الله خيراً، الله أعلم بما في أنفسهم اني إذاً**

---

(١) م. ع. ص: ٤٦.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١١١.
(٣) سورة هود، الآية: ٢٧.

لمن الظالمين﴾[١].

إذن هناك فلسفات وسياسات قوامها الترف والإخلاد إلى الأرض والشهوة، في مقابل فلسفة وسياسة جاءت بها النبوة لإصلاح الأرض وهداية الناس إلى ما يكون لهم به السعادة في الدنيا والأخرة، وهذا كله ينفي مزاعم القائلين بأن المترفين كانوا في منتهى التجرد والمنطق في دفاعهم عما كانوا يؤمنون به ويعتقدونه ويسعون إليه من اهداف، بدليل ان هؤلاء استمروا في التعامل السلبي مع اطروحة السماء رغم كل ما احرزته من تقدم على مستوى الروح والمادة معاً، ورغم كل ما اثبتته بالحجة والمنطق في مواجهة اطروحة المترفين[٢]

فقه الآية والدلالات:

إن السؤال الذي يمكن طرحه والاجابة عليه في سياق الكلام عن جوهر الصراع بين النبوة والمترفين هو: لماذا هذه العلاقة الجدلية السلبية بينهما؟

وكيف يمكن فهم منطلقات وآفاق ومرتكزات هذا الصراع الوجودي إذا صح التعبير بين المترفين والمصلحين في كل زمان؟

---

(١) سورة هود، الآية: ٣١.

(٢) يمكننا التعرف على حقيقة ما يسعى إليه المترفون في كل زمان من خلال عصرنا الحاضر، الذي حقق فيه الإنسان تطوراً هائلاً، ولكن هذا التطور يرتكز ويقوم على فلسفة انتجها المترفون، وتخالف في كثير مما تدعو إليه دعوة الأنبياء ومبادئهم، باعتبار أن قوام هذه الحضارة المادية هو جمع الثروة والمال وبناء الحياة الدنيا، والاستغراق فيها. وهو ما عبرنا عنه بالقصد الهادف إلى تسويغ الإخلاد إلى الأرض، وقد ابتدعت قوانين وفلسفات وسياسيات للتعبير عن هذه الاطروحة في مواجهة اطروحة السماء، فلا مجال للقول بأن المترفين كانوا عفويين في ما حاجوا به الأنبياء انطلاقاً من رؤيتهم الخاصة لما ينبغي أن يقوم به الإنسان لتحقيق سعادته. فالحضارة المادية اليوم هي في جوهرها امتداد لحضارة الترف الفرعونية..

اسئلة كثيرة يمكن أن تثار حول سلبية هذه العلاقة، وحقيقة الهدف الذي تنظر إليه الآيات، وتريد منا أن نقف عليه لاستخلاص العبر والنتائج واستظهار القوانين الاجتماعية التي كانت ولا تزال تتحكم بمسار ومصير البشرية، والحق يقال: ان الآيات المباركة في عرضها وبيانها لجوهر هذا الصراع تريد لنا أن التعرف على حقيقة القوانين الحاكمة والسنن التاريخية القائمة والتي لا ينجو منها المجتمع الإنساني فيما لو كفر بأنعم الله، وصد عن سبيله وخالف دعوته؛ ولعل الهدف من تكرار آيات البلاء وكل ما حل بالأقوام التي خالفت الأنبياء هو إرشاد العقل الى ما يمكن أن يصيب أي مجتمع يعبد من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، وهذا ما سنعرض له في البحث اللاحق إن شاء الله تعالى.

إذن الدلالة التي يمكن الكشف عنها هي أن القرآن قد أشار إلى قانون ثابت في الحياة الإجتماعية والسياسية للناس، وهو انه حيث يوجد الترف يوجد الافساد في الأرض والكفر بانعم الله، وحيث توجد النبوة، يوجد الاصلاح في الأرض والشكر لله تعالى على نعمه، وفي هذا السياق يمكن التعرض لما ذهب إليه البعض من مقولات في تفسير معنى النبوة والترف، فمن هذه المقولات مقولة المترفين (الماديين) المحدثين، والتي مفادها ان المترفين يصنعون الدين لحماية مصالحهم ولتسكين الشعوب به، أو كما عبر ماركس بأن الدين افيون الشعوب الذي تسقيه الطبقة الحاكمة للناس كي تنسى مطالبها، وتستسلم لواقعها السيء، وقد اختلفت المقولات باختلاف المذاهب الفكرية والفلسفية حول الدين والنبوة، والبحث الإجتماعي، وما سلف من تجارب الامم، أثبت بالدليل والبرهان ان الدين لم تنتجه طبقة الحكام والمترفين، وإنما هو فطرة الله وصبغته أوحى به إلى الأنبياء والرسل كيما يخرجوهم من الظلمات إلى النور، وبما أن الدين، والأطروحات

الإلهية بشكل عام، قد نزلت للحد من نفوذ الترف في حياة الناس، وهدايتهم إلى سبيل استثمار نعم الله تعالى في الطرق المؤدية بهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة، فإنه لا يصح القول بأن الحكام والمترفين قد انتجوا الدين لتسكينهم به وترويضهم بحيث يؤدون الطاعة لحكومة الترف ومؤسساتها، فالدين وإن كان قد نشأ في وسط الفقراء وانتشر بجهادهم إلا أنه ليس نتاجاً أرضياً ولا انسانياً، يقول الشهيد الصدر رضوان الله عليه: «ان الدين نشأ في أحضان الفقراء، ولم يكن نتيجة لبؤس اجتماعي، أو تعبيراً عن بؤس اجتماعي موجود كما يقول ماركس، فهو الشعاع الأول في حياة الإنسان وقبل ان ينقسم المجتمع إلى فقراء واغنياء، فهذه المسيحية التي حمل لواءها في ارجاء العالم الفقراء، وهذه الدعوة الاسلامية التي كانت النواة الأولى للأمة الإسلامية فيها الفقراء واشباههم، فكيف يمكن ان يفسر الدين على أنه نتاج للطبقة الحاكمة»[1].

إن الطبقة الحاكمة لا تنتج ما لا علم لها به، واعني بها الطبقة المترفة، فهي أعجز من أن تأتي بمثل هذا الدين، ولئن سلمنا انها تستطيع إيجاد عقائد وقوانين، فلا يمكن أن نسلم بأنها توجد ما يعيق تقدمها ويجعلها قلقة على مصيرها، وأبرز مثال على ذلك هو المجتمع المكي المترف الذي عبر بوسائل كثيرة عن استيائه وانزعاجه ممن يحملون دعوة الايمان ويبشرون بها، وقد بذل جهوداً حثيثة لمنع الفقراء المؤمنين من تبليغ الدعوة والقيام بها. . . !؟

إننا أمام آيات قرآنية تتحدث عن سنة تاريخية حاكمة، وليس لهذه السنة تبديل ولا تحويل، ولا يمكن أن تخلو الساحة التاريخية ولا الإجتماعية

(١) السيد الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ط١٧، ١٩٨٦، ص١١٣.

من صراع حتمي بين المصلحين والمفسدين كما تصرح الآية المباركة، ولما بينته آيات اخرى، واحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ واهل بيته، ومنها ان الله تعالى لم يخلق الخلق سدى، ولم يتركه هملاً، وهذا يقتضي أن يكون للخلق غاية يعمل من أجل الوصول إليها، كما انه يقتضي ان لا يترك الناس من دون رسول أو إمام يطأ بهم الطريق ويرشدهم إلى سواء السبيل، ومن هنا كان لا بد أن تصطدم دعوة النبوة بدعوة الترف تحقيقاً لهذه الغاية واستتماماً للنعمة التي لا تكون نعمة ما لم تكف أيدي المجرمين عن أرزاق الناس وارواحهم ويتحقق العدل والتكافل الاجتماعي لأجل أن تشق الإنسانية طريقها على ضوء ما أمر الله به، وبما أن المترفين يقيّمون الإنسان على أساس ما يملك من المال والجاه، ويعملون من أجل تحويل كل شيء في المجتمع لخدمة مأربهم الخاصة، هذا فضلاً عن مساعيهم من أجل العبث بحياة الناس، وسياستهم وفق نظام مصالح خاص بهم، وما دام المترفون يرفضون أن يكون المقياس للتفاضل والسعادة الإيمان والتقوى، فإن ذلك كله حتم أن يكون للنبوة دورها ومجال عملها للحيلولة دون وقوع الناس في شراك الجاهلية. فالمال عند المترفين يقابله الإيمان والتقوى عند الإنبياء وسائر المصلحين، وبين أن تعبر الفطرة الإنسانية عن ذاتها بالدعوة إلى التقوى والإيمان والعمل الصالح، وبين أن يعبر المال والشهوة عن ذاتها بالدعوة إلى الإكثار من الأموال والأولاد، كان لا بد أن ينقسم المجتمع وتتناقض الأهداف والمصالح، بحيث يصبح الصراع أمراً حتمياً بين قوى الأرض وقوى السماء، وكان أيضاً مما لا بد منه، أن تعبر النبوة عن نفسها في مواجهة الذين يريدون للمجتمع الإنساني أن يسير باتجاه مخالف لفطرته وإنسانيته، باعتبار أن الله تعالى أبى للإنسان إلا أن يكون مكرماً عزيزاً، كما أنه تعالى نهى عن أن يكون الناس أغنياء وفقراء، ضعفاء واقوياء عرضة للأهواء والشهوات فبعث بالنبوة والرسالة لأجل أن تكون دليلاً إلى الفطرة

وسبيلاً إلى السعادة. . .

إن الذي خلق الإنسان وبعث فيه الروح والحياة هو اعلم بما يحتاج إليه هذا الإنسان لتكميل نفسه وتحقيق سعادته في الدنيا والآخرة، فما بال المترفين قد جعلوا حدود الكرامة والخلود والسعادة الدنيا وما فيها وما هي إلا متاع الغرور!؟

فالمترفون اغتروا بما أنعم الله به عليهم من المال والجاه والولد فكفروا بأنعم الله مما كان سبباً لإذاقتهم لباس الجوع والخوف بما كسبت أيديهم، وقد دفع بهم هذا الغرور في الدنيا ومتاعها إلى صناعة الالهة واتخاذها من دون الله أرباباً يعبدونها ويقدمون لها الطاعة. . . وكان من الطبيعي جداً أن يلجأ هؤلاء في ظل ما هم عليه من فقر نفس وخواء روحي إلى مواجهة النبوة التي دعتهم إلى أن يتخذوا الله إلهاً يعبدونه فلا يشركون به شيئاً. . .

إن مواجهة المترفين والحد من نفوذهم في المجتمع أو الدولة كانت ولا تزال ضرورة تقتضيها طبيعة الإنسان، وقد جاءت النبوة لتثير دفائن العقول وتهدي الإنسان إلى سبيل السعادة وتنير له الطريق بحيث يتمكن من التعبير عن فطرته وشهادته لله تعالى، ولو أن الأمر ترك للمترفين كي يمعنوا في الأرض فساداً، وفي النوع الإنساني هلاكاً، لما كان هناك شيء في هذا العالم يستحق التقدير، أو يبعث على الخير، ولكان من الطبيعي أن تتحرك غرائز الإنسان لتجعل منه عنواناً للشر كبيراً ولكن رحمة الله وسعت كل شيء، فأقدر الإنسان على ممارسة حريته والانطلاق في الحياة على ضوء ما تقتضيه الفطرة وترشد إليه حقائق الإيمان وتفرضه المبادىء الاخلاقية وسائر القوانين الإلهية التي جاء بها الأنبياء لأجل توجيه الإنسان وهدايته إلى ما فيه الخير والصلاح والسعادة. . .

لقد قضت حكمة الشارع أن لا يبقى الناس دون هادٍ ومدبرٍ، وإذا كان هناك ثمة معنى لهذا العالم، فهو إنما يأخذ معناه من وجود النبوة فيه، بما هي عليه من فقر في المال والأعوان ، وبما عليه من قوة في الإيمان والعزيمة، وكان الله قادراً على أن يجعل من الأنبياء أهل ثروة وسلطان، فلا يكونوا موضوعاً للتساؤل أو للسخرية من قبل المترفين كما قال فرعون: «هلا القي على موسى وهارون اساورة من ذهب احتقاراً للصوف ولبسه واعظاماً للذهب وجمعه» ولكنه سبحانه وتعالى: أراد أن يظهر الحقيقة في أن المال والثروة ليس سبباً للإنتصار أو السعادة، وانما هو وسيلة إلى غاية أعظم وأكبر، ولو أن الله تعالى أراد للأنبياء أن يكونوا على مثل ما كان عليه أصحاب الترف، لما كان هناك سبيل للإعتبار، لأن السر في النبوة وفي ما حققته من انتصارات على المترفين تجلى فيما أبداه أهل الترف من ضعف وفقر وانحلال، يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المعنى: «ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام . . . لكان ذلك أهون على الخلق في الإعتبار»[1]

لقد أخطأ المترفون حينما اعتقدوا أن الأنبياء إنما يحسدونهم على ما في أيديهم من متاع الدنيا، فهم يعرفون جيداً أن الناس يريدونهم إما خوفاً من عبثهم واستبدادهم ، وإما رغبة في أموالهم، وكان الناس كلما ازدادوا وعياً وايماناً، كلما عرفوا حقيقة هؤلاء واستقلوا عنهم ليكونوا في منأى عن استغلالهم والاستبداد بهم، بينما الذين ارادوا النبوة واعتقدوا بها، فهم إنما ارادوا ذلك عن قناعة بها، وعلم بما تحمل النبوة من مسؤوليات واهداف، فلم يلحقوا بهم طمعاً في شيء من المال والجاه والسلطان، بل رأوا فيها سبيلاً إلى الله، ورشداً ليس بعده رشد . . .

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

هكذا ظن المترفون أن النبوة جاءت لمنازعتهم عز الحياة وترفها، وهذا هو شأن المترفين في كل عصر ومصر، وقد ارشدت الآية إلى هذا المعنى، وعبرت عنه بوجود هذه العلاقة الجدلية السلبية بين موقع النبوة، وموقع الترف، وهي بمثابة السنة التاريخية، كما انها تخير الإنسان بين أن يكون في هذا الجانب أو في ذاك، وعليه أن يحسم أمره من خلال ما لديه من معطيات ايمانية ودلالات حسية وبراهين عقلية، فيختار ما يستطيع به التعبير عن نفسه، وقد بينت سنن التاريخ، وعواقب الإجتماع البشري بعد كل واقعة أن الذين اترفوا واجرموا قد انتهى أمرهم إلى الوبال والخسران ولم يفوزوا بشيء مما قضوا اعمارهم في جمعه والتمتع به، وبقيت النبوة بكل معانيها دون أن يمسها طغيان الترف ولا استبداد الشهوة، لأن النبوة أرادت للناس جميعاً للأغنياء والفقراء أن يعيشوا في اجواء التقوى والايمان والشكر لله تعالى، ارادت لهم أن يأكلوا على مائدتها ليتمتعوا بنعمة الهداية، ولم يجد المترفون صعوبة في الكشف عن مهام النبوة ودورها، وعلموا أنها لا تطلب ملكاً، ولا تسعى في سبيل سلطان، ولا تهدف إلى انتزاع ملكهم وتبديد ثرواتهم أو انتزاعها منهم، لكن حب الدنيا والضلال المستحكم كان دائماً يحمل المترفين على مواجهة النبوة ظلماً وطغياناً وذلك بعد أن رأوا عز النبوة رغم كل ما هي عليه من فقر في المال والجاه، وخير مثال على ذلك هو ما اقدمت عليه قريش المترفة حينما اجتمعت قياداتها للتداول بشأن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي تعرض لآلهتهم، وكان قرارها أن تعرض عليه المال لقاء التخلي عن الدعوة، وقالوا لعمه أبي طالب: «إن كان محمد يريد المال اعطيناه، وإن كان يريد الآمارة أمرناه شرط أن يترك هذا الأمر، لكن الرسول اجابهم بكلام فيه عز الدنيا والآخرة فقال لهم: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يُميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو

أهلك دونه»[1].

هذه هي طريقة المترفين في التعامل مع المصلحين حينما يخافوهم على دنياهم، المساومة والدعوة إلى انصاف الحلول، وغير ذلك مما يُبقي لهم الثروة والسلطان لكي يتمتعوا بها على حساب الفقراء والمساكين وابناء السبيل، وبما أن النبوة مسؤولة عن احقاق الحق وإقامة العدل، وبما أن المترفين يمعنون في الأرض فساداً، ويمنعون من إقامة العدل ويظلمون الناس بما يجمعوه من ثروات عن طريق الربا والاحتيال، فكان من مقتضيات الدعوة وحياة المجتمع الإنساني أن يقوم الأنبياء بدورهم ليحولوا بين المترفين وطغيانهم، وهداية الناس إلى طريقة التعامل مع هؤلاء، وقد علم الناس جميعاً، أن الأنبياء لم يقفوا مقابل المترفين ليكونوا بديلاً لهم، أو بهدف تحقيق مصالح أنية، كما أنهم لُم يقفوا لهم كرهاً ولا حسداً، وانما كان ما كان من النبوة في سبيل سعادة الإنسان من خلال الهداية إلى الإيمان والعمل الصالح، ولو أن الأنبياء كانوا يطلبون الدنيا فيما أقدموا عليه من مواجهات لما وجد الناس صعوبة في التقرب اليهم، ولما تغيرت احوالهم ومنطلقاتهم باعتبار انهم كانوا يألفون حياة الترف والاستبداد بعدما اقنعهم المترفون بأن ما هم عليه إنما هو من الله ولو أراد لهم المال والثروة لاعطاهم إياه، وهذا المعنى يمكن استفادته من قوله تعالى: **﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾**[2]، أي أن فرعون أقنع مجتمعه بأنه إله، وبأن الطاعة له واجبة، وان كل ما يقوله هو الحق، وان ما يقوله الناس هو الباطل

---

(١) انظر: حوار المشركين مع النبي ﷺ وما اقترحوه من حلول لايجاد تسوية تبقي على بعض تقاليدهم وعباداتهم وقد رفض الرسول ﷺ التسوية وأصر على أن يكون مشروع الاسلام ودولته هو البديل لما يقوم عليه المجتمع المشرك: راجع: العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، بين الجاهلية والاسلام، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص٥٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

إلى غير ذلك مما أورده القرآن لبيان حقيقة الوضع الاجتماعي والسياسي للأقوام السالفة مع صناديدهم وحكامهم. . !؟

لا شك أن الناس كانوا يألفون هذا الوضع، ولما جاءت النبوة وجدوا فيها الناصر والمعين، لأنها على شاكلتهم من حيث الفقر المادي وغير ذلك فاضطروا إلى سماعها لمعرفة ما عندها من جديد وغير مألوف، وكانت النتيجة إدراك معاني جديدة في حياة الإنسان، وفي حقيقة الدنيا وما فيها من متاع، ولو أن النبوة جاءت ومعها كنوز الذهب لاختلفت النظرة إليها، والإعتبار بها، لأن الناس في هذه الحالة سيلحقون بها طلباً لما عندها من ذلك بمعزل عما تدعو إليه من عقائد واخلاق وقوانين جديدة. إن الله تعالى أراد للناس أن يخرجوا من ذل الثروة والترف إلى عز الإيمان والتقوى، من الدنيا إلى الآخرة من خلال النبوة قبل أن يخرج الناس من الدنيا ليجدوا نعيماً ما رأوه في حياتهم، وفي هذا المعنى يقول الإمام علي عليه السلام: ولو أراد الله تعالى بأنبيائه حيث بعثهم ان يفتح لهم كنوز الذهبان ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء، واضمحلت الأنباء، ولكن الله جعل رسله اولي قوة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً، وخصاصة تملأ الأبصار والاسماع اذىً»[1].

إن مما يعزز احتمالات قرب نهاية الذين اترفوا في حياتنا المعاصرة هو وجود تماثل كبير بين ما وصل إليه عالمنا اليوم من فساد وترف، وبين ما كانت عليه المجتمعات القديمة من ذلك، وهذا يعني فيما يعنيه ان النبوة وتعاليمها وارشاداتها لم تعد حاضرة في حياة الكثيرين من الناس أو اصبحت ظاهرة غريبة حتى في المجتمعات التي تحررت على يدها، واعني بذلك

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

العرب والمسلمين ولهذا عاد الإسلام غريباً كما بدأ غريباً، وبما أن السنة التاريخية لا تتبدل ولا تتحول فإن حتمية حق القول على الناس وتدميرهم اصبحت قريبة جداً، كما في قوله تعالى: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً. ﴾**[1]، ولا شك أن الفائز في هذا الصراع هو الأنبياء وسائر المصلحين الذين يشكلون امتداداً لهم في كل زمان، تماماً كما كان النصر حليفهم في الأزمان السالفة، وهناك جملة من الآيات التي تنطق بضرورة الاعتبار بما جرى للأقوام والحضارات السالفة التي أبيدت بما كسبت أيديها، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿افلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾**[2]. وقوله للكافرين أمثالها دليل على أن ما صاب الأقوام السالفة بسبب الترف سيصيب الأقوام اللاحقة، كما قال تعالى: **﴿سنة الله في الذين خلوا ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وكم اهلكنا من قبلهم من قرية هم اشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد فهل من محيص، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد﴾**[4].

من مجموع ما تقدم من آيات يتبلور المفهوم القرآني، وتستخلص النتيجة الحتمية لكل صراع بين موقع المترفين وموقع الأنبياء، وتتوضح القوانين التي تقرر ان الساحة التاريخية مثل كل الساحات الكونية الأخرى لها سنن وضوابط والناس لن يكونوا في مأمن مما تكسبه أيديهم، وتقترفه انفسهم فتحكم عليهم هذه السنة كما حكمت على مَن سبقهم إن خيراً فخير

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥، سورة الروم، الآية: ١٠٩، سورة فاطر، الآية: ٤٤، سورة غافر، الآية: ٢١، سورة محمد، الآية: ١٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية٣٨، ٦٢، سورة فاطر، الآية: ٤٣.

(٤) سورة ق، الآية: ٣٦.

وإن شراً فشر، ولن يكون بمقدور الناس الافلات من قبضة القوانين والسنن الحاكمة وهم بين أمرين، إما أن يبادروا إلى التحكم بهذه السنن التاريخية عن طريق الإيمان والعمل الصالح فيسقوا ماءً غدقاً، وإما أن يتلهوا بنعم الدنيا وحطامها فتوردهم موارد الهلكة، وهو ما عبر عنه الله تعالى بقوله: **﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾**[1]. ذلك هو معنى أن يكون الناس مع المترفين أن يقدموا لهم الطاعة ويقبلوا باطروحتهم المادية التي تورث الندامة والحسرة، وهذا هو معنى أن يكون الناس مع الأنبياء فيكون لهم عز الدنيا والآخرة بما سمعوا واطاعوا، كما قال تعالى: **﴿ان يقولوا سمعنا واطعنا وأولئك هم المفلحون﴾**[2]

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة النور: الآية: ٥١.

بين مشروع النبوة ومشروع المترفين

سبق لنا أن أشرنا إلى أن الأنبياء فضلاً عن أنهم صدعوا بدعوة الحق، وتصدوا لكل محاولات الإضلال التي كان يقوم بها المترفون، فهم كانوا يحملون مشروعاً سياسياً عبروا عنه قولاً وفعلاً وبمقدار ما ملكوا من قدرات وامكانات، ووجدوا من اعوان وانصار، وهذا المشروع السياسي كان يقوم على نظرية الهية عبرت عنها الرسالات السماوية التي جاء بها الأنبياء، خلافاً لمشاريع المترفين الذين ابتدعوا واسسوا من منطلق اهدافهم وميولهم وغاياتهم التي لم تتعد الشهوة واللذة والمطامع الشخصية . . .

وهنا يمكننا أن نستعرض جملة من الآيات القرآنية لمعرفة وجوه الصراع وطبيعة هذه العلاقة السلبية بين الأنبياء والمترفين، لنرى كيف أن النبوة لم تقتصر في رسالتها على الدعوة إلى التوحيد والايمان، بل تعدتها إلى السياسة السامية التي تنطلق من معنى التوحيد والايمان في معالجة اوضاع الناس وتدبير امورهم وسياستهم وفق ما شرع الله تعالى.

قال الله في كتابه الكريم: ﴿**ولقد ارسلنا نوحاً إلى قومه اني لكم نذير مبين، ان لا تعبدوا إلا الله إني اخاف عليكم عذاب يوم اليم، فقال الملأ الذين**

كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم اراذلنا بادي الرآي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾[١] .

وقال تعالى على لسان نوح: **﴿ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك ولا أقول للذين تزدري أعيُنُكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم اني إذاً لمن الظالمين، قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**[٢] .

وقال تعالى: **﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وإن انتم إلا مفترون. . . ، ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين، قالوا يا هود ما جئتنا ببينّة وما نحن بتاركي الهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين، إن نقول إلا اعتراك بعض الهتك بسوء قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾**[٣] .

وقال تعالى: **﴿وتلك عادٍ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسُلَهُ واتبّعوا أمر كل جبار عنيد﴾**[٤] .

وقال تعالى: **﴿وإلى ثمود اخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو انشأكم من الأرض واستعمركم فيها. . . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا اتنهانا أن نعبد ما يعبد أباؤنا، وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب﴾**[٥] .

---

(١) سورة هود، الآية: ٢٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٣١.
(٣) سورة هود، الآيات: ٥٠ ـ ٥٥.
(٤) سورة هود، الآية: ٥٩.
(٥) سورة هود، الآية: ٦٢.

وقال تعالى: ﴿وإلى مدين اخاهم شعيباً، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان أني أراكم بخير وان اخاف عليكم عذاب يوم محيط... قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد أباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد، قال يا قوم ارأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً، وما أريد أن اخالفكم إلى ما انهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب، ويا قوم لا يجرمنّكم شِقاقى ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط عنكم ببعيد... قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز...﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه، فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾[2].

ما نريده هو أن الله تعالى بعث في كل أمة رسولاً، قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله﴾[3].

وقال تعالى: والكلام لرسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد، وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم فما أغنت عنهم الهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب﴾[4].

وقال تعالى في سياق الكلام عن القرى الظالم اهلها، وما تسببت به

---

(١) سورة هود، الآيات: ٨٤ ـ ٩١.
(٢) سورة هود، الآيات: ٩٦ ـ ٩٧.
(٣) سورة النمل، الآية: ٣٦.
(٤) سورة هود، الآية: ١٠١.

هذه القرى لنفسها من ظلم: **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن انجينا منهم وأتبّع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾**[1].

إن أول شيء يمكن ملاحظته فيما تنطوي عليه هذه الآيات من معان، هو ما كان عليه الأنبياء من منطق واسلوب ومضمون في الدعوة إلى الله تعالى الواحد الأحد، في مقابل منطق واسلوب ودعوة المترفين إلى ما كانوا يظنون أنه الحق والعدل، وكما بينا سابقاً أن المترفين هم قادة الشر في المجتمعات الإنسانية، وهم المعبر عنهم في الآيات بقوله تعالى: قالوا... رداً على دعوة الأنبياء إلى التوحيد ونهيهم لهم عن اتخاذ المال والسلطة وكل ما عبر عنه بالآلهة، أرباباً من دون الله تعالى يعبدونها، وقد لاحظت الأبحاث التاريخية والاجتماعية والسياسية هذا المعنى، وصرحت بأن المترفين هم أصحاب الثروة والمال إلى جانب كونهم اصحاب السلطة السياسية، بدليل أن فرعون وهامان وقارون كانوا اصحاب الثروة والسلطة معاً، وقد استخفوا بالناس والحقوق المشروعة لهم لدرجة أن جعلوا منهم عبيداً لهم يعبدونهم من دون الله تعالى، وهذا ما عبر عنه القرآن بالقول: **﴿واتّبعوا أمر كل جبار عنيد﴾**... والمقصود بالجبار العنيد هم أولئك المترفون الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، والجدير ذكره هنا وما تم استعراض الآيات لأجله، هو الارشاد إلى حقيقة هامة جداً ألا وهي تفرد جماعة الترف بالسلطة السياسية إلى جانب السلطة المالية، فحيث كان المال والسلطة كان الناس وليس العكس، فلم يكن للناس أي دور في توجيه المال أو استثماره، وغاية ما كان يقوم به الناس ويفكرون فيه هو كيفية الحصول على المال بالوسائل التي ترضي أصحاب الثروة، الذين هم في الوقت نفسه

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٦.

أصحاب القرار السياسي المخوّل حق مصادرة الأموال والثروات من كل مَن لا يؤدي الولاء والطاعة لهم، كما كان يفعل فرعون الذي اخذ على قومه ايمانهم بموسى من قبل أن يأذن لهم، كما في قوله تعالى: ﴿**قال فرعون آمنتم به قبل أن أذن لكم**﴾[1].

إذن دخول النبوة الى عالم الزمان والانسان لم يكن الهدف منه الهداية فقط أو الدعوة إلى التوحيد فقط، بل الهدف الحقيقي هو الاصلاح ما استطاع النبي ذلك، وكلمة الاصلاح هنا مطلقة ولا يمكن حملها على جانب من جوانب الحياة الإنسانية دون اخر، حيث قال تعالى: ﴿**إن اريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله...**﴾[2]، فالآية تستبطن معنى الاصلاح الشامل في الافكار والمفاهيم، في النظرية والتطبيق معاً، في الدين والسياسة معاً، وابراز مركزية التوحيد وجوهريته في دعوة الإنبياء لا ينفي وجوه الصراع الاخرى بين الأنبياء والمترفين، وخاصة الصراع السياسي الذي لا بد أن تسبقه حقائق الإيمان إلى التمثل في قلوب وعقول الناس، ذلك أن المسألة السياسية ليست رأساً أو عملاً قائماً بذاته، وانما هي مهمة لا تكتمل ولا يقام بها على الوجه الصحيح، إلا إذا انعقدت قلوب الناس على ايمان صحيح واعتقاد سليم. ومن هنا كانت دعوة الأنبياء ترتكز إلى التوحيد والايمان بالله تعالى، ولعل المترفين كانوا على وعي بهذه الحقيقة حين اصروا على عبادة ما كان يعبد الأباء دون الله تعالى، ﴿**وقالوا ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي...**﴾ وقولهم هذا كان مبنياً على أساس أنهم اشراف الناس، واصحاب القوة والثروة، وهو ما لحظه نبي الله هود بقوله: ﴿**استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً**

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٨.

ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾. فالنص يصرح بما كان لديهم من قوة مادية وثروة مالية، ولكنها كانت مستغلة في غير سبيل الله تعالى وفي غير منفعة عباده، وقد أرشدهم النبي عليه السلام إلى ضرورة التوبة والاستغفار والشكر لزيادة هذه القوة والاستفادة منها في طريق الخير.

إن هذا الحوار بين الأنبياء ومن بعثوا إليهم (لأقوامهم)، فيه إشارات واضحة، وتلميحات صريحة، إلى أن المسألة السياسية جوهرية في خطاب النبوة، لأن النبي بعث لأجل أن يهدي ويرعى ويدبر شؤون الناس، ولا يمكن الفصل بين أمر الهداية وأمر الرعاية فيما لو كان النبي أو الإمام المعصوم قائماً بامور الناس، بل لا يمكن الفصل بين هذين الأمرين فيما لو كان القائم بهما مَن يمثل هؤلاء في حياة الناس، بدليل أن هناك من الأنبياء مَن لم يأت بشريعة وكانت مهمته الحفاظ والعمل بشريعة من سبقه، يقول الشيخ المفيد رضوان الله عليه: «وقد كان من انبياء الله تعالى حفظه لشرائع الرسل وخلفائهم في المقام... وانما منع الشرع من تسمية ائمتنا بالنبوة دون أن يكون العقل مانعاً من ذلك لحصولهم على المعنى الذي حصل لمن ذكرناه من الأنبياء عليهم السلام واتفقوا ـ أي الإمامية ـ على جواز بعثة رسول يجدد شريعة من تقدمه وإن لم يستأنف شرعاً ويؤكد نبوة من سلف وإن لم يفرض غير ذلك فرضاً»[1].

إذن مشروع النبوة مشروع متكامل، في الدين والسياسة، ولهذا قيل إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مرجعاً في الدين والسياسة، وسيرته وتجاربه دلت على أن العمل السياسي والتصدي للمترفين الذين هم قادة الشر في المجتمع كان من صميم مشروع النبوة، لأنه إذا لم يكن للسياسة والتدبير أي معنى فما يكون

(١) الشيخ المفيد، أوائل المقالات في المذاهب المختارات، بيروت، دار الفكر الاسلامي، ١٩٨٣، ص٤٧.

معنى التوحيد فيما لو استمرت اوضاع الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية عرضة لسياسة المترفين واطروحاتهم، ولا يخجلّن احد من القول ان موسى عليه السلام كان رجلاً سياسياً، وفرعون أيضاً كان رجلاً سياسياً، لكن سياسة النبي تقوم على أسس ومرتكزات مناقضة تماماً لما تقوم عليه سياسة الترف من ذلك، وإلى هذا المعنى أشارت الآية المباركة: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون**﴾[1].

فالآية في ابعادها ناظرة إلى تحقق المشروع السياسي الذي يحمله الأنبياء والصالحون، وهو ما وعد الله به، كما في قوله تعالى: ﴿**وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم**﴾ ومعنى التمكين ينطوي على شمولية تامة إذ ان السياسة ليست شيئاً خارج الدين، يقول العلامة جوادي أملي: «فصلاة كل مسلم، وصيامه، وكل ما يقوم به من عبادات هو في الحقيقة دراسة النهضة على الطغيان، والثورة على الظلم والجهاد ضد الضيم... ولا ينال هذه الكرامة إلا المطهرون من انجاس الجاهلية المنزهون عن مصالحها واما مَن ابتلي بها فتضرب عليه الذلة والمسكنة لما اشرب في قلبه حب عمل الدنيا ولذا تهاجمه كلاب الاستعمار وتقطعه ارباً ارباً، ولا تغني عنه الكثرة الظاهرة لقول رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم لثوبان: «كيف ان اذا يا ثوبان تداعت عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها؟ فقال بأبي أنت وامي يا رسول الله أمن قلة بنا، قال بل انتم يومئذ كثير ولكن يلقى في قلوبكم الوهن، قال وما الوهن يا رسول الله قال حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال...»[2].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٥ ـ ٦.

(٢) جوادي آملي، خمس رسائل، بيروت، دار الصفوة، ط١، ١٩٩٤، ص١٨٤.

إن الايمان بالله تعالى وترجمته هو شرط نجاح المشروع السياسي في المجتمع الإنساني، وهذا ما يمتاز به مشروع النبوة عن مشروع الترف، وهذا ما بدأت به دعوة كل نبي: «ان اعبدوا الله، ما لكم من اله غيره» لأنهم حينما يوحدون الله تعالى ويخضعون في عبادتهم له، يكونون بذلك قد وفروا التربة الصالحة لأي زرع في أي مجال من مجالات الحياة، وقد بين الرسول ﷺ في قوله إلى ثوبان ان حب الدنيا وكراهية القتال هو سبب تداعي الأمم على المسلمين، ونحن نفهم من حب الدنيا، ومن الهوان ان المقصود به هو الترف بدليل قوله تعالى: **﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن انجينا منهم واتبّع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾**[1]، قوله ما اترفوا فيه دليل على أن الترف هو سبب رئيس لهيمنة حب الدنيا على قلب الإنسان، ولكراهية القتال خوفاً من الموت الذي ظنوا انه ليس بعده حياة كما في قولهم: **﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً انكم مخرجون﴾**[2].

قال الشيخ الطبرسي في معنى قوله تعالى: **﴿واتبّع الذين ظلموا ما اترفوا فيه﴾** انه تعالى اراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات لأنهم اكتفوا بالعيش الهانىء ورفضوا ما وراء ذلك وهذا ما يمكن لمسه من حاضرنا ان الناس إذا توفروا على نعمة العيش رضوا بها وطمأنوا اليها..»[3].

فالذين أبطرتهم النعمة وعاشوا حياة الترف لا يمكنهم التخلي عن متاع الدنيا، لأنه من معاني الترف وهوانه ان يحب الإنسان الدنيا، وحينما يحب الإنسان المال حباً جماً، ويأكل التراث أكلاً لمّاً يصبح الموت مكروهاً لديه

(١) سورة هود، الآية: ١١٦.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٥.
(٣) انظر تفسير القرآن، الشيخ محمد جواد مغنية، دار عز الدين، ص٣٠١.

ويحاول بشتى الامكانات الافلات من قبضته لما يوهمه الترف به من أن الأموال والاولاد هما منتهى الغايات والأمال وليس بعدهما نعمة أو غاية! وما ذكره قوم شعيب من أنهم لا يفقهون كثيراً مما يقول أو انهم يرونه ضعيفاً، هو ذاته الكلام الذي قيل في كربلاء للإمام الحسين بن علي عليه السلام ان ماذا تقول يا ابن فاطمة، فهو كلام من سدت منافذه الحجة وقطعت لسانه البراهين القاطعة، فهم كانوا يعلمون أنه شعيب، وانه صادق فيما يقول، وكذلك القوم في كربلاء، كانوا يعلمون انه الحسين بن علي، ومَن كان يجهله عرفه بعد خروج الحر بن يزيد الرياحي من معسكر يزيد ولحاقه بمعسكر الحسين عليه السلام ، وما من قوم إلا وقدمت له آية ومعجزة وبراهين، ولكن المال والسلطة أعميا الأبصار والقلوب، ومن مات قلبه لا تنفع معه موعظة، ولا يؤثر فيه بيان، يقول صاحب في ظلال القرآن سيّد قطب: «فهم ضيقوا الصدور بالحق الواضح لا يريدون أن يدركوه، وهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة، فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التي يحملها شعيب ويواجههم بها، وفي حسابهم عصبية العشيرة لا عصبية الاعتقاد وصلة الدم لا صلة القلب، ثم هم غافلون عن غيرة الله على اوليائه فلا يضعونها في الحساب، وحين تفرغ النفوس من العقيدة القومية والقيم الرفيعة والمثل العليا، فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا، فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ولا لحقيقة كبيرة، ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن يكون له عصبة تؤويه وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه، اما حرمة العقيدة والحق والدعوة، فلا وزن لها، ولا ظل في تلك النفوس الفارغة الخاوية»[١] .

---

(١) نقلاً عن سعيد أيوب، الانحرافات الكبرى، بيروت، دار الهادي، ط١، ١٩٩٢ ص١٧٠.

إذن من خلال هذا الحوار بين النبي وقومه، وكذلك في ضوء ارسال موسى وهارون إلى فرعون ليقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، يمكن أن نستكشف طبيعة المهمة السياسية لكل مصلح سواء اكان نبياً، أو إماماً، أو فقيهاً، لأن معنى أن يرسل موسى إلى فرعون، والأنبياء جميعاً إلى الطغاة الذين كانوا يتحكمون برقاب العباد والبلاد، معنى ذلك ان الله تعالى أراد أن يستبدل اوضاع الناس، وفي الوقت نفسه القى الحجة عليهم فلا يقولون لو بعث لنا بشراً رسولاً، كما انه أراد من وراء بعثه الأنبياء والرسل القضاء على المترفين وتحكماتهم بالوسائل المناسبة وبالطريقة التي توقظ شعور الناس فيدفع بهم ذلك إلى ممارسة حقهم الذي اعطاه الله لهم. ومما تقدم يستطيع الباحث تلمس حقيقة الدعوة الإلهية إلى إقامة دولة العدل على انقاذ دولة الترف التي تحول دون وصول الإنسان إلى كماله وسعادته وحريته وكرامته، فمن يرى بأن الأنبياء لم يطلبوا ملكاً، ولا كان همهم إقامة دولة العدل وانهاء الاستبداد والاستخفاف الذي كان يمارسه الطغاة، فرؤيته غير دقيقة في ضوء التحليل للنصوص والروايات فضلاً عن الآيات الواردة في هذا الشأن، وقوله تعالى على لسان نوح: ﴿**ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا أقول اني ملك**...﴾[1]. لا يستفاد منه عدم شرعية إقامة الدولة العادلة... وانما يمكن فهمه بلحاظ ما هو مألوف لدى قومه عن الملوك الذين كان قوام ملكهم الظلم والاستبداد والترف وكراهية الفقراء الذين طلبوا اليه أن يزدريهم... لأننا لو ذهبنا إلى معنى أن النبي لم يكن هدفه نزع السلطة من المترفين واستبدالها بسلطة عادلة يشرف عليها ويحقق الغاية المطلوبة التي هي العدالة، لما كان هناك أي معنى لحركة النبوة في الواقع، ولما كان تسنى لأي نبي أن يحقق الإنجازات العظمى في تاريخ البشرية، ولكننا نعلم ان

---

(١) سورة هود، الآية: ٣١.

حقيقة الصراع حتى ولو استمر طويلاً لا بد أن تنتهي إلى نتائج محسومة، فإما أن ينتهي لمصلحة المترفين، واما أن ينتهي لمصلحة الأنبياء، وقد بين القرآن ان عاقبة الكفران بالنعم والاستبداد وعدم قبول دعوة الحق وسريان عبادة الاصنام كلها ادت إلى عواقب وخيمة بحق اولئك الذين اصروا على المعصية لله ولرسوله.

لقد انتهى الصراع لمصلحة الأنبياء مما حتم اقامة دولة العدل وتحقيق المساواة، وتعريف الناس بنعم الله، وهدايتهم، واخراجهم من الظُلمات إلى النور بالولاية التي لا يمكن تصورها عملياً من دون المعنى السياسي، ومن دون دولة ترعى وتدبر وتسوس المواطنين على ضوء أوامر الشرع. ومن خلال استعراض نتائج الحوار بين النبي وقومه، وعلى سبيل المثال بين موسى وفرعون نستطيع ادراك حقيقة ما نذهب إليه، واعني به حضور موسى عليه السلام في حياة وقلوب الناس، وتنكرهم لفرعون في حياته وعلى مرآى ومسمع منه، ولئن كان القرآن لا يحدثنا عن دولة اقامها موسى، إلا أننا نستطيع استنباط المفهوم السياسي الذي ساد في اوساط الناس بعد هزيمة فرعون، ذلك المفهوم، وتلك الطريقة التي قطعت الطريق على كل الفراعنة الصغار الذين تربصوا الشر بموسى، فلو كانت دعوة موسى مجرد دعوة ايمانية غير مقرونة برؤية سياسية معينة لإدارة الواقع ومعالجة الأوضاع الطارئة، لما كنا نستنكف عن القول بأن فرعون مات ليحيا من جديد، وحاشا ساحة موسى أن يقصر عن ادارة الوضع بالسياسة الملائمة والعادلة فيما لو كان الناس على بصيرة فيما يقدمون على قوله وفعله وملتزمين بما يأمرهم به نبيهم فيما يتعلق بامور الدين والدنيا معاً. إن معنى الصراع بين النبوة والترف، والانتصار في هذا الصراع، ان تكون النبوة مرجعاً للناس في كل ما يحتاجون إليه في حياتهم الدينية والسياسية، والقول بخلاف ذلك من شأنه

أن يخدم المترفين واطروحتهم الدنيوية.

إن قوله تعالى: **﴿ولا أقول اني ملك... ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم﴾**... يمكن فهمه على الوجه التالي هو أن الدعوة إلى الله تعالى، وإلى أن يشكر الإنسان ربه على نعمته عليه، والاستجابة إلى اطروحة النبوة الضامنة لسعادة الإنسان، كل ذلك يتنافى مع اطروحة الترف وما يمكن ان يترشح عنها من مشاريع سياسية، وقول النبي ﷺ أنه ليس ملكاً لا يعني عدم الحاكمية والتخلي عن مشروع اقامة الدولة لأمة تؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، يقول الإمام الخميني (قده) متسائلاً: «هل توجد في الاسلام ملوكية أو حكم وراثي أو ولاية عهد؟ كيف يكون هذا في الاسلام، ونحن نعلم أن النظام الملكي يناقض الحكم الاسلامي ونظامه السياسي. لقد ابطل الإسلام الملكية وولاية العهد، واعتبر في أوائل ظهوره جميع انظمة السلاطين في إيران ومصر والروم واليمن غير شرعية... إن الملكية وولاية العهد هو اسلوب الحكومة المشؤوم الباطل الذي نهض سيد الشهداء الحسين عليه السلام لمحاربته والقضاء عليه... فليس في الاسلام نظام ملكي وراثي...»[1].

إننا نعجب كثيراً من مقولات تدعي انه ليس في الاسلام دولة ولا سياسة، وتتنكر لجوهر ومعطيات وحقائق الصراع التاريخي بين الأنبياء والمترفين، وترى فيه عملاً روحياً بحتاً. إنه الترف بحد ذاته، كما ان الذاهبين إلى هذا القول هم من حيث يدرون أو لا يدرون يبررون قيام حكومات غير شرعية وانظمة ملكية بحجة أن الإسلام ترك هذا الأمر للناس فيختارون الصيغة التي تناسب أوضاعهم، وهذا ما نرى فيه نحن خروجاً عن

---

(١) انظر: الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، مطبعة النجف الأشرف، دون تاريخ، ص١٢.

الاسلام ودخولاً في ظلمات الجاهلية والترف من جديد!!

ونقول أيضاً: إن معنى أن لا نكون ملوكاً أن نكون حكاماً لقوله ﷺ: الفقهاء حكام على الملوك»[1] وحاكمية الفقيه هنا لا تعني انه ملك يزدري الفقراء ويحتمي به الأغنياء والمترفون، بل تعني انه مسؤول وراعي ومدبرلأمور الناس، وقبل ذلك كله هادٍ لهم إلى سواء السبيل والصراط المستقيم لتكون لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

لا شك ان منطق واسلوب المترفين فيه اشارات واضحة، بل دلالات صريحة على خشية جماعة الترف من مشروع النبوة السياسي، ومن ان تتحول السلطة عنهم إلى الأنبياء والصالحين والفقراء، فأظهروا الانفعال الشديد والتهكم والازدراء بالأنبياء وقالوا لشعيب ما نفقه كثيراً مما تقول «إنا لنراك فينا ضعيفاً...»[2].

---

(١) م. ع. ص١١٧.

(٢) لقد عنى المترفون بالضعف في الآية المباركة ان النبي ليس معه مال ولا عشيرة، وهم يملكون كل عناصر القوة في مواجهته وسهوا عن حقيقة أن الله تعالى لا يخذل اولياءه ويمدهم بما يحتاجون اليه لتحقيق النصر والصدع بالدعوة. ولا شك أن هناك فرقاً كبيراً بين مَن يراهن على الثروة في تحقيق النصر، ومن يراهن على الإيمان من أجل ذلك، وقد قال تعالى في تبيان هذه الحقيقة، حقيقة ان الإيمان لا يكون معه وهن ولا حزن، ولا فقر معنوي، ويعول عليه في تحقيق النصر حتى ولو كان اصحابه ضعفاء في المادة والثروة،.. بدليل أن اكثر الأنبياء وبالأخص أولي العزم كانوا فقراء حيث قال تعالى: **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ فلم يقل إن كنتم فقراء أو اغنياء، ولم يقل ان كنتم اقوياء أو ضعفاء، بل قال إن كنتم مؤمنين، فإذا وجد الايمان وجدت معه كل اسباب النصر بما في ذلك الارادة والعزيمة والمعنوية التي لا بد منها للإنطلاق في حركة الثورة ضد الظلم والطغيان، انظر كتابنا السلام المسلح بين العرب واسرائيل، دار الوسيلة، بيروت ط١٩٩٥ ص٢٩..، يقول الإمام الخميني:** «كان موسى عليه السلام راعياً وحارساً سنين طويلة، ويوم كلف بمجابهة فرعون. لم يكن مَن يعينه على امره وبما لديه من قابليات ومواهب وقوى استطاع بعصاه أن يبدد ملك فرعون. لا تتصوروا ان عصى موسى لو كان بيدي او يد احد منكم، كانت تعمل شيئاً =

وهذا كله يكشف عن أنهم يعلمون حقيقة ما تطرحه النبوة من بدائل لاستنقاذ الوضع السياسي والاجتماعي والإنساني بشكل عام، فلم يجدوا بداً من مواجهة النبوة بكل ما لديهم من وسائل وإمكانات مادية، ونقول مادية لأنهم لم يكونوا على شيءٍ من المعنوية التي هي السلاح الأمضى لكسر إرادة الشر أينما وجدت وحيثما حلّت، والحق يقال، أن هؤلاء لو كانوا على شيء من الأهداف والمبادىء والمعنوية لاستطاع الأنبياء التأثير فيهم وحملهم على سماع دعوتهم، ولكن **﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾**[1].

مما تقدم نخلص الى القول بأن الناس كان أمرهم يدور بين أمرين، إما أن يقبلوا بالمترفين بكل ما كانوا عليه من شرك وفحشاء ومنكر وبغي وكفران بالنعم وإفساد في الأرض، وكل ما عبّر عنه بحب الدنيا التي قال الله تعالى فيها **﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ اليهم أعمالهم فيها﴾**[2] وكذلك قوله: **﴿وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾**[3] وقال تعالى: **﴿ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾**[4].

= لأنه ليس لدينا تدبير موسى وهمته وعزيمته وجديته في عمله، وليس ذلك متيسراً لكل احد، وكان رسول الله ﷺ إذ صدع بالرسالة لا يملك من أسباب القوة إلا صبياً لم يتجاوز العاشرة هو علي ابن أبي طالب عليه السلام وامرأة متقدمة في السن هي زوجته خديجة، فقد آمنا به ونصراه واعاناه على امره وكان سائر الناس يؤذونه ويعاندونه ويكذبونه. ولكن اليأس لم يكن له إلى النبي ﷺ وناصريه سبيل. فقد ثبتوا بعزم وصبر وحزم حتى ظهر أمر الله تعالى وخسر هنالك المبطلون... را: الحكومة الإسلامية، مطبعة النجف الأشرف، ص١٣٠.

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١٥.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

إذن إما أن يقبل الناس بأطروحة الشرك والإستكبار في الأرض، وإما أن يقبلوا بأطروحة النبوة بكل ما تعنيه من توحيد وإيمان وعدل وأمر بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، وهو ما عبَّر عنه الله تعالى بقوله: **﴿الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾**(١).

هناك مشروعان متقابلان متضادان وهما على طرفي نقيض، فإما الترف والدنيا وإما الإيمان والآخرة، إما دين ودولة المترفين، وإما دين ودولة الإسلام، إذ أنه لا يمكن الفصل بين الدين والدولة بحيث يكون الدين لله والدولة والترف لقيصر كما هو رأي ومذهب المسيحية اليوم التي كانت ولا تزال تعتبر هذه المقولة من صميم رسالتها، ونحن لا نرى دليلاً عليها في رسالات السماء ولا في أحاديث الأنبياء وسائر الأئمة الذين وكّلهم الله بالشهادة وكلَّفهم بالنذارة، وبحفظ ما يكون من العباد من معاصٍ وطاعات. إن الدليل قائم على أن النبوة لم تأتِ ليكون الأمر منقسماً بينها وبين المترفين وإنما ليكون الأمر والدين كله لله.

هذا هو معنى أن تكون مع النبوة ضد الترف، ومع الحق ضد الباطل، ومع الحاكم العادل ضد الحاكم الجائر «المترف»، فإذا اختار الناس الترف فقد سبق لهم أن فعلوا من قبل، ولم يكن لهم من ذلك إلا الهوان والخسران والظلم، وهذه هي حالة الناس في كل زمان، يقول الإمام علي: «إنما الناس مع الدنيا والملوك إلا من عصم الله»(٢). أما إذا اختار الناس الحق فقد فعلوا هذا أيضاً، ولكنهم أخفقوا في نصرته وفي التعبير عنه، وكما قال تعالى: **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾**(٣).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤١.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٢١٠.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٣.

إن معنى أن تكون مع النبوة، ديناً وسياسة، إيماناً وعملاً صالحاً، معناه دخول ساحة الصراع ضد الترف والمترفين كيما يتسنى للناس التعبير عن فطرتهم واستحضار معنى شهادتهم، والتزام القوانين الإلهية التي جاء بها الأنبياء لما لذلك كله من علاقة وثيقة بتحقيق العدل وإزالة الظلم، وإذا كان للناس هذا الخيار، فإنهم بذلك يكونون قد عبروا عن أطروحة النبوة التي من شأن تحققها أن يعيش الناس في ظل دولة العدل والقانون.

النبوة تحسم الصراع

الله سبحانه وتعالى يقول لموسى وهارون: **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾**[1].

لقد جاء الأمر الإلهي ببدء الصراع ضد المترفين للحد من نفوذهم وللكشف عن زيفهم، فانطلق موسى وحيداً في مواجهة فرعون وملئه، فلم تدفع به وحدته وقلة الأنصار إلى التواني، مطيعاً لأمر الله فيما أمره به، صادعاً بالرسالة التي حملها، ولئن كانت حياة موسى عليه السلام مليئة بالمعجزات، إلا أن ذلك لا يستدعي اخفاء الدلالات والعبر التي حفل بها تاريخ هذا الصراع بين النبوة والترف، فالقرآن من خلال عرضه لهذه الأحداث، لا يريد من وراء ذلك أن تستوفنا المعجزة دون التطلّع إلى ما كان عليه الطرفان في بداية الصراع من حالات نفسية وقدرات وإمكانات مادية، باعتبار ان المعجزة لم تخرج موسى عن كونه بشراً أوكلت اليه مهمات، وهو في كل ما تساءل عنه وتوقف عنده كان يعبر عن هواجسه ويعلن مواقفه، محاولاً الإحاطة بالظروف والأوضاع، وقد عبر عن ما كان يجول في نفسه،

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٣.

كما في قوله تعالى: ﴿ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾[1].

لا شك ان موسى عليه السلام لم تستوقفه الحسابات المادية، ولا المعطيات الواقعية، فهو بحسب النفس قوي العزيمة والايمان، لكنه في المادة والثروة كان ضعيفاً غريباً في مجتمع المادة فيه قوام كل شيء، وهنا يطرح السؤال كيف يتجرأ موسى وهارون فيما لو كانا يحملان مشروعاً خاصاً على الذهاب إلى فرعون، وهما يعلمان أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً..؟

وعلام كان يراهن موسى واخوه هارون حينما انطلقا في دعوتهما الايمانية..؟

تلك أسئلة بديهية يطرحها الفكر السليم، وهي بمقدار ما تثير التساؤل والعجب، بمقدار ما تدفع إلى التبصر في جملة من الآيات لمعرفة ما تنطوي عليه من معانٍ ودلالات يجب التوقف عندها والإطلاع عليها في سياق الحديث عن دور النبوة في مواجهة المترفين، فنقول: إن النبوة انطلقت في الواقع بأمر من الله تعالى الذي أبى أن يترك العباد هملاً، وكان من جملة ما أنعم به على عباده أن بعث اليهم بالرسول والرسالة ليثير دفائن عقولهم، ويذكر بمنسي نعمته عليهم...

لقد اطمأن موسى إلى دعوته وقبل ذلك إلى عزيمته، فاندفع في رسالته مراهناً على قلوب وعقول الناس في انجاح مشروعه الإلهي، مستعيناً على فرعون بنفسه، كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام حينما سئل عن سبب انتصاره في كل مواجهة كانت تفرض عليه، فقال: «ما لقيتُ رجلاً إلا أعانني على نفسه»[2].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣١٨.

فالنبوة كانت تملك كل عناصر القوة في مقابل ما كان يملك الفراعنة من وهم وخيال، وقد رأوا بأم اعينهم كيف أن قوة الثروة والمال والكبرياء لا يعول عليها في حماية المجتمع والدولة ما لم تكن قائمة على أساس نفسي، وعزيمة قوية يحركها الايمان وتحميها التقوى، يقول الإمام علي عليه السلام: «. . . ولكن الله تعالى جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع اذىً»[1].

لم يكن الأنبياء بحاجة إلى ما في ايدي المترفين من مال وثروة وترف، فهم كانوا اغنياء بما يملكون من عزيمة، وهذه حالة لم تكن موجودة عند اعدائهم، باعتبار أن المترفين كان المقياس عندهم للحق والصلاح وتحقيق الانتصار المال والثروة، وقد دفع بهم هذا الاعتقاد إلى أن يعرضوا الجاه والمال ظناً منهم بأن الأنبياء انما يهدفون من وراء الدعوة إلى الله الحصول على مكاسب سياسية واجتماعية، فإذا ما حصلوا على البعض من ذلك، فإنهم يتركون كل شيء ظهرياً، وتبقى الأمور على ما هي عليه في أيدي المترفين. هذا هو منتهى ما بلغته قرائح الفراعنة، وقلما كانوا ينتبهون إلى ما هم عليه من غفلة إلا بعد أن تنقلب الأمور رأساً على عقب. . .

إن الأنبياء كانوا على وضوح تام من الأمر الإلهي، ومن المهمة الملقاة على عاتقهم، ولو انهم كانوا أصحاب مشاريع خاصة، لدخلوا في مساومات مع المترفين، وكفوا عن المطالبة بأن يتحرر الناس من قيود واغلال الاستخفاف والاستعباد الذي كان مستحكماً لدرجة أن الإنسان وحريته وكرامته في ظل سياسة الترف، أصبح يقاس بما يملك من مادة وثروة دون أدنى اعتبار لحالته النفسية والروحية، أو لما يحركه من عقل وفطرة! فالناس

(١) نهج البلاغة الخطبة: ١٩٢.

في مجتمع الترف لم يكونوا بعداء أو غرباء عما كان يجري، إذ إنه في اجواء أي صراع لا بد أن يكون للناس دور في تقويم الواقع والاشخاص، وهذه هي حالة الناس في كل زمان.

إن الناس كانوا يرون كيف ان العروضات والمساومات لم تثنِ اصحاب العزم والحق عن المطالبة بحق الله والناس معاً، مما كان يثير في دخيلتهم الأسئلة والحيرة معاً، لأنهم لم يسبق لهم أن ألفوا هكذا تنازلات لأشخاص لا يملكون الأموال والثروات والجيوش ليدافعوا عن أنفسهم، ورغم كل ما هم عليه من ضعف مادي كانوا يصرون على دعوتهم، وعلى انقاذ المجتمع الإنساني من ظلمات الترف السياسي والاجتماعي، وعلى تنفيذ أمر الله تعالى الذي قضى بتحقيق العدل، هذا من جهة.

من جهة أخرى، نحن نستطيع الإشارة إلى أن الأمر الإلهي القاضي بأن يذهب موسى وهارون إلى فرعون، والتحرك الإيماني لتنفيذ هذا الأمر حتم أن تكون لموسى هواجس ومواقف دون أن يترتب على ذلك أية شكوك في صحة الأمر والدعوة، فقد كان على بصيرة من نفسه، ويقين من دعوته، في مقابل ما كان عليه أهل الترف من جهل بأنفسهم وموت في قلوبهم، لأن المادة والسلطة كانت المعطى الوحيّد الماثل أمامهم.

هكذا كانت المعادلة، شك مقابل اليقين، وجهل مقابل المعرفة، وايمان بالله، مقابل الشرك بالله. وكما نعلم أن تحقق اليقين ووجود العزيمة لا يمنع من إثارة التساؤلات، أو اظهار هواجس، أو ابداء مخاوف، لأن ذلك كله هو مقتضى الإنسانية، ومفاد التفاعلات النفسية مع الواقع والأحداث. إن معنى أن يكون الإنسان إنساناً أن يفرح ويحزن ويخاف، فلا اليقين مانع من التفاعل النفسي مع الأحداث، ولا الإيمان رادع عن أن يكون المرء حذراً فيما يؤديه من مهام، فالنبي موسى عليه السلام انطلق في دعوته، واستجاب لأمر

ربه من موقع انسانيته، وهو لم يخرج عن طبيعته البشرية ليكون متجرداً من احواله النفسية وحساباته الواقعية، ولهذا قيل لموسى وهارون كما بين الله تعال: ﴿**إنني معكما أسمع وأرى**﴾[١].

إن عقلية الطغاة في كل زمان تركز في منطلقاتها وتعبيراتها في مواجهة المصلحين على المعطيات المادية فقط، ولو أن المترفين والطغاة يعيشون حالة التعقل ويفكرون فيما هم عليه من احوال نفسية، وفيما يحيط بهم من احداث واقعية لما وصل الأمر بهم إلى تجاهل المستقبل فيما يفرضه من احداث ووقائع كان الكثير منها يمت بصلة مباشرة إلى الغيب والقدرة المطلقة، وأعني بذلك عجز المترفين عن تفسير وفهم بعض الظاهرات التي كانت تفرض نفسها عليهم دون أن يتمكنوا من فهمها أو الإحاطة بها، والنبوة كانت من هذه الظاهرات التي عبرت عن نفسها بالكشف عن انفسهم وعما كان يحيط بها من غشاوات وظلمات. . . !!

فلو أن فرعون وغيره من المترفين الذي اعترضوا مشروع النبوة تساءلوا عن الأسباب التي حالت دون أن يقبل موسى وهارون بعروض الأموال والجاه، لما كانت الأمور تصل إلى حد الحسم النهائي، لأن الله سبحانه وتعالى يريد الهداية لعباده، بل غالباً ما كان الفراعنة يواجهون منطق النبوة القائم على الحجة والبرهان بمنطق الاستعلاء والسخرية، وقد كان بامكانهم على الأقل الاستماع إلى ما يحمله المصلحون من رسائل ليقفوا على حقيقة الأمر بحيث يكون لهم الإعتبار مما يدعون إليه، وخصوصاً أن موسى وهارون ذهبا إلى فرعون بالقول اللين، وقد عرضا على فرعون أن أسلم ويبقى لك الملك والثروة، يقول الإمام علي عليه السلام: «لقد دخل موسى بن عمران ومعه اخوه هارون عليه السلام وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي

---

(١) سورة طه، الآية: ٤٦.

فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزه، فقال فرعون: «ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الذل والفقر، فهلا ألقي عليهما اساورة من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه»[1].

يستفاد من هذا النص أن موسى وهارون لم يكن هدفهما تحويل الملك عن فرعون بحيث يكون الملك لهما، فالمسألة لم تظهر النصوص انها كانت الملك ومن يكون ملكاً، بل مسألة دعوة ورسالة جديدة، ولو أنها كانت مسألة ملك ومال وسلطان لما تقدم موسى بهذا الطرح إلى فرعون أن يبقي له العز والملك، وهذا يكفي للتدليل على أن الأنبياء لا ينظرون إلى المال والسلطة، ولا يبحثون عنهما، وكل ما كان يبحث عنه الأنبياء هو أن يعيش الناس حركة الإسلام والايمان، وأن يرفع الظلم والاستبداد، وان تتحول الثروة والمال من غاية إلى وسيلة، وأن تستثمر في طاعة الله تعالى، هذا هو ما كان يسعى إلى تحقيقه الأنبياء وقد عبر القرآن عن هذه الحقيقة بقوله تعالى: **﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . . .﴾**[2].

فالأنبياء كان همهم رسالياً محضاً، ودورهم منع المترفين من ان يحولوا الأموال والسلطة إلى دين يعبد من دون الله، وقد تجلى مشروع الترف فيما اجاب به فرعون على موسى وهارون حيث انه ركز على الذهب في مقابل الصوف وعلى حالة الغنى التي يعيشها في مقابل الفقر والذل الظاهر على موسى وهارون من ثيابهما، إذ أنه كان يجهل روحية هؤلاء ولا علم له بباطن كل منهما، وكونهما ارادا له العزّ بالتسليم لله تعالى، وأجاب ساخراً

(١) نهج البلاغة الخطبة: ١٩٢.
(٢) سورة الحج، الآية: ٤١.

منهما، فقد كان لا بد من ان يستمرا في الصراع حتى النهاية لكي يدرك حقيقة نفسه وما هو عليه من ضعف أمام قدرة الله تعالى، وهنا نسأل هل ما شرطه موسى وهارون لفرعون ان يبقى له العز والملك فيما لو أسلم، يتضمن الإشارة إلى أن مسألة الدولة لم تكن مطلباً نبوياً، وان الهدف فقط هو الحد من نفوذ الطغيان والاستبداد؟

هل معنى ذلك أن يبقى فرعون ملكاً يحكم بما عنده من قوانين ومبادىء؟ وكيف لنا أن نفهم بقاء العز والملك لفرعون؟

في الإجابة على هذا التساؤل يمكن القول: إن فرعون خاف على ثروته وسلطانه، وان يتحول الناس عنه إلى غيره ومن أن يؤدي ذلك كله إلى القضاء على هيمنته واستبداده، فالنبي موسى ومعه هارون رأوا أن يطمئنوا فرعون إلى ما هم بصدد فعله والمطالبة به، وضمنوا له أن تبقى الثروة والعز الخاص إن اسلم، ولا نفهم من بقاء العز والملك ان تستمر تحكماته واهوائه في حكم الناس، إذ لو كان الأمر كذلك فما يكون معنى رسالة ومشروع النبوة إذا كان الناس سيتركون عرضة لأهواء فرعون وترفه يسومونهم سوء العذاب؟

لا شك أن الهدف النبوي كان تغيير الواقع، وتحكيم معايير واهداف ومبادىء اخرى بديلة لكل ما كان يقوم عليه ملك فرعون من قوانين ومبادىء ومعايير. انها دولة اخرى بديلة لدولة فرعون، وهذا لا يتنافى مع بقاء العز والملك لفرعون إن اسلم، وقرينة إن اسلم دليل على أن الإسلام هو شرط بقاء ذلك كله، لأن القبول به يحتم اخضاع المال والثروة وكل ما بحوزة فرعون لقانون الإسلام واحكامه، وإذا ما اصبحت هذه الثروة شرعية ومستثمرة في سبيل سعادة وعمران المجتمع، فإنها لا تبقى غاية ولا هدفاً يسعى إليه الناس، بل تكون مجرد وسيلة لحفظ المجتمع، وإذا ما تحقق ذلك فإن فرعون لا تبقى له القدرة على التحكم بالحياة الإجتماعية والسياسية

للناس من خلال استغلال الثروة في سبل غير مشروعة بل يتحول إلى إنسان غني تحكمه ضوابط السياسة المالية الجديدة، كما هو شأن الأنظمة المستبدة في عالمنا المعاصر حينما تتحول إلى انظمة ديمقراطية، فالسياسة المالية لا تبقى على حالها، بل تتغير وفقاً للمعادلات والأنظمة والقوانين والأحكام المالية الجديدة، وأبرز مثال على ذلك هو ما كانت عليه السياسة المالية في زمن الشاه الإيراني المخلوع محمد رضا بهلوي، حيث أن المال في عصره كان ملكاً له ولم يكن ملك دولة أو أمة. فجاء النظام الإسلامي وجعل المال ملكاً للدولة والأمة، وفي ضوء ما تقدم يمكن فهم اطروحة موسى وهارون عليهما السلام على فرعون إن اسلم، والحق يقال إن ما كان عليه موسى بعد تحقق مشروعه وما كان عليه محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد إقامة الدولة، وما كان عليه الخميني (قده) بعد إقامة الدولة، هو في الحقيقة ما يكون عليه كل مصلح سياسي واجتماعي لجهة تحويل الثروة من ملك خاص إلى ملك عام بحيث لا يكون هناك استبداد ولا استغلال ولا احتكار، لأن الإسلام يمنع من كل ذلك بل يحرمه ويعاقب عليه...

إن من جملة ما تسعى إليه النبوة في حركتها أن تكون هناك دولة ترعى وتدبر وتنظم شؤون المؤمنين، وإلا استحال النظم وفرط العقد فيما لو بقيت مقاليد الأمور بأيد المترفين، لذا فإن مسألة الدولة محسومة في حركة النبوة، ولا يستفاد من بقاء العز ودوام الملك لفرعون أن لا يكون هناك دولة، أو أن تبقى الدولة والملك شأناً فرعونياً، وما نذهب إليه لا يستتبع القول بأن الدولة واقامتها شرط تقدم النبوة وانتصارها، لأن النبوة تنتصر في جميع أمورها، وخاصة على مستوى الحجة والبرهان لما يذهب إليه الشيخ المفيد من أن النبوة تنتصر فيما تلقيه من حجة، وتقيمه من أدلة، يقول: «إن الله تعالى وعد رسله والمؤمنين في الدنيا والآخرة بالنصر، فانجز وعده في الدنيا، منجز

وعده في الآخرة، وليس النصر الذي وعدهم به في الدنيا هو الدولة الدنيوية والإظفار لهم بخصومهم، والتهليك لهم اياهم بالغلبة والسيف والقهر به وانما هو ضمان لهم بالحجج البينات والبراهين القاهرات، وقد فعل سبحانه ذلك فأيد الأنبياء والرسل والحجج من بعدهم بالآيات المعجزات، واظهرهم على اعدائهم بالحجج البالغات، وخذل اعداءهم بالكشف عما اعتمدوه من الشبهات. . . وكذلك حال المؤمنين بالنصر العاجل»[١]. لقد كانت مشكلة فرعون الأساسية في اعتباره لنفسه الهاً، ولم تكن فيما كان يملكه من سلطة ومال، فكثيرون هم الذين يملكون المال ولكن الإيمان بالله يمنعهم من اعتبار اموالهم وسلطانهم ديناً لهم، ففرعون كان دينه المال والذهب، وكل مَن يعتبر المال ديناً، ويتخذ من هواه الهاً له لا بد أن يصاب بما اصيب به فرعون، وكذلك لا بد من ان تنتصر النبوة إثباتاً لقدرة الله تعالى على قصم ظهر كل ما ينازع الله رداء العظمة والكبرياء.

بين منطق الإيمان ومنطق الترف

شواهد قرآنية

إن القرآن يبين لنا بوضوح أن الصراع بين الأنبياء والمترفين كان ولا يزال صراعاً بين الحق والباطل، بين مشروع لإصلاح الأرض، ومشروع يسعى لافسادها، ولو أن المترفين تخلو عن اطماعهم. وعادوا إلى ذواتهم، واستعملوا اموالهم فيما يصلح الناس، وعبدوا الله حق عبادته لما اضطر الأنبياء إلى مواجهتهم ومنازعتهم، لأنهم إنما فعلوا ذلك رحمة بالناس وتخليصاً لهم من شرور الاستبداد والاستعباد.

والحق يقال لو أن المترفين كانوا على علمٍ بما يملكه الأنبياء من قوة

---

(١) انظر: الشيخ المفيد: اجوبة المسائل العكبرية، بيروت، مجمع البحوث الإسلامية، ط١، ١٩٩٤. ص٨٩.

وعزم وغنى لما تجرأوا على اظهار العداء والرد عليهم، حيث ان فرعون نفسه قد ندم وأسلم حيث لا ينفع الندم والتسليم وكانت عاقبة امره خسراً، وهنا حقيق بنا القول بأن الغنى والمال ليس سبباً في قوة الصراع بين النبوة والمترفين بل قوة الصراع تتجلى بشكل واضح وصريح جداً حينما يقدم اصحاب الأموال والسلطة على الشرك بالله وهو ما عبرت عنه الآيات الكريمة: «وقالوا نحن أكثر اموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين» إذ انه يستفاد من قولهم هذا انهم هم الأغنياء في كل شيء سواء اكانوا في هذه الدار أو في غيرها، كما انهم ينكرون الحاق العذاب بهم لما يعطونه لإنفسهم من قيمة ترفع بهم إلى درجة الالوهية، وهذا هو الشرك بعينه الذي أوصل فرعون إلى الهلاك في الدنيا قبل الآخرة، وهو سيكون نصيب كل من يشرك بالله تعالى في الدنيا والآخرة، وخير دليل على ذلك ما ضربه الله من مثل عن رجلين **﴿جعلنا لأحدهما جنتين من اعناب... تلك الجنتين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً... وكان له ثمر فقال لصاحبه، وهو يحاوره، أنا اكثر منك مالاً وأعز نفراً، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدنَّ خير منها مُنقلباً، قال له صاحبه وهو يحاوره، أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً، لكنّا هو الله ربي لا اشرك بربي احداً، ولولا إذ دخلت جنتّك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً، فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك، ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً، واحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها، وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم اشرك بربي احداً، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً﴾**[1].

هذه الآيات تتحدث في جانب منها عن منطق الفراعنة الذين يحسبون

(١) سورة الكهف، الآيات: ٣٢ ـ ٤٣.

المال والولد أسباباً كافية لتحقيق الخلود في الدنيا، وأن ما هم عليه من ترف هو منتهى كل شيء، كما في قولهم: «ما أظن أن تبيد هذه ابداً، وما اظن الساعة قائمة. . .» ولكن لما احيط بثمره، واصبح الماء غوراً، خرج عن صمته، وعبر عن حقيقة الأمر بقوله: «يا ليتني لم اشرك بربي أحداً»، وهذا هو حال الفراعنة في كل زمان يصدّون عن سبيل الله، وينصبون أنفسهم آلهة للناس كما في قول فرعون: «أنا ربكم الأعلى» ويستخفون بكل القيم والمبادىء، ويدعون إلى حياة اللذة والترف، وينسون أنهم خلقوا من تراب ثم من نطفة، ثم سووا رجالاً، وانهم لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وتكون النتيجة تقليب الكفين والندم على ما ادعوّه لإنفسهم كفراً ورياءً وبهتاناً؛ أضف إلى ذلك حقيقة ما اطلع به الإنسان المؤمن في محاورته للكافر الجائر، حيث اننا نجد المؤمن ينطق بالحقيقة ويعبر عن منطق آخر، فيقول له إن ترني أنا أقل منك مالاً وولاداً، فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك. .»، وما من شك أن ما انتهت إليه المحاورة بين الرجلين من نتائج يحمل على الاعتقاد بأن حسم الصراع تم في الدنيا كما هو الحال بالنسبة إلى موسى وفرعون. ولم يتأخر حساب الكافر إلى يوم القيامة، بدليل أن الفراعنة لم ينجو من عذاب الله، وجعلوا آيات كبرى في الدنيا ليعتبر بهم الناس، وليروا بأم اعينهم أن اموالهم واولادهم لم تغن عنهم شيئاً، فانقلبوا خاسرين إلى جهنم، وانتصر الحق الذي كان يُنظر إلى أهله على أنهم فقراء اذلاء، وهذه هي سنة الله في الذين خلوا ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً.

فالصراع دائماً تحسمه النبوة لصالح الحق والعدالة، وبما أن اكثر الناس لا يعتبرون بما جرى للسابقين فيؤدي بهم ذلك إلى الوقوع مجدداً في شراك المترفين، فينطلقون في الحياة على أساس أن كل شيء يقاس بالمال والولد وغير ذلك مما اعتبره المترفون سبباً كافياً للخلود في الدنيا، ولو أردنا

أن نعرض لحال مجتمعاتنا الاسلامية اليوم في تعاملها مع اصحاب السلطة والمال، ولو اردنا تحكيم الآيات القرآنية في حياتنا لما وجدنا فرقاً كبيراً بين الماضي والحاضر، وقد شاء الله أن يكون المترفون فتنة للذين امنوا واتقوا. ولا يخلو يوماً من أيام حياتنا إلا ويشهد حواراً بين مؤمن لا يشرك بربه أحداً، وكافر يشرك بالله، فلكل منهما امتداداته في الحياة الدينا، وها هي الفرعونية قد عادت إلى حياة الناس متجلية بمنطق الاستعلاء، واساليب الاستخفاف التي تخضع لها الشعوب طوعاً وكرهاً، وبما أن التجربة التاريخية قد افادت حتمية انتصار النبوة على الشرك والطغيان مهما بلغت قوته، فإن ما ينتظر هذه الفرعونية الجديدة هو الهلاك ذاته الذي حل بها في الأزمان السالفة.

هناك سنن وقوانين ثابتة لها علاقة بما يكون عليه الناس في أنفسهم وواقعهم: ذلك ان الفساد في الأرض لا بد أن ينتج عنه حق القول والتدمير للمفسدين، وبمقدار ما يحصل من تغيير في النفس والواقع بمقدار ما يتمكن الإنسان من التحكم بسنن التاريخ، حيث قال تعالى: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾**[١]، وقال تعالى: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً، وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾**[٢]، وهذه الآية كما يقول العلامة مطهري: «تتحدث عن علاقة معينة بين ظلم يسود ويسيطر وبين هلاك تجر الأمة اليه جراً، وتتحدث عن اطراد هذه العلاقة على مر التاريخ، وهي سنة من سنن التاريخ»[٣].

إن الله تعالى لم يترك الناس لظلمهم وجهلهم، وأوحى اليهم ما

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.
(٢) سورة الاسراء، الآية: ١٦ ـ ١٧.
(٣) مرتضى مطهري، المجتمع والتاريخ، بيروت، دار المرتضى، م. س. ص٣٢٩.

يفيدهم في معركة المواجهة مع الظالمين والمشركين، ووعد المؤمنين بالنصر حيث قال تعالى: ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾[1]. ان النصر سيكون حليف المؤمنين حتى ولو كانوا قلة في الحياة الدنيا قبل الآخرة، فإذا تأخر الناس أو تهاونوا في امساك الأمور للسير بها نحو الله تعالى، فإن الله لن يترك الحبل على غاربه وسيتدخل لحسم المعركة لصالح المؤمنين مهما كان الطغيان كبيراً، وما نعيشه اليوم من حضارة تنطق بمنطق الاستعلاء، وتمعن بالفساد، وتعيش خرافة (ما تظن الساعة قائمة)، إن كان يدل على شيء، فإنه يدل على قرب المواجهة من جديد بين موقع النبوة وموقع المترفين. وسيكون النصر حليف النبوة، لأن الحكم على هذه الحضارة الجاهلية الجديدة لن يأتي من خارج التاريخ، وانما هو موجود في داخل التاريخ وتحقق هذا الحكم ينتظر اكتمال عناصره فقط، فإذا اكتملت حل العذاب ونجا المؤمنون كما وعد الله سبحانه وتعالى. . .

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

الله لا يصلح عمل المفسدين

يبين القرآن الكريم أن موسى عليه السلام لما هاله ما رآه من تأثير للطغيان في حياة الناس بسبب ما كان يراه فرعون وهامان وقارون لأنفسهم من حق في استعباد الناس وتحويلهم إلى رعاع ينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كل ريح، ولا يلجأون إلى ركن وثيق، كما هو وصف أمير المؤمنين عليه السلام لهذا النوع من الناس، ولما رأى موسى واخوه هارون أن الناس قد اخذوا بخرافات فرعون وجنوده على أنها حقائق لا يرقى الشك إليها، دفعت بهما العزيمة ونخوة الايمان والاخلاص إلى أن يثيروا في الواقع من المبادىء ما يحمل الناس على مراجعة أوضاعهم، لعلهم يدركون خطورة ما انتهت إليه عقولهم وقلوبهم في ظل اطروحة الشرك والخلود إلى الأرض بكل ما يعنيه ذلك من سلبيات على مستوى النفس والواقع معاً.

فما كان على فرعون إلا أن يحشد جنوده واعوانه في المدائن لإحكام الطوق على كل ما جاء به النبي موسى وهارون، وهو كان يملك من الوسائل والقدرات ما يمكنه من ذلك في ظل عجز مادي ظاهر عند الأنبياء، ولما التقى الجمعان كانت حالة الناس وكفتهم مائلة حتماً إلى قوة فرعون، .ولم

يكن الناس على بصيرة مما هو عليه موسى من قوة الايمان والصبر والعزم على تحقيق هدفه، واظهار ما هو خفي إلى العلن أمام الناس من حالة فرعون وضعفه عن تثبيت نفسه في ظل ما لديه من وسائل وتمويهات وخدع سحرية هيمنت على عقول الناس وقلوبهم، ودفعت بهم إلى القبول باطروحة فرعون الشيطانية القائمة على كنوز الذهب والفضة وغير ذلك مما كان ولا يزال سبباً للعلو في الأرض والطغيان فيها.

إن أحداً من الباحثين النفسيين أو الإجتماعيين لا يمكنه القول ان النبي موسى انطلق في اطروحته الايمانية وهو على اطمئنان تام بأن الأمور ستنقلب رأساً على عقب بين ليلة وضحاها، أو أن موسى كان على راحة نفسية تامة بأن الأمر سيكون عليه في غاية السهولة، لأنه كان يدرك تماماً أن المعيار في الحاق الهزيمة بالمترفين هو مدى استجابة الناس لقبول الدعوة الايمانية، فهو لم يستثنِ الواقع وما فيه من أحداث وقضايا واطروحات غالباً ما تمنع الناس من قبول أي تغيير جذري فيه سواء في حياته الخاصة أو العامة. وهذا ما عبر عنه الناس في مواجهة الاطروحة الإلهية الجديدة بقولهم: ﴿**إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**﴾[1]. وفي هذا السياق يمكن أن نشير إلى ما قيل لموسى لما جاء الحق من عند الله واستكبر عنه فرعون وملئه، قالوا له: ﴿**أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه أباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض، وما نحن لكما بمؤمنين**﴾[2].

لا شك أن موسى كان يعيش الأضطراب قبل واثناء دعوته، وكذلك كان يجهل قدراته، حيث انه عبر عن هواجسه لما جاءه الأمر الإلهي بوجوب الذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الإسلام، وقد اجابه الله بما يطمئنه إلى ان

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ٧٨.

فرعون وجماعته سيكون مألهم وكيدهم إلى تباب وخسران، فما كان على موسى واخيه إلا أن يقوما بما أُمرا به وان يتركا النتائج على الله سبحانه وتعالى، فهو يسمع ويرى، **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾**[1]. لقد اطمئن موسى إلى دوره، وتحقق مما هو مطلوب منه القيام به في مواجهة طغيان فرعون، ولم يكن له حق التدخل فيما وراء ذلك اطلاقاً، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وكذلك لم يكن له أن يسأل عن مدى تجاوب الناس معه، إذ انه في حدود ما كلف به يستطيع أن يلقي الحجة، وذلك بعد أن زوده الله بما يمكنه من إثارة الناس وهز مشاعرهم وعقولهم، والحق يقال: إن الذي أبطل سحرهم هو الله تعالى، وما كان على موسى إلا أن يقول ما ارشده الله إليه قال تعالى: **﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما انتم ملقون، فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر، إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾**[2].

هذه هي القاعدة، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، وهو يبطل اعمالهم بطرق شتى لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، وقوله مطلق في الزمن، ويرشد إلى ان الله تعالى هو بالمرصاد للمفسدين.

لكنه يبقى على الناس المؤمنين بالله أن يقوموا بدورهم وعلى قدر استطاعتهم سواء اكانوا قلة أو كثرة، لأن السنة التاريخية والقانون الإلهي يقضي بأن يكون الناس في سعي حثيث من أجل احقاق الحق، فإذا قام المؤمنون بما كلفهم الله به، وكان لهم النصر أو الشهادة، فذلك ليس لهم أن يسألوا عنه باعتبار ان الله تعالى هو الذي يرى المصلحة ويرسم النتائج النهائية بحسب ما وضع من قوانين وسنن، وينظر ما يعمل الناس من حق وباطل.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٨٠.

لا شكَّ أن النبي موسى عليه السلام ومن آمن معه من قومه كانوا على خوف من فرعون، وهذا ما تقتضيه طبيعة الإنسان، أن يحزن ويفرح ويغضب ويخاف إلا أن الذي يمنع الخوف من أن يصل إلى درجة الهزيمة هو الإيمان بالله تعالى، حيث قال تعالى: **﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا﴾**[1].

إذن المطلوب من الناس المؤمنين اتباع الأنبياء والصالحين أن يقوموا بما كلفوا به، وأن يتركوا النتائج على الله تعالى، فهو أعلم بما يصلح الناس، فهو الذي أمر مريم عليها السلام أن تهز بجذع النخلة فتساقط عليها رطباً جنياً، قال تعالى: **﴿وهزّى إليك بجذع النخلة تساقط عليكِ رطباً جنيّا﴾**[2]، حيث انه جعل الهز بالجذع سبباً لتساقط الرطب الجني، وقد كان بمقدوره أن يفعل ذلك دون أمرها بهز جذع النخلة، فالسيدة مريم عليها السلام قامت بما أمرت به، وتركت الباقي على الله سبحانه وتعالى، فإذا سقط الرطب أم لم يسقط فذلك أمر آخر المهم أن يقوم الإنسان بدوره على حسب استطاعته سواء اكان النبي موجوداً أم لم يكن، ولهذا نجد كلام الله عن الرجلين في تحاورهما عن جنات النعيم، وعن كفر أحدهما وايمان الأخر قد جاء معبراً عن منطق أهل الكفر، وأهل الايمان، ولم يكن خاصاً بالأنبياء والمترفين، كما في كلامه عن موسى وفرعون، مما يدل على أن حوار الإنسان المؤمن في كل زمان يجب أن يكون منطلقاً من الاسس التي وضعها الأنبياء، ومن المبادىء والقوانين الإلهية التي عملوا من اجل التعبير عنها عملياً، ومن هنا فإن على انسان اليوم حيث لا وجود لنبي بين ظهراني الأمة أن يعمل وفق الشرائع والمبادىء التي بلغها الأنبياء إلى أممهم، وليس له أن ينتظر النبي أو الإمام

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٣.

(٢) سورة مريم، الآية: ٢٥.

كيما يعبر عن هذه الشرائع والقوانين، قال تعالى: **﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿وألو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماءً غدقاً﴾**[2].

إن النبي أياً كان هذا النبي لم يكن لينتظر المعجزة كي يقوم بدوره، باعتبار ان المعجزة شأن إلهي، وليس للنبي أو لأي مصلح يحمل اطروحة العدل والشهادة ان يشترطها للقيام بدوره وكذلك ليس له أن يسلم بالأمر الواقع فيما لو كان على ضعف مادي يعجزه عن القيام بهذه المهمة، إذ ان المطلوب منه أن يسعى ويجاهد لدفع الظلم وتحقيق العدل، وهذه سنة يعلمنا إياها القرآن كي لا نستغرق في أوهام الضعف وأحلام القوة، فإذا كانت العزيمة موجودة، وإرادة الإيمان قوية، فإن الله تعالى ينصر المؤمنين ويمدهم بما هم أهل له كما فعل مع موسى عليه السلام ومع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في بدر وفي غيرها من المعارك التي تدخلت فيها الملائكة لتحقيق النصر على الأعداء ولكن ذلك كله يبقى مشروطاً بالصبر والتقوى والايمان، بدليل قوله تعالى: **﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾**[3]، فالامداد الغيبي، بتحقق المعجزات، كما قلنا يبقى مشروطاً بسنة التاريخ، ومن هنا يتضح لنا، كما يقول العلامة مطهري: «إن الطابع الرباني الذي يسبغه القرآن على سنن التاريخ ليس بديلاً عن التفسير الموضوعي، وانما هو ربط هذا التفسير الموضوعي بالله سبحانه وتعالى، من أجل اتمام اتجاه الإسلام نحو التوحيد بين العلم والايمان في تربية الإنسان المسلم»[4].

إن الناس ونتيجة للاستخفاف بهم من قبل الفراغنة والطواغيت لم

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الجنّ، الآية: ١٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

(٤) مرتضى مطهري، المجتمع والتاريخ. م. س. ص٣٣٨.

يكونوا ولن يكونوا في ظل الترف والاستخفاف بهم على علم ودراية بحقيقة أوضاعهم الدينية والسياسية والاجتماعية، وفرعون نفسه كان تعبيراً عن هؤلاء الناس، وهم أيضاً كانوا تعبيراً عنه، وذلك انطلاقاً مما تفيده القاعدة الاجتماعية المشهورة «كيفما تكونوا يولى عليكم». وبما أن سنة التاريخ المعبر عنها بقوله تعالى: **﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾** كانت مجهولة وليس هناك في المجتمع من يقوم بها ويعبر عنها، فإن وقوع المعجزة لنصرة الحق أصبح أمراً حتمياً، بدليل أن شكوى موسى لله عن حال الناس سمعت واجيب عنها بمعجزات كثيرة ساهمت إلى حد كبير في احياء سنة التاريخ هذه، كون الأمر كان يدور بين امرين بين أن يترك موسى عليه السلام وشأنه في مواجهة المترفين، وبين أن يتدخل الله لنصرته في ظل غياب الناس عن مسرح الأحداث وجهلهم بهذه السنة، لكن الأمر اليوم مختلف تماماً عن الماضي، فالناس أكثرهم يعرف بهذه السنة، ويدرك أن احياءها من شأنه ان يمنع الأعداء والمترفين من ان يستبدوا بالناس، فليس هناك ثمة حاجة إلى معجزة الهية كي تنقذ الناس من عربدة الفراعنة والصهاينة لأن التجربة التاريخية والصراع المرير بين موقع النبوة وموقع المترفين قد افاد كثيراً، وأصبح من اللازم والضروري جداً أن يقوم الناس بمسؤولياتهم في تطبيق هذه السنة، بلى ان تصبروا وتتقوا في حياتنا الخاصة والعامة، وترجمتها في مواجهة الأحداث التي تعصف بنا، فإذا أدى الناس واجبهم، وقاموا بما كلفوا به وعجزوا عن تحقيق النصر، فالله حينئذ لن يخلف وعده وسيتدخل لنصرتهم، اما ان يطلبوا النصر عن طريق المعجزة، وعن طريق القفز فوق سنة التاريخ المدركة عندهم، فذلك هذيان ليس بعده هذيان، وقد تكون نتائج ذلك كله انزال العذاب الدنيوي والاخروي عليهم بحيث يفوق ما لحق الذين اترفوا من العذاب... فالدين قد تم، والنعمة قد اكملت، والاسلام عقيدة وشريعة ونظام بات معلوماً لدى الجميع، ولكنه غير معاش في حياتهم الخاصة

والعامة، وهذا كله يحتم ضرورة أن يعود المسلمون إلى دينهم وسنة نبيهم كيما يتمكنوا من اقامة العدل وتطبيق الشريعة على النحو الذي ينفي عنهم كل ما يمكن أن يلحق بهم من استخفاف واستهزاء من عدوهم. فإذا لم تخضع حياتهم لهذه السنة ولم ينطلقوا منها في مواجهة الأحداث، فإن هناك سنناً اخرى ستحكم عليهم كالتي حكمت على فرعون وغيره من الطواغيت فيما مضى من أزمنة.

إن الإمداد الإلهي لتحقيق النصر في الصراع بين المصلحين والمفسدين، مشروط بالصبر والتقوى، فإذا لم يصبر الناس ولم يتقوا فإنهم يكونون قد أخلوا بسنة التاريخ وبالشروط الموضوعية التي لا بدَّ من توفرها لتحقيق الإنتصار، ولهذا نرى الله سبحانه وتعالى يقدم الصبر والتقوى من الناس على عونه لهم وإمدادهم بالملائكة، حيث قال تعالى: ﴿**بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوّمين**﴾[1].

أما أن يتجاهل الناس الصبر والتقوى، ويعيشون فنون الترف في حياتهم الخاصة والعامة، ويطلبون المدّ الإلهي لهم، فهذا ما لا يتحقق ولا سبيل إليه لما شرطه الله تعالى ووضعه من قوانين وسنن لا تنفصل عن أعمال الإنسان وأحواله النفسية، فإذا أراد الناس النصر فإنه يكون لهم شرط أن يصبروا ويتقوا، وقد قال تعالى: ﴿**وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

الدنيا والآخرة في القرآن الكريم

إن التدبر في آيات القرآن المبينة لحال الدنيا والآخرة ولمصير كل منهما من شأنه أن يحمل الإنسان على التفكير ملياً فيما ينبغي أن يكون عليه في تعامله مع هذه الدار الذي سميت بالدنيا، لأن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسائر النصوص الإسلامية كلها تجمع على أن التفرغ لهذا الدار والسعي في طلبها دونما تدبّر وتأمّل فيما خلقت لأجله هذه الدنيا، هو بمثابة العمى عن الحقائق التي اراد الله للإنسان أن يعيشها، ومن جملة هذه الحقائق أن يعلم الإنسان أن هذه الدار الفانية ما هي إلا دار لهو ولعب، كما قال سبحانه وتعالى: **﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾**[1].

وقال تعالى؛ **﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد﴾**[2].

وكذلك قوله تعالى: **﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تُردن الحياة**

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣.

الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الأخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾[١] .

هذه الآيات يؤدي التدبر فيها إلى معرفة الحقيقة التالية، وهي أن كل سعي في طلب الدنيا يحقق من البعد عن الآخرة بمقدار ما يحقق من القرب من الدنيا، لأنهما شيئان متقابلان ولا يمكن الجمع بينهما، وقد تجلت قيمة الأخرة فيما بينه الله تعالى من ان طلب الدنيا بما هي لعب ولهو يجعل الإنسان بعيداً عن الله ورسوله والدار الأخرة، فلا يكون السعي في سبيل الفوز بها سعياً في سبيل الله، ومن يرد الله ورسوله والآخرة فعليه أن يكون في هذه الدنيا دون أن يكون من أهلها، لأن ارادة الأخرة تستدعي عدم ارادة أي شيء أخر معها لا يؤدي به اليها، وهذه الدنيا المذمومة في القرآن والأحاديث النبوية لا يمكن أن تطلب مع الله ورسوله والدار الأخرة، بدليل أن الإنسان لا يمكنه أن يكون مع الله والشيطان معاً، ولا مع الرسول والطاغوت معاً، فهو إما أن يكون مع الله، وإما أن يكون مع الشيطان، إما أن يكون مع العدل، وإما أن يكون مع الظلم. والمتقون هم الذين يعيشون هذه الدنيا من دون أن يكون لهم أي تعلق بها، لأن الله لم يجعل للإنسان من قلبين في جوفه، ومن شأن التعلق بالدنيا أن يمنع من التعلق بالآخرة، والذي يصحح مسيرة الإنسان ومطالبه ومساعيه في هذه الدنيا هو معرفة حقيقة هذه الدنيا والهدف من خلقها، باعتبار أنها لم تخلق لأجل أن تكون بديلاً للدار الأخرة، فإذا ما جعلها الإنسان بديلاً لها، فإنه يكون بذلك قد جعل فيها بديلاً لله ورسوله. من هنا كان لا بد من طلب الأخرة على أساس نفي الدنيا لاستحالة أن يطلبا معاً، حيث قال تعالى: **﴿تريدون عرض الحياة الدنيا والله يريد الآخرة﴾**[٢] .

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣.

ويقول الإمام علي عليه السلام «انما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره ويعلم ان الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى اليها شاخص، والبصير منها متزود والأعمى لها متزود»[1].

ليس معنى أن نريد الله ورسوله والدار الأخرة، أن لا نعيش هذه الدنيا، أو أن نزهد فيها، وكذلك ليس معنى ارادة الأخرة أن يستسلم الإنسان لشهواته ورغباته بحيث يكون له كل ما تطمح اليه نفسه من محرمات، لأن سيطرة الرغبات والشهوات على حياة الإنسان، على عقله وروحه وسلوكه تدفع به إلى أن يرى كل شيء في هذه الحياة الدنيا، فتحمله على فعل كل شيء واتباع جميع الوسائل سواء اكانت مشروعة أو غير مشروعة لتحقيق اهداف مادية محضة لا تتجاوز حدود الشهوة واللذة الذي قيل فيها أنها السعادة في ذاتها! وهذا هو جوهر الفلسفات المادية التي تربط تحصيل السعادة بما يتم تحقيقه من مكاسب مادية! إن الحياة الدنيا إذا ما احسن الإنسان استثمارها في طريق الآخرة، تضمن للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة معاً، إذ ان طبيعة هذه الدنيا وحقيقة خلقها لم تكن لأجل أن تكون عوضاً مما له عند الله، أو لتحول دون وصول الإنسان إلى كماله وسعادته في الإتصال بالعالم الأعلى ولقاء الله تعالى، كونه لا يعقل، بل من المحال أن يكون الله قد طلب من الإنسان العمل لأخرته وسلوك طريق سعادته، وحقيقة خلق الدنيا تقتضي عجز الإنسان عن سلوك هذا السبيل. وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «بالموت تختم الدنيا، وبالدنيا تحرز الأخرة»[2]، مما يدل على أن خلق الدنيا كان ولا يزال شرطاً للوصول إلى الحياة الأخرة،

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم ١٣٣.

(٢) م.ع، الخطبة ١٥٦.

وذلك انما يتم من خلال صناعة كل انسان لحياته الخاصة بما يؤديه من واجبات وتكاليف واعمال تشكل مادة هذه الحياة التي على ضوئها يكون الحساب والعقاب وقد قيل ان الجنة والنار متشكلتان من أعمال الإنسان وليس من أي شيء أخر، وهذا لا يمنع أن تكون الحياة الدنيا صورة لتلك الأعمال بحيث ينال الإنسان نصيبه من العذاب أو الجزاء قبل الموت بمعنى أخر، نقول: إن الدنيا تتواصل مع الآخرة بأعمال الإنسان[1]، وهو كلما كانت اعماله منسجمة مع الفطرة الإنسانية، ومع ما شرعه الله تعالى، كلما كانت آخرته وعلاقاته مع الله تعالى ورسوله متجلية فيما يقوم به من أعمال ويؤديه من مسؤوليات وعبادات وسياسات. وإن مما يدل على حقيقة هذا التواصل بين الدنيا والآخرة ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن رجلاً قال له: «والله انا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها فقال له: تحب أن تصنع بها ماذا؟

قال أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها وأتصدق بها واحج واعتمر فقال له الإمام: ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة»[2]

نرى ان كلام الإمام الصادق عليه السلام يتضمن معنى أن يكون الإنسان في الدنيا وليس فيها، مع أهلها وليس منهم، ويرشد إلى أن حقيقة الهدف من وراء خلق الدنيا وامتحان الإنسان فيها، هو تمكين الإنسان من صناعة نفسه على النحو الذي يجعله مستحقاً لدار أعلى وأنبل من هذه الدار، وإذا كان للإنسان أن يعيش هذه الدنيا فليس له أن يعيشها انطلاقاً مما تفرضه عليه وتدعو إليه من مغريات وشهوات ورغبات، بل تحقيق العيش فيها على

---

(١) انظر: فرح موسى، التحقق الوجودي في الإسلام بين البرهان والعرفان، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢، ط٢، ١٧٧.

(٢) انظر: محمد باقر الصدر، إقتصادنا، م.س، ص٦٧٠.

أساس انها مصنوعة ومسخرة له يكيّف حياته فيها كيفما يشاء، لا أن تكون الدنيا هي المكيفّة له وسائرة به باتجاه يناقض نظرته، وما تبينه الآية الخاصة بزوجات النبي، الداعية إياهن إلى ارادة الله ورسوله والدار الأخرة تهدف إلى بيان معنى أن يكون الإنسان، سواء اكان رجلاً أو امرأة ساعياً إلى ارادة الدنيا ليجعل منها هدفاً وأصلاً دون ما التفات إلى ما وراءها.

يقول العلامة الطباطبائي: «وقد ردد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا وزينتها وبين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة، وهذا الترديد يدل أولاً: ان الجمع بين سعة العيش وصفائها بالتمتع من الحياة وزينتها وزوجية النبي صلى الله عليه وآله وسلم والعيشة في بيته مما لا يجتمعان.

وثانياً: ان كلاً من طرفي الترديد مقيد بما يقابل الأخر، والمراد بارادة الحياة الدنيا وزينتها جعلها هي الأصل سواء أريدت الآخرة أم لم ترد، والمراد بإرادة الحياة الأخرة جعلها هي الأصل في تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياة الدنيا ونيلت الزينة وصفاء العيش أم لم يكن شيء من ذلك»[١]. والحق انه كلما كانت الدنيا مطلوبة لذاتها، كلما كانت متقابلة مع الآخرة لأن المعول عليه في إرادة الآخرة أن تكون هذه هدفاً وأصلاً فيما يسعى إليه الإنسان ويطلبه، ولذا قال الإمام علي عليه السلام: «فما يصنع بالدنيا مَن خلق للأخرة وما يصنع بالمال مَن عمَّا قليلٍ يسلبه»[٢].

أما إذا كانت الحياة الدنيا هي الأصل والهدف ويريد الإنسان أن يعيشها بكل مفاتنها وزخارفها ظناً منه بأن ذلك يؤدي به إلى الآخرة، فإنه لن ينتهي إليها باعتبار أنه بمجرد أن يعتبر الإنسان الدنيا أصلاً، تنتفي امكانية التلاقي بين الدنيا والآخرة، ويصبح الإنسان خادعاً لنفسه فيما يطلبه على أساس

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م.س، ج١٦ ص٣١١.
(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ١٥٧.

ظنونه وبوحي منها، وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها»[1].

فإما أن تكون الحياة الدنيا هي الأصل، وإما أن تكون الآخرة هي الأصل، ومعنى أن تكون الأخرة هي الأصل لا يمنع أن تعاش الدنيا وفق ما هو مطلوب شرعاً وعقلاً، لأن معنى العبادة والإلتزام بما شرعه الله أن تؤخذ الدنيا وسيلة لدار اخرى ضامنة لسعادة الإنسان وكرامته. وقد تبين لنا في أبحاث سابقة أن ايتاء المال والزينة والأنعام على عباد الله لا ينافي طلب الآخرة، والإنسان هو الذي يخطيء في تقدير ما يضمن له سعادته ويحقق له اهدافه، حيث أنه بإمكان كل انسان أن يتمتع في هذه الدار بالنعم الإلهية، كما قال تعالى: ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا...**﴾ شرط أن تكون هذه الزينة في الأموال والأولاد مؤدية إلى الغاية المرجوة لقوله تعالى: ﴿**والباقيات الصالحات خير وأبقى**﴾، وإلا تصبح الزينة عبئاً على من يجعل منها هدفاً وغاية نهائية وهذا ما ينطوي عليه قوله تعالى: ﴿**وابتغِ فيما أتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله إليك**﴾. إن تطبيق هذه الآية في الحياة الدنيا، يمكن اعتباره طلباً للأخرة في عين كونه طلباً للحياة الدنيا. والعاقبة للتقوى.

---

(١) م. ع، قصار الحكم ١٠٣.

الفصل الثالث

الترف الديني والسياسي

تمهيد

١ ـ الترف الديني عمدة الإستبداد السياسي .

٢ ـ تأملات في تاريخ الترف الديني .

٣ ـ الترف الديني والسياسي في صور ومشاهد تاريخية .

٤ ـ بين المستبد الجائر والمترف الديني .

٥ ـ الأمة بخير ولكنها مترفة .

٦ ـ روح اجتماعية واحدة للمترفين .

تمهيد

ما من كتاب نقرأه إلا ونجده متضمناً لأبحاث عن الاستبداد وآثاره السلبية في المجتمعات والدول، وعمّا آلت اليه أوضاع الناس في ظل سلطة الحكم المطلق التي لا تزال قائمة في بلادنا العربية والإسلامية على الرغم من الحديث عن الديمقراطية والتقليد للغرب فيما ابتكره من أساليب ووسائل لممارسة السلطة وحماية المواطن من الاستبداد وإشراكه في عملية الحكم وغير ذلك مما تتشدق به وسائل الاعلام ومؤسسات الحكم التابعة لهذا القطب الدولي أو ذاك.

لكن أحداً من الباحثين لم يطرق باب البحث الجدي في هذا الموضوع، لأن أكثر الباحثين ـ إن لم يكن معظمهم ـ محكومون لإطار سياسي معين، وخاضعون لقيود تمنعهم في كثير من الأحيان من مواصلة البحث حتى نهاياته، بحيث يتم الكشف عن الأسباب التي تمنع الإنسان من ممارسة حقه في التعبير عن رأيه وفي الإنتماء الى ما يرى أنه يحقق له الأمن والسلامة على مستوى الدين والدنيا.

إن ما جاءت به النبوة حتم انقلاب الأوضاع لمصلحة الاسلام عقيدةً

وشريعةً ونظام حكم، وما حصل من انقلابات في تاريخ المسلمين كان سبباً في بناء صروح ترفٍ جديدة وعودة تعاليم جاهلية سبق للإسلام أن أماتها بما جاء به من تعاليم وقوانين وأحكام، ولو أن النبوة استمرت بكل آثارها وتدبيراتها وتعبيراتها ودلالاتها لما استطاع المترفون أن ينطلقوا مجدداً في سياسة الإنقلاب على الأعقاب، وقوله تعالى: ﴿**أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**. . .﴾ هو دليل على ما استحالت إليه أحوال الأمة بعد أن أخفقت في تحقيق التواصل مع بيِّنات الله وكلماته الناطقة التي جاء بها الأنبياء والأوصياء لأممهم، مما جعل الإنقلاب على الأعقاب محققاً سواء على مستوى المعتقدات والمفاهيم، أو على مستوى السياسات وفنون التدبيرات الواقعية والعملانية. إنها حقيقة يجب أن نعترف بها، وهي قابلة لأن تؤوّل للجمهور في ضوء ما انتهت اليه الأمة من موت وخسارات بدءاً من خسارة موقعها القيادي وانتهاءاً بحالتها العلمية والثقافية والتربوية والإقتصادية التي أصبحت متخلفة وتابعة، كما أن من شأن الإفصاح عن هذه الحقيقة للناس أن يساهم في تحديد الطرف الذي تقع عليه مسؤولية إلحاق الأمة بالمترفين بعد أن حررتها النبوة من استخفافهم واسترقاقهم، وإذا كنا نعتبر الترف الديني عمدةً وأساساً للإستبداد السياسي في تاريخ البشرية، فذلك لأننا نعتبر السياسة المستبدة كانت ولا تزال وليدة ترف أحياه التخاذل والتهاون عن القيام بأعباء ومسؤوليات الرسالات السماوية، وبكل الواجبات الدينية والسياسية التي من شأن القيام بها استمرار حيوية وفاعلية الدين في مواجهة المترفين الذين تربصوا بالرسول والرسالة شراً منذ اليوم الأول لبعثة وحركة النبوة في الواقع.

إن ما جاءت به النبوة هو الكمال والتمام على مستوى النظرية، ولو أن الناس ومن تصدى لرياستهم وتدبيرهم ووعظهم فهموا عن الله وعقلوا عنه

لكان لهم الكمال والتمام في حياتهم العملية الذي يؤدي العقل عن الله تعالى حتماً إلى أن تكون تطبيقاتهم كلها حاملةً لخصائص النظرية الإلهية التي جاء بها الأنبياء، ولكنهم تخلوا عن واجباتهم وركنوا الى حياة الدعة وتركوا الأنفس عرضةً لحياة الترف وفي خدمة المترفين ما أدى إلى ولادة ترف ديني وسياسي متفاعل عمدته الإنقلاب على الأعقاب، وهدفه إحياء البدع وإماتة السنن! نعم كانت النتيجة استبداداً سياسياً وترفاً دينياً ينمو ويتطور ويفتي ويحكم على ضوء مصلحة الحاكم وما يلحق به من مصالح خاصة للفرق والمذاهب التي تعددت في تاريخ الإنسانية بمقدار ما أفسدت حتى اضمحل أكثرها في سوق الترف الديني والسياسي.

لسنا نحمّل الدين مسؤولية الإنقلاب وإنما نحمّل الأمة ومن تصدّى لقيادة سفينتها مسؤولية التراجع عن حمل الأمانة التي ارتفع معها الإنسان الى مقام العزة والكرامة، واستوعب بفضلها معنى أن يكون له الكمال والخلود، ومعنى أن يكون له كينونة وصيرورة ووجود. إننا ننظر الى الإستبداد الديني والسياسي من زاوية أن النبوة الخاتمة حققت الواقع وأخرجته من الظلمة الى النور، وكان ينبغي على من أعد نفسه للقيام بهذه المهمة النبوية بعد ارتفاع النبوة أن يتحمل مسؤولية الإنطلاق بالأمة نحو أهدافها المقدسة، وأن يحفظ ما حققته من مكاسب وإنجازات على مستوى النظرية والتطبيق معاً، وإذا كان التاريخ قد حدّثنا عن صحابة أجلّاء استطاعوا أن يحفظوا الكثير مما كان من النبوة، فإن ذلك لم يدم طويلاً، حيث جاء الملك العضوض بأنيابه الحادة ليفترس كل شيء، فأعاد إلى الذاكرة منطق وفعل الفرعونية، وقال: «أليس لي ملك العرب والعجم والأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون...». إنه منطق الترف والفرعنة الذي أطلَّ من جديد، ولكن هذه المرة تحت شعار الدين، وسلطان الله في الأرض على مسمعٍ ومرأى من أمةٍ مات في حياتها

مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!؟

هذا ما أردنا بيانه في هذا الفصل من هذا الكتاب، أن الترف الديني هو عمدة الاستبداد السياسي من حيث كونه ترفاً اتخذ من الدين شعاراً ومن النبوة غطاءً ليقول: «إن الله أراد لي الملك وأنتم له كارهون، وقد جالدتكم بسيفي هذا مجالدة»، ولأجل ممارسة أبشع أنواع وأساليب الاستبداد والاستخفاف في أمة تهاونت بأمر نفسها قبل أن تتهاون بأمر دينها. . .

لذا فإن استحضار أكثر من صورة ومشهد تاريخي، جدير بأن يكشف لنا عن جملة من الحقائق التي على أساسها يمكن بلورة مواقف جديدة تتوافق مع موقف الدين من الترف الخفي والظاهري، لأن اجترار التاريخ والأحداث والتجارب دون اعتبار بها يكاد يتحول الى ترف معرفي وفكري وتاريخي يساهم في تشويه الحقيقة، ويسدل ستاراً من الغموض والجهل على كل المعطيات والوقائع التي تفيدنا في الكشف عن الأسس والقواعد التي ارتكز اليها الاستبداد الديني والسياسي في تاريخ الإنسانية، باعتبار أن النبوة الخاتمة لم تغفل شيئاً وبيّنت كل شيء وأوضحت أن حب الدنيا وكراهية الموت سيكونان سبباً في تخلف الأمة وتداعي الأمم عليها!

إنها فرعنة خفية جديدة تستثمر الدين والسياسة والناس في مشروعها لتنتج ترفاً في الدين والسياسة، وفساداً في العباد والبلاد! ومن هنا نقول: إن أول من يتحمل مسؤولية رأب الصدع وقطع دابر الترف هم الفقهاء لما يمثلونه من امتداد ووراثة للنبوة الخاتمة، فإذا ما تحوّل النص والتاريخ مع الفقهاء الى مجرد مادة تستكشف الحدث دون الإحاطة بظروفه وأسبابه ونتائجه وانعكاساته وكل ما تسبب به في حياة الناس من شرور وخيرات، فما يكون معنى الفقه فيما لو تجرّد والتمس العلياء والكبرياء فاسحاً في المجال أمام حياة الترف والمترفين كي يمعنوا في الأرض فساداً، وكما يقول ابن

رُشد: «فكم من فقيهٍ كان الفقه سبباً لقلة تورعه وخوضه في الدنيا، بل أكثر الفقهاء كذلك نجدهم وصناعتهم العملية إنما تقتضي بالذات الفضيلة العملية!»[1].

(1) ابن رشد، فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال، بيروت، دار المشرق، ط١، ١٩٨٦، ص٣٤.

الترف الديني عمدة الإستبداد السياسي

لا شك أن الفرعونية القديمة كانت واضحة المعالم والأهداف من حيث المفاهيم والاعتقادات والمشروع السياسي ولم تكن ـ كما بينت الكتب المقدسة ـ منكرة لما تفعل وتدعي أنه الحق والصواب والصلاح سواء لجهة ادعاء الإلوهية، ومنازعة الله في ملكه وسلطانه، أو لجهة القمع والاستخفاف بالناس والإفساد في الأرض، وقد تجلى هذا الإدعاء فيما زعمته من اعتقاد سليم، واصلاح في الأرض في مواجهة موسى وهارون وسائر أنبياء الله ورسله، حيث قال تعالى عما ادعاه فرعون من إصلاح في مواجهة النبي موسى عليه السلام: **﴿إني أخاف أن يبدل دينكم ويظهر في الأرض الفساد﴾**[1].

إذن الفرعونية في جميع مظاهرها العبادية والسياسية لم تكن خجولة فيما تدّعيه لنفسها، وتعبر به عن مشروعها من وسائل وأساليب، فكل شيء بالنسبة لها كان محسوماً على مستوى الأرض والسماء وما بينهما، فهي الإله والمشرّع والحاكم والمالك لما يملك الناس وليس لهم من الأمر شيئاً إلا أن يخضعوا للسلطان الأكبر فرعون وملئه باعتباره ملك مصر والأنهار تجري

(١) سورة غافر، الآية ٢٦.

من تحته كما بين الله سبحانه وتعالى. . . !؟

وكيف كان، فقد جاءت النبوة لهداية المترفين، وتحرير الناس من أسر الاستعباد الفرعوني الذي فرق الناس وجعلهم شيعاً. . . وكان ما كان مما حققته النبوة من انجازات على مستوى تصحيح المفاهيم، وتنوير ما أظلم من أفكار واعتقادات وسياسات كان الجهل بها أو تحريفها سبباً من الأسباب التي مكنت فرعون من ادعاء ما ليس فيه، وامتطاء ما ليس له. . .

إن ما حققته النبوة وانتهت اليه في صراعها الطويل والتاريخي مع الفراعنة المترفين، أدى فيما أدى اليه الى إنهاء عهد الفرعونية الظاهرية والعلنية، لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع الديني والسياسي بين مترفين جدد رأوا أن يتخذوا من الدين الجديد شعاراً ودثاراً لتسويغ ما يدّعونه لأنفسهم من حق في ملك الأرض والسماء، وبين أنصار النبوة الذين أرادوا حفظ ما كان منها في الدين والسياسة والأخلاق وسائر ما تم لهم التعرف عليه من خلالها. . .

لقد استمرت عقلية الترف حية وفاعلة وحاكمة عند الكثيرين ممن ادّعوا الإيمان بالنبوة رغم كل ما ألحقته هذه بالمترفين من هزائم. . . ولهذا نرى أنه في كل عصر يأتي مَن يبرر الترف الديني والسياسي إما بادعاء النبوة، وإما باستغلالها واستثمارها إلى أقصى الحدود في مشروعه السياسي[١]! وهنا تبدو لنا مفارقة عجيبة جديرة بالاهتمام وهي ان النبوة دخلت ساحة

---

(١) نلاحظ انه في تاريخ ما بعد النبوة اقتصر عمل المترفين على استغلال مظاهر الدين والعبادة، لأن انتصار النبوة في التاريخ حتّم هذا الخوف الدائم عندهم من أن يدّعوا ما سبق لأسلافهم أن ادّعوه من الالوهية والملوكية وسبب هذا الخوف يعود إلى قوة حضور النبوة وامتدادها في القلوب والعقول، مما اضطر المترفين إلى أن يسلكوا سبيل الفرعونية الخفية التي اتخذت أسماء عدة من قبيل الثيوقراطية والسلطة المطلقة وسلطان الله في الأرض والملك الأكبر وغير ذلك من مسميات.

الصراع لأجل القضاء على المترفين، وما كانوا يشيعونه بين الناس من آراء ومعتقدات بحيث يكون الدين السماوي هو البديل لكل الخرافات والأساطير التي كانت متحكمة بعقول وقلوب الناس لفترة طويلة من الزمن، ولكن الذي كان يحصل بعد نهاية كل صراع لمصلحة النبوة هو بروز فئة أو جماعة معينة تجد في نفسها الأهلية لحمل ارث الفرعونية وعقيدة الترف والدفاع عنها من خلال الدين نفسه، بمعنى آخر نقول: إن الدين الذي كان ينتصر مع النبوة، كان ينتهي بعد النبوة مع جماعات تدّعي الإنتماء اليه والإيمان به إلى أن يستثمر في مشاريع الترف الديني والسياسي، كما حصل مع قوم موسى (ع) بعد رحيله، ومع عيسى (ع) في صراعه مع اليهود، ومع محمد (ص) بعد موته، فلم تعد الفرعونية ظاهرة علناً، وانما استبدلت بالفرعون الخفي والخائف عند الكثيرين ممن لم يؤمن بالنبوة ولا بدورها... أو آمن بها، لكن على أساس أن يكون هو البديل والوارث لها!؟

إن الترف العلني، بعد انتصار النبوة، لم تعد له قوة أن يملك فرصة الإنقلاب على ما حققته النبوة على مستوى العقيدة والمشروع السياسي، فوجد المترف نفسه مضطراً لسلوك الطريق السري كي يحقق أهدافه، أي ان مقولة: «أنا ربكم الأعلى»، التي قالها فرعون، وكذلك قوله: ﴿**يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري**﴾[1]، هذه المقولات لم تختفِ بالفعل الديني أو السياسي نهائياً وهي لا تزال تقال حتى يومنا هذا، لكن منها ما يقال باللفظ، ومنها ما يقال بالمعنى، وذلك يبقى خاضعاً لضعف أو قوة الإيمان في مجتمع انساني ما، إذ انه حيث يكون الاستخفاف بالناس تكون الفرعونية! وحيث يكون الإيمان تكون النبوة أو أثرها، وما ينبغي قوله هنا، هو أن المترفين وإن تخلوا عن مشروعهم السياسي ومقولاتهم التقليدية والدهرية بسبب قوة

(١) سورة القصص، الآية ٣٨.

وحضور النبوة، فذلك لم يكن اذعاناً منهم أو تسليماً بما جاءت به النبوة، وإنما خوفاً منها وقناعة منهم بعدم جدوى تأليه أنفسهم، مما اضطرهم إلى التكلم باسم الدين ووسم أنفسهم بصفة القداسة والحكم باسم الله، يقول إمام عبد الفتاح إمام: «انه ما من مستبد إلا ويتخذ لنفسه صفة قدسية يشارك بها الله. . . لكن هذه الصفة قد تكون ظاهرة بارزة يعلنها الحاكم نفسه (كما فعل فرعون)، وقد تكون خافية مستترة وإن كان مضمونها ظاهراً في سلوكه فهو على أقل تقدير لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون، وهذا ما فعله جميع الطغاة على مدار التاريخ»[1].

فالإستبداد الذي يتحكم بالمجتمعات البشرية منذ أقدم العصور لا يزال متحكماً بها وإن اختلفت أشكاله وألوانه ووسائله، فهو من حيث الطبيعة والأهداف واحد، وهذا ما ذهب إليه الدكتور مكاوي بقوله: «إذا كان الطغيان الذي تعددت أشكاله ودوافعه وآثاره على مر العصور يوحي بالتشابه، فإن هذا لا يعفي المؤرخ من دراسة كل حالة على حدى، وتمحيص كل حادث في سياقه الخاص، حتى لا يقع في مخاطر الإسقاط والهوى والتعميم»[2]. وقد شق الإستبداد طريقه في اليهودية والمسيحية والإسلام من خلال ما يسمى بالسلطة المطلقة أو الحكم الثيوقراطي القائم أساساً على اعتبار الحاكم حاكماً بأمر الله وذي طبيعة إلهية معصومة ترفع به عن كونه بشراً! إن هذا الشكل من أشكال الحكم كان دائماً يظهر على يد مجموعة من اتباع هذا الدين أو ذاك يدفع بها الترف وحب الدنيا والرياسة الى أن تأوّل النصوص المقدسة وفق ما تراه ملائماً لأهدافها «وتقدم اجتهادات شخصية وتأويلات ذاتية تمكنها من الوصول إلى السلطة (باسم الدين) فتكون لها

---

(١) إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٤، ص٩.

(٢) أنظر: عبد الغفار مكاوي، جذور الاستبداد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤ ص٩.

مقاليد الأمور، وتستخدم في الأعم الغالب أحط السبل كالدسائس والقتل والرشوة والمال والإرهاب والكذب على الله ورسوله لتحقيق رغباتها»[1]، وهذا هو شأن اليهود في كل زمان إذ انهم يحاولون بشتى الوسائل الوصول الى مآربهم الرخيصة بما في ذلك الدين نفسه، «فلا يتورّعون عن استثماره في المشروع السياسي...»[2].

إن المترفين بعد أن كانوا يحاربون الله والنبوة وكل من يؤمن بهما، ويخوضون حرباً ضروساً ضد ما جاء به الأنبياء من تعاليم ومبادىء وقوانين، تحولوا بعد هزيمتهم في صراعهم مع النبوة الى محاربين لها باسمها وباسم الدين، كما هو شأن كل السلطات المطلقة والحكومات الجائرة التي تعتبر نفسها من طبيعة الهية، وتحمل نظرية الحق الإلهي المباشر، وقد تطورت هذه النظرية مع ظهور المسيحية والإسلام، وهذا التطور السلبي للترف الديني والسياسي يمكن ملاحظته فيما انطوت عليه بعض الكتب الدينية والأحاديث حول تقديم الطاعة للحاكم مهما كان نوعه وصفاته باعتباره حاكماً اصطفاه الله وأودعه السلطة، والقيام بأمر الناس على ضوء ما يرى فيه المصلحة لهم، ومن قبيل هذا ما تقرأه في رسالة القديس بطرس الأولى في أولياء الأمر، فهو يقول: «إخضعوا لكل نظام بشري من أجل الرب، للملك على انه السلطان الأكبر، وللحكام على أن لهم التفويض منه أن يعاقبوا فاعل الشر ويثنوا على فاعل الخير...»[3]، وفي السادة الجفاة الطباع، يقول: «أيها الخدم اخضعوا لسادتكم خضوعاً ملؤه المخافة، لا للصالحين والحلماء فقط، بل لجفاة الطباع أيضاً، فمن الحظوة أن يتحمل المرء

---

(١) إمام عبد الفتاح امام، الطاغية، م.س.، ص٢٦.
(٢) انظر: كتابنا، السلام المسلح بين العرب واسرائيل، م.س. ص٢٦٩.
(٣) الكتاب المقدس، بيروت، دار المشرق، ١٩٩١، رسالة القديس بطرس الأولى، ص٧٤٥.

مشقات يعانيها ظلماً في سبيل الله»[1].

وقد روى مثل هذا عن بعض الحكام الذين نسبوا الى الإسلام زوراً، وكانوا من أكثر الناس ترفاً في الحياة، من أمثال الحكام الأمويين والعباسيين الذين تصدوا لتفسير النص وفق ما يلائم المشروع السياسي الخاص بهم بدعم من بعض رجال الدين المنتمين إلى مدرسة الترف التاريخية، فهذا معاوية يقول للناس بعد أن حمدوا الله الذي أعز نصره وأعلى كعبه: «أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة»[2]، مدّعياً لهم انه حاول أن يسير فيهم بسيرة عمر لكن نفسه أبت عليه ذلك، ودفعته إلى أن يسير فيهم بسيرته الخاصة، «ولقد رضت نفسي لكم على عمل أبي بكر وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً»[3].

يقول المحقق الإسلامي السيد جعفر مرتضى حول ما حصل من ردة إلى الجاهلية، وعما قام به الحكام المسلمون لتكريس نظام الاستبداد، إنهم حاولوا جاهدين الانقلاب على الدين وتفسيره بما يخدم عقائدهم الجاهلية، يقول: «ونذكر من هذه العقائد على سبيل المثال: تركيز الاعتقاد بلزوم الخضوع للحاكم، مهما كان ظالماً ومتجبراً وعاتياً، وهي عقيدة مأخوذة من النصارى حسب نص الانجيل المتقدم، وقد وضعوا الأحاديث الكثيرة على لسان النبي محمد (ص) لتأييد ما يرمون اليه في هذا المجال، وقد أصبح ذلك من عقائدهم»[4].

---

(١) م.ع. ص.ن.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد، المجلد الرابع، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٧، ص١٧٠.

(٣) م.ع. ص١٧١.

(٤) جعفر مرتضى، الحياة السياسية للإمام الحسن، دار السيرة، بيروت، ط١، ١٩٩٤، =

إن الترف الجديد الذي حاول الحكّام سواء اليهود أو النصارى، أو المسلمين تدعيمه وتبريره، لم يكن ترفاً وجوراً مشابهاً لما كان عليه الترف الفرعوني من صراحة ووضوح، لكنه يلتقي معه في كثير من الوسائل والأهداف، وكما قلنا: ان الذي حال دون استمرار الترف الفرعوني بأسلوبه ومضمونه هو النبوة وما تركته من آثار ايمانية وسياسية ومعرفية في حياة الناس، ولما كان هدف المتربصين بالنبوة وأتباعها شراً، (وهم الذين يشكّلون في الحقيقة امتداداً للترف الفرعوني) أن يتحول الناس عن النبوة اليهم بحيث يعيدونهم سيرتهم الأولى، فلم يجدوا بداً من استخدام الدين الجديد، واظهار حرصهم الشديد عليه، وقد استطاعوا إلى حد ما من تحقيق نجاحات كثيرة على مستوى التحريف للنص والتأويل له على النحو الذي يمكنهم من بسط سلطانهم الديني والسياسي على الناس؛ وكادت مشاريعهم أن تنجح بالكامل على مستوى الدين والسياسة لو لم تكن هناك امتدادات للنبوة في الحياة البشرية، فالمقصود بالترف الديني هو ما قام به بعض رجال الدين في كل زمان من تبرير للسلطة المطلقة، وللتفويض الإلهي لهؤلاء بأنّ يحكموا باسم الله!! ولا زلنا نشاهد في عصرنا هذا دور بعض رجالات الدين في دعم سلطات الحكم المطلق، والحكومات الجائرة من خلال تقديم الفتاوي اللازمة لذلك! انه ترف ديني يستعمل اسم الله وفي سبيل الله، ولكنه في جوهره خادم للسلطان، ومستعمل آلة الدين للدنيا، كما في قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لكميل بن زياد: «.. بلى أصبت لقِناً غير مأمون عليه، مستعملاً آلة الدين للدنيا، ومستظهراً بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه...»[1].

= ص٨٢.

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم ١٤٧.

كان ولا يزال الترف الديني بعد انقضاء النبوة عمدة الاستبداد السياسي، وما لم يحكم اتباع النبوة والعالمون بما جاءت به من تعاليم وقوانين وأحكام، في الدين والدولة، فإن الاستبداد السياسي سيبقى مدعماً بكثير من النظريات الدينية والفتاوى الشرعية، ومما يدل على هذا هو أن السلاطين، وخاصة في التاريخ الإسلامي، قد أنشأوا الفرق، أو على الأقل دعموها لتقوى وتنتشر وتساعدهم على تأليف الأفكار الدينية والسياسية التي تسهم في تقوية نظام الحكم القائم تحت شعار الحكم بما أنزل الله، والقتال لأجل أن يعود الأمر شورى بين المسلمين كما فعل معاوية ويزيد وسائر الخلفاء الأمويين والعباسيين. . . !!

لسنا نقصد بالترف الديني المبرر للاستبداد السياسي غير ما تقدم ذكره من وجود رجال دين، وقد سموا بفقهاء السلطة، في خدمة المشروع السياسي للسلطان الجائر الذي دلت حياته وسيرته وأعماله على تمثلات حقيقية للفرعونية القديمة وتشبيهات أكيدة لها!؟ وأدنى تأمل في تاريخ المسلمين يكشف عن ان العلماء الحقيقيين بالكتاب والسنة، وكل الذين شكلوا امتداداً حقيقياً للنبوة والإمامة، كانت شكاياتهم ومعاناتهم من الترف الديني أكثر مما كانت من الاستبداد السياسي المتمثل بالسلطة الجائرة، بدليل ما واجهه الإمام علي (ع) في حرب الجمل، وفي حرب صفين، وفي حرب النهروان وفي غيرها من المواقع العسكرية، وأكثر ما كانت هذه المعاناة في المواقع السياسية التي كان يحتدم فيها الصراع حول طبيعة الحكم ومَن تكون له الأحقية به، أو حول الشورى وما إذا كانت بديلاً للإمامة واستمرارها في الزمان. . .

ولو أردنا إقامة البرهان على ما للترف الديني من أثر سلبي في حياة الناس في عصرنا الحاضر لما احتجنا إلى مزيد من التأمل والبحث فيما آلت

اليه المدارس الفقهية والمذاهب الكلامية في ضوء تحكمات الاستعمار الجديد بالمنطقة العربية الاسلامية، وبروز مدارس ترف جديدة ساعدت على ايجاد الكيان الصهيوني في فلسطين، وقتل روح الجهاد عند أفراد وجماعات الأمة الاسلامية، وكيف لا تصل الأمة إلى هذا المستوى من الهزيمة على صعيد الروح والمادة معاً، حينما يكون كل شيء مبرراً من قبل المدارس الفقهية والكلامية، ومؤمناً له الغطاء الكامل من قبل القيمين على هذه المدارس، وقد شهدنا مؤخراً، وحصراً منذ سنة ١٩٩١ التي بدأت فيها مفاوضات مدريد بين العرب واسرائيل، كثيراً من الفتاوي المبررة للصلح مع اسرائيل على قاعدة قوله تعالى: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها**﴾[١] اضافة الى ما ادعاه بعض المترفين الدينيين من ان الجهاد ليس معناه قتال الكفار والمشركين، وانما معناه محاربة الجهل والفقر والمرض وما إلى ذلك من مقولات واجتهادات وتأويلات تبرر الصلح مع اسرائيل، وتدعو الى إقامة علاقات طبيعية معها[٢]!؟

إنا نزعم بأن بعض المتدينين ممن يتحملون مسؤولية الدفاع عن المشروع الإلهي الذي جاء به الأنبياء جميعاً قد وصلوا الى مرحلة من الترف سواء في المال أو الجاه أو السلطان، قلما استطاع أن يصل اليها المترف السياسي المستبد، وبما أن الدين ليس ترفاً، ولا حرصاً على الدنيا بما فيها من أموال ومتاع الغرور لما بينته النبوة والرسالات من انه مسؤولية وأعباء ودفاع عن قضايا المستضعفين وحقوقهم، فإن ذلك يحتم اعادة النظر فيما انتهت اليه الحوزات العلمية والمدارس الفقهية في العصر الحاضر من ترف ديني وسياسي، لمعرفة الأسباب الكامنة وراء تصدع هذا البناء المقدس

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

(٢) أنظر: فرح موسى، السلام المسلح بين العرب واسرائيل، دار الوسيلة، بيروت ١٩٩٤، ص٣٧.

بسبب ما لحق به من غرور وكبرياء وترف وتهاون بالمسؤولية الشرعية التي ألقيت على عاتقه منذ القدم. إن الأمة لا تزال ترى في هذا الصرح العلمي المقدس الأمل والرجاء والعلم، وما لم يتحرر هذا الصرح الذي يحتوي على كل العلوم التي تحتاجها الأمة لبناء نفسها وتحقيق مشروعها، وما لم يتحرر أهله من عقلية الترف التي تستبد بالأكثرية منهم، فإن المستقبل سيجود على الأمة بكثير من المصائب والبلاءات قد لا يكون أقلها تحكم اسرائيل بخيرات وثروات وقرارات هذه المنطقة الحية من العالم.

إن إنقسام العالم اليوم الى مترفين وفقراء، وأقوياء وضعفاء، لم يكن ذلك بسبب رجالات السياسة فقط، بل ساهم في هذا الإنقسام أيضاً رجال الدين، حيث انهم أعطوا رجال السياسة مقاليد الأمور، ودخلوا معهم في أتون الترف حتى بلغ الأمر بهم درجة البطر بالنعم والتفريط بها، بدل أن يرشدوهم ويقدموا النصيحة لهم فيما ينبغي أن يعملوه من أجل حماية الأمة من شرور الفراعنة، وقد أجمعت كتب الفقهاء على حرمة الدخول مع الحاكم في معصية الله تعالى!

لقد ساهم هذا الترف وما تسبب به من انقسامات على مستوى الأمة في خلق الظروف المناسبة لخلق الكيان الصهيوني في فلسطين، وما كان ذلك ليتم لولا التهاون بكل المبادىء والقوانين والإرشادات التي أتى بها الأنبياء لإحياء المجتمعات البشرية، وإذا كان هذا التهاون يدل على شيء فانه يدل على عقلية وسياسة الترف الحاكمة في المجتمع، وقد أثبتت التجارب التاريخية ان هذه العقلية لا بد أن يتولّد عنها فقر مادي وروحي، هذا فضلاً عما يتولّد عنها من جهل بأمور الدين والدنيا، وإذا ما استمرت هذه العقلية في حكم الدولة والمجتمع، فإن النتيجة ستكون لا خسارة فلسطين وحسب، بل خسارة شاملة على مستوى وجود الأمة وحضورها وفعلها، وكلنا يعلم ان

دوائر المترفين كلها تسعى لتحقيق هذا الهدف بحيث يتحول الإسلام إلى طقس من الطقوس أسوة بغيره من الأديان التي أثبتت فشلها، وأكدت صحة ما ينسبونه اليها من أنها أديان روحية يقتصر فعلها على الكنائس دون أن يتعدى ذلك الى الدولة وشؤون المجتمع السياسية. إن المترفين الدينيين مسؤولون حتماً عما آلت اليه أوضاع الناس في العالم في ظل الاستبداد السياسي المْسوّغ له من قبل بعض رجال الدين... يقول الشيخ النائيني واصفاً حالة الشعب المسلم في ظل أنظمة المستبدين: «لولا ما نراه من ائتلاف هاتين الشعبتين الاستبداديتين السياسية والدينية واتفاقهما وتقوّم أحدهما بالأخرى، لما أصبح استعبادنا نحن الايرانيين اليوم واضحاً مشهوداً»[1].

(١) الإمام النائيني، كتاب تنبيه الأمة وتنزيه الملة، نشرته مجلة الغدير في عددها ١٢، ١٣، الصادرة عن المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، ١٩٩١، وسيكون لنا وقفة مع الاستبداد الديني في ايران في الأبحاث المقبلة.

تأملات في تاريخ الترف الديني والسياسي

إن قوة النبوة والدين كانت سبباً ـ كما قلنا ـ في قطع دابر المترفين والفراعنة، كما كانت سبباً في زوال ملكهم وتبديد ثرواتهم وتوزيعها على الفقراء والمحرومين، وبما ان المترفين لم تكن لهم قوة المواجهة، وانكشفوا أمام الملأ بما يدينون به ويعتقدونه من خرافات وأساطير، فقد وجدوا أن السبيل الى اعادة قوتهم، وتحصيل ثروتهم التي كانوا يظنون انها لهم من دون الناس كما زعم قارون وأمثاله من انهم أوتوا المال على علم عندهم!؟ وبالفعل انطلقوا في عقب كل نبوة في إعادة تشكيل قواهم تحت شعار الدين بالطريقة التي تستهوى الناس وتبعد بهم عن كونهم مترفين أو غير ذلك مما يجعل أعين المؤمنين غير مراقبة لهم فيما يقومون به من أعمال، وكانت النتيجة أن تمكن هؤلاء ـ وتحت شعارات دينية شتى ـ من الوصول الى غايتهم المنشودة مستغلين الدين والإيمان وكل أسماء القداسة والجلالة في سبيل اعادة ما سبق لهم أن أترفوا فيه من قبل، وللتدليل على حقيقة ما نذهب اليه هو ما سعى اليه الأمويون لتقليص نسبة الاحترام والتقديس للرسول (ص)، بل وأكثر من ذلك كما فعل معاوية حينما أبدى أسفه «لأنه يرى أن اسم النبي المبارك يذكر في الأذان ويُقسم على دفن هذا

الإسم»[1].

أليس في هذا ما يدل على ان الفرعونية قد حاولت الالتفاف على النبوة باستخدام كل وسائل التضليل للقضاء على آثارها، واعادة الجاهلية الى حياة الناس بما هي جهل وترف وعبادة للأوثان؟

لا شك أنه توجد في التاريخ الإسلامي الكثيرمن الأحداث والعِبَرْ التي يمكن الاستفادة منها في بيان معنى الحكم الثيوقراطي الذي ينطوى على كل معاني الاستبداد الديني والسياسي معاً، وهذا الشكل من أشكال الحكم ـ كما بينا سبق للمسيحية أن اعتمدته في القرون الوسطى عملاً بكثير من النصوص المنسوبة الى السيد المسيح (ع)، والداعية الى طاعة الحاكم سواء أكان صالحاً أم فاسداً، معللة ذلك بضرورة أن يتحمل الناس المشقات في سبيل الله حتى قيل في الغرب كما يقول الكواكبي: «إن الاستبداد السياسي يتولد من الاستبداد الديني، والبعض القليل منهم قال: إن لم يكن هناك توليد، فلا شك انهما اخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون بتذليل الإنسان»[2].

لقد انطلق المترفون في العالم الاسلامي، قديماً وحديثاً ـ في تبرير السلطة المطلقة والدعوة اليها على أنها حقيقة اسلامية مؤكدة بنصوص الكتاب والسنة، تقليداً لنصوص قديمة كانت المسوّغ لاعتماد هذا النوع من الحكم عند اليهود والمسيحيين، وهنا تجدر الإشارة إلى أن المؤرخ اليهودي يوسفوس هو أول من صاغ هذا المصطلح لأول مرة ليعني به التصور اليهودي للحكومة على نحو ما جاء في التوراة التي تذهب الى ان القوانين الإلهية هي

(١) انظر: شرح نهج البلاغة، لابن أبي حديد المعتزلي، دار صادر، بيروت، ج٥، ص١٢٩.

(٢) الكواكب، طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص٣٠.

مصدر الإلتزامات الدينية والسياسية[1].

ولكن هنا يطرح السؤال التالي: هل ان حقيقة السلطة في الإسلام تبرر الاستبداد؟

وكيف أوَّل المترفون في عالمنا الإسلامي الآيات التي تحث على الشورى واعتبار رأي الناس بحيث يكون هناك مشاركة في الحكم، فلا يكون حكماً مطلقاً. . . ؟؟

قال الله تعالى في كتابه الكريم: **﴿يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون، قالوا نحن أولوا قوةٍ وأولوا بأس شديد، والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين، قالت: إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون﴾**[2].

فهذه الآية ـ كما نرى، مشحونة بتعاليم إماتة الاستبداد. . . ولكن المترفين استطاعوا القفز فوق كل التعاليم السماوية لتبرير أطروحتهم الدينية والسياسية من خلال القوة والثروة والمال كما كان يفعل الفراعنة في كل زمان، فالغرب وكل المستشرقين أخذوا الإسلام عن هؤلاء المترفين سواء أكانوا يهوداً أم مسيحيين أم مسلمين، مما دفع بهم إلى اتهام الرسالات السماوية بأنها تبرر السلطة المطلقة وتدعو اليها، وقد سبق لسيد قطب أن صحح هذا الفهم فيما ذكره عن حقيقة السلطة في الإسلام بقوله: «إن مملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم، هم رجال الدين، كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم

(١) يقول إمام عبد الفتاح: «إن اليهود هم أول من حاول اقامة الدولة الدينية من بين الديانات السماوية الكبرى، وهم أيضاً أول من صاغ مصطلح الثيوقراطية». را: كتاب الطاغية، م.س. ص١٦٠.

(٢) سورة النمل الآية ٣٢، ٣٣، ٣٤.

الله، كما كان الحال فيما يعرف بالثيوقراطية، أو الحكم الإلهي المقدس!! ـ ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر الى الله وفق ما قرره من شريعة متينة»[١].

إذن التأمل في التاريخ الإسلامي، وفيما انطوى عليه من استبداد ديني وسياسي، لا بد أن يكشف عما آلت اليه الأمور في ضوء تولي الملوك والسلاطين للسلطة في الإسلام بدعم من بعض رجال دين الذين استخدموا لهذه الغاية، وأعني بها تبرير السلطة الجائرة، ومحو الرسالة السماوية من الوجود إن استطاعوا الى ذلك سبيلاً، وما جرى في تاريخ المسلمين من قتل وارهاب لأهل بيت النبوة وأتباعهم في كل زمان خير دليل على ما نذهب اليه لجهة اعتماد كافة الوسائل لتحقيق سيادة الترف من جديد في حياة المسلمين، وإذا ما راجعنا تاريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين فإنا لا نجد محيصاً عن التسليم بأن هؤلاء لم يكن ينقصهم شيء للتعبير عن أطروحاتهم المادية المتعلقة بشؤون الدين والدنيا، فهذا معاوية وقد سبق الكلام عنه.. وأما يزيد فحدِّث ولا حرج، فالج لا تعالج! وقد روي عن الحاكم الأموي عبد الملك بن مروان انه كان عابداً كما يقول عنه السيوطي: «زاهداً ناسكاً قبل الخلافة»[٢] وقال نافع: «لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أنسك، ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان»[٣]، ولكنه عندما بويع بالخلافة وأفضي الأمر اليه، «كان المصحف في جحره فأطبقه وقال هذا آخر عهدنا بك»[٤] وكان أول خطاب له على منبر الرسول في المدينة أنه لا يكترث برضا الناس ولا هو بحاجة لرأيهم فقال: «يا معشر

---

(١) سيد قطب، معالم في الطريق، دار دمشق، (لا ـ ت) ص٨٢.
(٢) انظر: امام عبد الفتاح امام، الطاغية، م.س. ص٢٠٨.
(٣) م.ع. ص.ف.
(٤) العقد الفريد، المجلد الرابع، م.س. ص١٧٨.

قريش انكم لا تحبوننا أبداً، وأنتم تذكرون يوم الحرة، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر مقتل عثمان»[1]. ولا يخفي أيضاً أنه كان من نتائج حكمه الحجاج بن يوسف الذي مات وهو يوصي ابنه الوليد بالحجاج خيراً[2].

من امتيازات العهد الأموي ان رجالاته سواء الدينيين أو السياسيين كانوا يترقبون المسار الديني والسياسي للدولة والأمة معاً، خشية أن يتحول الأمر عنهم الى غيرهم، وكانوا كلما رأوا تعاطفاً من أمير أو حاكم اتجاه الأمة، أو لياقة أو أخلاقاً في التعامل معها يحركون أصابع الترف الفرعوني من خلف الستار لمنع الحاكم من التساهل في هذا الأمر، لأنه لا ينسجم مع طبيعتهم وأطروحتهم، وقد قيل ان شعبة الترف الديني والسياسي وكثيرين ممن تسموا بالفقه وليسوا به، كانت وراء مقتل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، يقول أسد حيدر: «لقد ثقل على الأمويين ما قام به عمر بن عبد العزيز من الأعمال الصالحة ومعالجة مشاكل المجتمع، ولذا قيل: انه مات بالسم من بني أمية علماً منهم انه إن امتدت أيامه أخرج الأمر عنهم، وانه لا يعهد بعهد إلا لمن يصلح للأمر فعاجلوه..»[3] ومن يتأمل فيما آلت اليه الأمور بعد مقتل عمر بن عبد العزيز وقيام يزيد بن عبد الملك بأمر الخلافة من بعده، حيث أراد هذا الخليفة ان يسير في الناس بسيرة عمر بن عبد العزيز، «فشق ذلك على قرناء السوء، وأعوان الظلمة، على المترفين، فأتوا اليه بأربعين شيخاً فشهدوا له انه ما على الخلفاء من حساب ولا عقاب»[4]. فخدعوه بذلك فانخدع بهم، وكان كلامهم موافقاً لهواه،

---

(١) م.ع. ص.ن.

(٢) مروج الذهب، المسعودي، ج٣، ص١٧٠، وتاريخ الخلفاء، ص٢٢٠، والطاغية، ص٢٠٩.

(٣) انظر: أسد حيدر، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، دار الكتاب العربي، ج١، ص١٢٠.

(٤) م.ع. ص١٢١، وقا: مع امام عبد الفتاح امام، الطاغية، م.س. ص٢١١.

فانهمك في اللذات واللهو والطرب..[1].

نحن نعجب ممن يقرأ التاريخ ولا تستوقفه هذه النصوص التي لا بد انها معبرة عن سياسة واحدة في الدين والسياسة عند الفرعونيين المستترين، وقد انتهجت هذه السياسة سائر الحكومات الجائرة منذ بداية التاريخ وحتى يومنا هذا، وإن مما يدل على تحقق هذا الأمر في عالمنا اليوم هو اتخاذ الدين أداة ووسيلة لقهر الناس من قبل كل حكومات الجور المدّعية انها تقوم بأمر الله والناس معاً..!؟

إننا أمام نصوص تاريخية شاهدة ولم يعد ملحاً علينا أن نسوقها لبيان معنى أن يكون الحاكم عادلاً أو ظالماً، مترفاً أو غير مترف، وانما بات ملحاً وضرورياً أن نعرف المبررات والسياسات الدينية التي تكيّف بعضها البعض وتدعّم نفسها بالدين لتنتج فرعوناً هنا أو هناك بصرف النظر عن الألية التاريخية التي تستوقف صاحب النص أو سيرته وأفعاله لتبرهن لنا انه مشابه لغيره، أو متميز عنه فيما أتى به من أقوال وأفعال، وانتهجه من سياسات ظالمة، أو عادلة في مجتمع تقلّد أموره الدينية والسياسية، فالقرآن ـ كما نعلم ـ ليس نصاً تاريخياً، وانما هو فوق التاريخ، لكنه يستوقفنا في قصصه وتاريخه، وهو بمقدار ما يعني من قيمة لدراسة التاريخ، بمقدار ما يلهمنا الى ملاحظة عالمية التاريخ فيه، بمعنى انه لا يمكن تجزئة التاريخ والاستغراق فيه على أنه القرآن، أو فهم العالم على أساس تجزئة التاريخ. إن القرآن يكشف عن تاريخ العالم من دون أن يكون تاريخاً، ويبين لنا عن وحدة العالم والتاريخ من خلال وحدة النبوة، كما انه يشجع على ان تكون لهذه الوحدة انعكاسات على مستوى الأمة بحيث تكون أمة واحدة، كما في قوله تعالى: **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم**

(١) أسد حيدر م. س. ص١٢٠.

فاتقون﴾[١]، وقد اقترب من هذا المعنى الأستاذ ماسون أورسيل في كتابه الفلسفة في الشرق بقوله: «لا يوجد في هذه الأيام انسان يستطيع الاعتقاد بأن اليونان وروما وشعوب أوروبا في العصور الوسطى والحديثة، هم دون سواهم أرباب التفكير الفلسفي. ففي جهات أخرى من الإنسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد وانتشرت في شتى الأنحاء، وبما أن هذه المواطن لم تكن منفصلة بعضها عن بعض، كما ظن في الماضي، فيجب الاعتراف بأن تفكير الغرب لا يكفي نفسه بنفسه، وان تفسيره التاريخي يتطلب إعادة وضعه في وسط انساني واسع النطاق، لأن التاريخ الصحيح هو وحده التاريخ العالمي»[٢].

فالحديث عن فرعون في القرآن وكل امتداداته في الزمان، ليس حديثاً عن التاريخ الصحيح، ولو اقتصر التاريخ على فرعون لما كان هناك ثمة تاريخ يمكن الحديث عنه، وإذا كنا نعبر عنه بالتاريخ، فذلك انما نذهب اليه لما أراده موسى (ع) حينما أرسل اليه بدعوته العالمية آنذاك، فلولا موسى لكان تاريخ فرعون نفياً للتاريخ وليس تثبيتاً له أو تعبيراً عنه، فالمترفون ليسوا من التاريخ، وقصص القرآن التاريخي يرشد الى هذا المعنى، فلا حاجة بنا لسوق الدلالات المعرفية أو المقارنات التاريخية لاثبات ان هناك تاريخاً للترف مثلما هناك تاريخ للنبوة. باعتبار أن التاريخ واحد هو تاريخ النبوة، ولعل ما ذكره القرآن عما أصاب المترفين من غرق وبأس في الليل والنهار ورياح عاتية في مقابل ما تحقق للأنبياء من قوة وظهور في الوجود الإنساني ووجدانه ناظر الى هذا المعنى ان التاريخ الصحيح هو تاريخ النبوة الواحدة مما يؤكد وحدة التاريخ العالمي، وإن كان هناك مَن يحاول اثبات

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥٢.

(٢) مارسون لورسيل، الفلسفة في الشرق، راجع الترجمة العربية للدكتور محمد يوسف موسى، القاهرة، دار التعارف ص١٦.

تاريخيته بمعزل عن ارادة السماء كما حاول فرعون وخلفائه في كل زمان، وقد قال تعالى: ﴿**وما كيد فرعون إلا في تباب**﴾[1]. ففرعون في كل ما رآه لنفسه من ربوبية وحضارة وتاريخ لم يصمد أمام حركة النبوة، ومن هنا يمكن أن نستنتج مع الشيخ شمس الدين: «أن اشراق النبوة وظهور الأنبياء في المجتمعات البشرية هو بداية العصر التاريخي للبشرية»[2].

نماذج من الترف العباسي

ولو أردنا أن نستعرض تاريخ خلفاء بني أمية لما اتسعت صفحات لعرضها، ويكفينا أن نعرض نماذج من تاريخ الترف الديني والسياسي الذي انتهى الى العباسيين الذين فاقوا الأمويين فيما ادّعوه لأنفسهم من الجلالة والكرامة والتأليه، فهذا المنصور العباسي يقول بصراحة ووضوح: «أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته، وارادته وأعطيه باذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم، وإذا شاء أن يقفلني عليه قفلني»[3].

نلاحظ أنه لا فرق بين ما كان يدّعيه المترفون والفراعنة، وبين ما كان يدّعيه الخلفاء والأمراء في تاريخنا الإسلامي إلا باستعمال اسم الله تعالى والتفويض لهم شؤون العباد والبلاد دون حسيب ولا رقيب، فهم على مكانتهم عند الله سواء عملوا فيهم بالرحمة أم بالسيف، تلك هي الحظوة التي للناس فيما لو قبلوا حاكمية جفاة الطباع كما في نص الانجيل، وتلك هي سعادتهم الدنيوية والأخروية فيما لو سمعوا وأطاعوا للحاكم الجائر الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون!؟ انهم آلهة من نوع آخر حال دون تمثلهم

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣٧.

(٢) شمس الدين، محمد مهدي، حركة التاريخ عند الإمام علي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ص٦٥.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٣، م.س. ص١٨٦.

بالفرعونية القديمة ما استجد وانتشر من ايمان في حياة المسلمين، ولا مشاحة في الأسامي والعبارات عند الحكام المستبدين ما دامت النتيجة واحدة وهي القضاء على روح الرسالة واحياء روح الاستبداد والترف. . . !؟

والحق يقال: إنه لو لم يكن هناك رجال دين أخذ منهم الترف مأخذه، وحب الدنيا مأمله لما استطاع هؤلاء الحكام أن يمعنوا في الأرض فساداً، وفي الناس هلاكاً، لأن الناس كانت تنظر الى مَن يفهم الشرع ويعبر عنه، وإلى الأمناء على العقيدة والشريعة، إلى ورثة الأنبياء، وحصون الإسلام وغير ذلك مما ورد في شأن الفقهاء ومكانتهم ودورهم نظرة التقدير والاحترام، ولما وجد الناس أن أكثر مَن تسمى بالفقه وليس به يبرر للسلطة المستبدة أقوالها وأفعالها، ولما كان الناس غير قادرين على فهم وجوه المسائل والتمييز بين ما هو من الدين، وما هو ليس منه، فقد كانوا يعتبرون كل ما يقوله الفقيه حقاً وصدقاً، مما كان يدفع بهم إلى الأخذ عنه والسماع له، وبما أن كثيرين من الفقهاء لم يكونوا أمناء ولا حصون للإسلام ولا ورثة للأنبياء، فقد أدى الأخذ عنهم إلى زيادة في قوة نفوذ السلاطين، وبناء على هذا فإنه يصح قولنا: ان الترف الديني المنطوي على جهل بالكتاب والسنة، أو علم بهما مقرون بحب الدنيا والسلطان، كان عمدة الاستبداد السياسي، وكذلك تصح مقولة الأفرنج بأن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني، لأن ما شهدته أوروبا في القرون الوسطى من تفويض الهي لرجال الدين، شهده التاريخ الإسلامي من تفويض الهي للسلاطين الذين تعاقبوا على حكم المسلمين معززين اطروحتهم بتقريب رجال الدين وزعماء المذاهب والفرق منهم، ومَن أبى من الفقهاء كان يتعرض للقتل أو السجن، ولم ينج من هذا التعسُّف السلطاني أئمة أهل البيت الذين سجنوا وسموا وقتلوا خوفاً من أن يؤثروا على نظرية التفويض المدّعاة لديهم، وعلى عقلية

الترف التي استبدت بكثير من الناس.

جاء في العقد الفريد: «ان المنصور بعث إلى مالك بن أنس وابن طاووس فأتياه ودخلا عليه وبين يديه جلاوزة ـ شرطة ـ بأيديهم السيوف يضربون الأعناق فأجلسهما عنده وأطرق طويلاً وأومأ إلى ابن طاووس أن يعظه، فإذا جرت الدماء حتى وصلت الى ثيابه التفت ثانية الى ابن أبي طاووس قائلاً له عظني، ويقول مالك فكنت أضم ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأها من دمه»[١]، وقد يبرر عمل المنصور هذا بأنه هادف الى أمرين، فهو يستمع للواعظ بدافع الايمان، ويسفك الدماء بدافع توطيد الحكم، ولكن العلامة الشيخ محمد جواد مغنية رأى في عمله استهزاءً بالدين، لأنه لو كان على شيء من التدين لاقترب منه الإمام الصادق (ع) وقد بعث المنصور اليه بكتاب يسأله فيه: «لما لا تغشانا كما يغشانا الناس، فأجابه الإمام (ع) ليس لدينا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له»[٢]. وكذلك التقى المنصور يوماً بسفيان الثوري، «فقال له عظني، فقال سفيان: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت!. فسأله المنصور: ما يمنعك أن تأتينا؟ قال قول الله تعالى: ﴿**ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾ قال له سل حاجتك، قال حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك، ولا تعطيني حتى أسألك. فقال المنصور: القينا الحب الى العلماء، فالتقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً. وقول المنصور القينا الحب يؤيد ما قاله الشيخ مغنية من انه طالب صيد يحيك الشباك من الدين ويلقي فيها الحب ليجذب علماء السوء»[٣].

---

(١) انظر: حسن عباس حسن، في الفكر السياسي الشيعي، الدار العالمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨، ص٥٠.

(٢) م.ع. ص٥١.

(٣) محمد جواد مغنية، الشيعة والحاكمون، بيروت، المكتبة الأهلية، دون تاريخ، =

إن قول المنصور: القينا الحب إلى العلماء فالتقطوا، فهو دليل على أن السلطان لم يكن يُلقي الحب الى العلماء بدافع الإيمان، أو ليكونوا منافسين له على الملك، وإنما لأجل أن يكونوا معه ليبرروا له ما يقوم به من أعمال ارهابية وسفك دماء بريئة، وكيف لا، وقد أجمع المؤرخون على انه حاول مراراً الإيقاع بالإمام الصادق لقتله بحجة انه يؤلب الناس عليه ويدعوهم الى الخروج عليه[1].

انه مترف سياسي يبحث عن علماء السوء ليكونوا شركاء له فيما يرتكبه من ذنوب ومعاصي، لا ليكونوا شركاء له في الملك، وكل سلطان كان يقدم على مثل هذا لا بدافع الحب للعلماء، وانما بدافع جذب الناس اليه حينما يرى هؤلاء ان العلماء محيطون به من كل جانب، والحق يقال: ان المترف لم يكن يعاني من قلة العلماء حوله، فهم أكثر من أن يحصوا عدداً. . . ولكن كان يهمه كثيراً ان يرى الناس الإمام الصادق (ع) من جملة العلماء الذين أحاطوا به طلباً لما عنده من ترف الدنيا، ولو ان كل العلماء قالوا قول الصادق (ع)، وقول سفيان الثوري لما تمكن المنصور وغيره من الخلفاء من رقاب الناس، ولا من تأويل الآيات بما يخدم مشروعه السياسي الخاص، ولهذا نحن نرى ان كثيراً من رجال الدين المترفين كانوا سبباً لما وقع فيه الناس من ظلم وتدليس وخداع على يد الحاكم العباسي أو الأموي وغيرهم ممن تبعهم وسار بسيرتهم. . .

ومن أجل إقامة الدليل على ما كان للفقهاء من دور في تاريخ المسلمين نذكر على سبيل المثال ما أقدم عليه القاضي أبو يوسف الشهير

= ص١٣٦ ـ ١٣٧.

(١) أسد حيدر، الإمام الصادق، والمذاهب الأربعة، ج٣، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٨٣، ص٣٩.

والذي كان ملقباً بفقيه الأرض وقاضيها، فقد سأله الرشيد عندما أفضت الخلافة اليه عن جارية وقعت في نفسه من جواري المهدي فراودها عن نفسها، فقالت لا أصلح لك، إن أباك طاف بي، لكنه شغف بها، فأرسل الى أبي يوسف يسأله أعندك في هذا شيء؟؟

وجاء الجواب: «أهتك حرمة أبيك، وأقض شهوته، وصيّره في رقبتي»[١]، وهنا يمكن ملاحظة استعداد الفقيه القاضي للفتوى أياً كان نوعها لارضاء شهوات الحاكم!

ويروى أيضاً انه بعد معارك العرب والروم طال مكوث أسرى العرب في الدولة البيزنطية. . . ومما يذكر ان مسلم بن أبي مسلم الذي كان من أهل الثغور، ثم أسره الروم في بعض الحروب، فقد استطاع هذا الرجل أثناء اقامته في القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم أن يكتب كتاباً في جغرافية الدولة البيزنطية، تحدث فيه عن بلادها وطرقها ومسالكها وبحارها، ولما جيء به مع غيره من الأسرى في فداء سنة ٢٣١ هـ رفض القول بخلق القرآن، فأصابه من جراء ذلك كثير من الضرر، وكان الخليفة الواثق قد بعث اذ ذاك مَن يمتحن الأسرى المسلمين في مسألة القرآن، فمن قال منهم ان القرآن مخلوق وان الله عز وجل لا يرى يوم القيامة فودي به ومن لم يقر بذلك ترك في أيدي الروم[٢].

أليس في هذا النص ما يدل على ان الواثق لم يكن ليتخذ مثل هذا القرار الصعب والمؤلم بحق المسلمين الذين كانوا يدافعون عن ثغور المسلمين لولا انه كان مدعوماً بفقهاء رأوا له ان لا يقبل بفداء كل مَن لا يقول

---

(١) را: الطاغية، إمام عبد الفتاح إمام، م.س. ص٢١٠.

(٢) انظر: مقالة د. جمال الدين سرور، الدولة العباسية والدولة البيزنطية، مجلة العربي، العدد ٨٧، ١٩٦٦، ص١١٢.

بقولهم ولا يرى اجتهادهم، تماماً كما كان يفعل المعتزلة في زمن المأمون، وأهل الحديث في زمن المتوكل، حيث ان كل فرقة من هؤلاء كانت تستغل السلطة لفرض أطروحتها الدينية والسياسية، ولم يكن يرى السلطان في ذلك ضيراً عليه أو على سلطانه ما دام الناس منقسمين وغير متوحدين على رؤية سياسية واحدة، ولهذا قيل إن الحكم الثيوقراطي ينشأ عندما ينقسم المجتمع السياسي على نفسه، فيجد سلطان الله على الأرض راحته في ذلك لأنه يسهّل عليه عملية القمع الفكري والسياسي مستعيناً بالمجتمع، بل بالفرق على نفسها. . . !؟

ان الترف الديني الذي قوي وامتد بسبب قيام بعض الناس بأمر الله دون أن يكونوا أهلاً له. ولا نزال اليوم نعيش آثار هذا الاستبداد السياسي المرتكز إلى الاستبداد الديني في كثير من أموره، وما لم يعد الأمر فعلاً إلى أهله والذين جعلهم الله قيِّمين على أمره، فإن وضع المسلمين سيزداد سوءاً على سوء، لأن المترفين لا يهمهم أن يكون الله هو الحاكم من خلال شريعته، ولا أن يكون مشروعه الكامل محققاً في الواقع تستفيد منه الأمة وانما همهم منحصر فقط وفقط فيما يثبت لهم دعائم السلطة والاستبداد ليتحقق لهم الأمان الدائم. . . ومَن لا يرى وجهةً أو صحةً لما نذهب اليه فيما نزعمه عن أطروحة الترف الديني، فانه يستطيع أن يتابع معنا بعض فصول هذا البحث ليرى كيف ان كثيراً من الفقهاء قد تسببوا بكوارث وبلاءات عظمى قد تفوق بكثير مما تسببت به نظرية التفويض الإلهي والسلطة المطلقة للملوك والخلفاء المسلمين، كما اننا نصر ونجزم على ضرورة أن تعاد قراءة النص التاريخي مجدداً لعل ذلك يسهم في بلورة بعض المفاهيم والحقائق عن طبيعة هذا الصراع المتجدد بين موقع النبوة وموقع الترف.

الترف الديني والسياسي، في صور ومشاهد تاريخية

كنا قد أشرنا إلى أن المترف الديني والسياسي في زمن النبوة وبعدها قد انقلب على أعقابه، وعاد الى سابق ما كان عليه من الأفكار والتقاليد والأساطير، ولم يكن بإمكان الإسلام التخفيف من حدة جهله ونفسه الشهوانية لا لأن الإسلام لا يملك القدرة على ذلك، بل لأنه غير مستعد لأن يتقبل هذا الدين الجديد الذي حاول أصحابه بمجهودات منقطعة النظير أن يخرجوا الناس من الظلمات الى النور، وأن يؤثروا فيهم الى الحد الذي يستطيعون معه الغاء كل التقاليد والعبادات التي كان يلوذ بها هؤلا تقليداً لآبائهم، ويريدون أن يسيروا على خطاهم كما في قول الله تعالى عنهم: ﴿**إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾[1].

لقد تقدم الكلام عن صور ومشاهد الترف الديني والسياسي فيما أعقب النبوة من محاولات لاحياء الجاهلية منذ وفاة النبي (ص) وبخاصة في العهدين الأموي والعباسي اللذين كانا تتويجاً لترف الجاهلية ولمساعي كثيرة بذلها المترفون في سبيل القضاء على تعاليم النبوة وأهدافها..!؟

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

ومما لا شك فيه أن جهود الترف ومساعيه من قبل فقهاء السلطة وأعوانها لم تتوقف عند حدود هذين العهدين، وانما تعدتها الى عهود أخرى، كالعهد البويهي، والسلجوقي، والعثماني، والصفوي والقاجاري، والبهلوي في ايران، وفي كل عهد كان الفقيه والسلطان جنباً الى جنب لمتابعة حركة وانتشار ونفوذ اطروحة الترف في المجتمع الإسلامي، ففي العهد البويهي مثلاً استقر وضع الفقهاء الشيعة على وجه الخصوص، عند القضاء والتأليف والتعليم مستفيدين من تلك الفرصة السانحة في تعزيز المذهب وعقيدة أهل البيت دون أن يكون لهم أي دور سياسي في مواجهة السلطة بل نكاد نقول انهم هادنوا السلطة وتعاملوا معها كضرورة وكأمر واقع مثلهم مثل سائر أهل السنة الذين خضعوا لضرورة الأمر الواقع، الا انهم منعوا من الخروج على الحاكم الجائر ودعوا الى طاعته، وهو ما عبّر عنه الحسن البصري بقوله: تجب طاعة بني أمية وإن ظلموا، والله لما يصلح بهم أكثر مما يفسد!، يقول كوثراني: «وبرز دور فقهاء الشيعة في ظل الزعيم البويهي، لا في تبرير شرعية هذا السلطان من الوجهة العقائدية، بل في حركة انتقالهم من حيِّز المجال السياسي الديني حيث كان يتطابق الجانبان في احتمال قيام إمام معصوم شرعي قبل الغيبة إلى حيّز علم الكلام وجمع الحديث حيث يجري السجال التاريخي حول أحقية علي في الإمامة، وحول كون الإمامة ركناً من أركان الإسلام، وحول عصمة الإمام. . . أي حول الأسس التكوينية النظرية لمعتقد الشيعة الامامية»[1].

وكان كلما ازداد الترف الديني والسياسي يزداد انحصار فقهاء الشيعة الذين كان أغلبهم ينتظر تحقق مشروع الإمامة المعصومة على المستويين

(١) وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، بيروت، دار الراشد، ط١، ١٩٨٩، ص٢١، وقارن مع أحمد محمود صبحي، في نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٩، ص٢٣.

الديني والسياسي، وحيث كانت تسنح الفرصة لعمل سياسي ما كان يخرج من الفقهاء الشيعة من يقول دعونا منه لما فيه من مفسدة ما دام الإمام غائباً، ولسنا هنا بصدد محاكمة الرؤى والمفاهيم التي كانت تدعو إلى مثل هذا الموقف من العمل السياسي، وعموماً من اقامة الدولة الاسلامية أو السعي في طلبها[1].

وكما قلنا: إن حركة الترف لم تتوقف عند حدود هذا العهد، بل شقت طريقها الى عهود السلاجقة والعثمانيين والصفويين، وقد عرض لنا وجيه كوثراني نماذج مهمة عن طبيعة التلاقي أو الخلاف بين الفقيه والسلطان في هذه العهود، وإن أكثر ما يلفت النظر في هذا البحث التاريخي القيِّم هو قبول الفقيه لمذهب القضاء في دولة السلطان بدءً من الماوردي وانتهاءً بعلماء كانوا عوناً للسلطة المستبدة في ايران آنذاك، فالسلطان أو وزير السلطان هو الذي كان يعين الفقيه أستاذاً بهذه المدرسة أو في تلك، وهذا الوضع أدى إلى أن يكون الفقيه عرضة لتبدلات السلطان أو موته وقيام غيره بالأمر فيبعد فقهاء ويقرب آخرين على أساس ما تقتضيه مصلحة السلطة لا مصلحة الدين!

إن أكثر مشاهد الترف اثارة للدهشة في تاريخ هذه العلاقة بين الفقيه والسلطان أن يتمكن هذا الأخير من استصدار فتوى ضد مسلمين آخرين، كما فعل نوح أفندي بن أحمد زاده شيخ الإسلام في عهد السلطان العثماني مراد الرابع الذي طلب اليه أن يفتي بجواز قتال الشيعة، فأجاز له ذلك بفتوى تقول: «إن هؤلاء الروافض هم عصاة وفساق ومرتكبو

(١) انظر: أبو الحسن الأشعري، مقالات الاسلاميين، بيروت، دار الحداثة، ج٢، ص١٢٥. (لا ـ ت) وقا: مع الغزالي، في احياء علوم الدين، بيروت، دار الهادي، ج٢، ١٩٩٣، ص٤٥٥. ورا: فرح موسى، سلطة الفقهاء وفقهاء السلطة عند الإمام الخميني، بيروت، دار الوسيلة، ط١، ١٩٩٥، ص١٤٠.

كبائر»(١).

والأكثر دهشة من هذا في تاريخنا الإسلامي أن يصل الأمر بالمترفين الى حد إباحة دم المسلمين الشيعة، أو على الأقل الحجر عليهم ومنعهم من المجاهرة بمذهبهم كما حصل لهم في العهد المملوكي، الذي أمر سلطانه أجهزته أن تمنع من تعليم ونشر المذهب الإمامي وملاحقة كل من يدعو اليه سواء أكان فقيهاً أو انساناً عادياً، يقول كوثراني: «نقل صالح بن يحي أمراً من السلطان المملوكي في العام ٧٦٤ هـ بمنع المذهب وملاحقة أتباعه في بلاد الشام، كما تعرض بعض فقهاء الإمامية الى التصفية والإعدام منهم حسن السكاكيني ٧٤٤ هـ، وعلى الماريداني ٧٥٥ هـ اللذان قتلا في دمشق، ومن أبرز فقهاء الإمامية الذين قتلوا: محمد بن مكي الجزيني (٧٣٤ ـ ٧٨٦ هـ) المعروف بالشهيد الأول»(٢).

أضف الى ذلك ما جرى لصاحب حكمة الأشراق السهروردي بوشاية من فقهاء (حلب)، وما جرى للشهيد الثاني زين الدين بن علي الجباعي، الذي قضى في عاصمة الدولة العثمانية بأمر من أعلى مراكز القرار فيها، لأنه اختار أن يسير عكس تيار عصره فيها، عاملاً من أجل وحدة المسلمين»(٣).

وإن الحديث ذو شجون فيما جرى لكثير من الفقهاء الذين أثروا حب الآخرة على ترف الدنيا وسلاطينها، ومثلما ذكرنا فيما سبق اننا لسنا بصدد البحث التاريخي عن الفقهاء وأدوارهم، بل بصدد التعريف والإشارة الى ان

---

(١) را: وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، م.س. ص٥٥.

(٢) ولد الشهيد الأول عام ٧٣٤هـ، واستشهد عام ٧٨٦هـ، بفتوى فقيه مالكي وتأييد فقيه أخر شافعي، انظر: العلاّمة، مرتضى مطهري، الإسلام وايران، بيروت، دار الحق، ط١، ١٩٩٣، ص٣٢٠، وانظر: الفقيه والسلطان م.س. ص٣٧.

(٣) انظر: الشيخ جعفر المهاجر، ستة فقهاء أبطال، التأسيس لتاريخ الشيعة، مركز دراسات المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، ط١، ١٩٩٤، ص١٣٣.

الترف الديني ساهم في تعزيز السلطة المطلقة، وفي اضعاف دور الفقهاء الذين أبوا مشاركة السلطان في القرارات التي كانت في كثير منها في غير صالح المسلمين، ولأجل أن ننقل صورة مشعة ومشهداً مثيراً من مشاهد الترف الديني نعرض لما كانت عليه بعض مدارس الفقه في الدولة العثمانية في أدبياتها وتزلفاتها، لقد جاء في مقدمة كتاب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية الذي وضع في عهد السلطان سليمان القانوني اهداءً للسلطان حمل العبارات التالية: «وقد وقع هذا الجمع في ظل دولة من خصّه الله تعالى بالالطاف السبحانية من سلاطين الدولة القاهرة العثمانية... خلاصة أرباب الخلافة في العالمين، شرف الإسلام، ملاذ المسلمين... مطاع الملوك والسلاطين، مطيع أحكام الشريعة والدين... الخ»[1].

ومن هذه المشاهد المثيرة حقاً ما أورده طاشكبري زاده في معرض الحديث عن شيخ الإسلام أبي السعود أفندي بمناسبة ارسال هذا الأخير جزءً من تفسيره الذي وضعه الى السلطان: «فقابله السلطان بحسن القبول وأنعم عليه وزاد في وظيفته كل يوم خمسماية درهم... وبعد ذلك تيسّر له الختام وقد أرسله الى السلطان ثانياً بعد اتمامه فقابله السلطان بمزيد لطفه»[2]، وعلق كوثراني على سيرة أبي السعود بقوله: «لقد أرسى أبو السعود عبر فتاويه التي رافقت سياسات سليمان خطاً في العمل المؤسس لوظيفة الافتاء، يقوم على تبرير السياسة السلطانية وتأكيد صفتها الشرعية...»[3].

إن التألف الذي كان بين الفقيه والسلطان في تاريخنا أدى إلى مزيد من الترف الديني والسياسي، وطبع الإسلام بطابع السلطنة، إذ ان الدين أو

(١) انظر: وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، م.س.، ص٣٥.

(٢) وجيه كوثراني الفقيه والسلطان، م.س.، ص٧٤، عن طاشكيري زاد، المتوفي ٩٦٨ هـ، (الشقائق النعمانية) ص٦.

(٣) م.ع. ص٨٣.

المذهب بالنسبة لكثير من الفقهاء كان السلطان، فحيث تكون السلاطين ـ بالنسبة لهؤلاء تكون المذاهب والأديان، وبالتالي تكون السعادة! انه ترف ديني متجدد باعتبار انه أرسى قواعده، وأنشأ مدارسه، وبث تعاليمه، وحدد أهدافه أن لا تكون هناك رسالة أو فتوى أو ثورة خارج السلطة ومن دون مباركة السلطان، وأبرز مثال على ذلك هو الصراع العثماني الصفوي (الايراني) الذي استعمل المذاهب والأديان والناس وقوداً في المعارك التي استمرت لقرون من الزمن، وقد شارك كثير من الفقهاء في دعم هذا الصراع وايجاد المبررات الدينية والشرعية له، وكانت النتائج ان حصد الاستعمار نتائجه بالهيمنة على اقتصاديات البلاد واقتطاع أجزاء كبيرة من البلاد الاسلامية سواء في الدولة العثمانية أو في الدولة الايرانية. . .

نحن يمكن أن ننظر الى تاريخ هذا الصراع، وإلى ما قام به الفقهاء في الدولتين من زاوية أخرى، فنقول: إن كثيراً من الفقهاء لم يخرجوا من دائرة السلطة حتى يخففوا من وطأة الترف السلطاني، بل دخلوا في دائرة السلطة وصنعوا لها الفتوى الإسلامية على ضوء ما استجد من مذاهب، مما أدى بهم إلى أن يكونوا شركاء لهم في الترف الديني والسياسي، هذا فضلاً عن شراكتهم لهم فيما استجد من بلاءات ومصائب سياسية واجتماعية!؟ ومَن كان يخطىء في تحليله بأن السلطان ما كان ليقوى على أمور الحرب والقتل والقمع. . لو لم يتمكن من استيعاب حركة الفقه؟

كان من الممكن أن يتعرض الفقهاء لمحن كثيرة وعذابات شديدة كما جرى لأحمد بن حنبل حينما رفض القول بقدم القرآن وكما جرى للميرزا الشيرازي حينما تعرض لرمية حجر على رأسه في سامراء عام ١٩٠٠ وحاولت السلطات البريطانية آنذاك أن تثير هذه المسألة سياسياً لاحراج السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، لكن الإمام (رض) رفض تدخل

السلطة البريطانية كيما يؤثر ذلك على وحدة المسلمين ويمنع من استغلال هذه الحادثة سياسياً[1].

نعم لو أصر الفقهاء على عدم الدخول في سياسة السلطان، لكان ذلك أدى حتماً إلى نجاة الدين والناس من كثير من التحريفات والبلاءات والصراعات التي مزقت الناس شر تمزيق، وهو ما لفت اليه ابن رشد في كتابه فصل المقال من أن الفرق الاسلامية منذ نشوئها تسببت بكل هذه الشرور التي حلت بالمجتمع الإسلامي، كونها نشرت وتوزعت واعتمدت في كثير من الأحيان كبديل للكتاب والسنة فيما كانت تقرره من عقائد وسياسات، يقول ابن رشد: «فأولت المعتزلة آيات وأحاديث كثيرة وصرحوا بتأويلاتهم للجمهور وكذلك فعلت الأشعرية وإن كانت أقل تأويلاً، فأوقعوا الناس من قبل ذلك في شنأن وتباغض وحروب ومزقوا الشرع وفرّقوا الناس كل التفريق»[2].

واعترافاً منه بما جرى للشريعة على يد المذاهب والفرق المسماة بالاسلامية يقول ابن رشد: «فإن النفس مما تخلل هذه الشريعة من الأهواء الفاسدة والاعتقادات المحرفة في غاية الحزن والألم...»[3].

لا بد أن تعترف البحوث العلمية والسياسية والفقهية أيضاً بأن الذي تسبب بالاستبداد السياسي هو الترف الديني والاستبداد الديني، ومثلما ان الترف الديني قد تسبب بكثير من الانحرافات سواء على مستوى الدين أو على مستوى السياسة، فإنه يمكن اعادة النظر، في التجارب التاريخية،

---

(١) انظر هذه الحادثة وما يتعلق بها من تفاصيل في كتاب الفقيه والسلطان، وجيه كوثراني، م.س. ص١٧٥.

(٢) ابن رشد، فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦، ص٥٥.

(٣) ابن رشد، فصل المقال، م.س.، ص٥٨.

وبالدور الذي لعبه كثير من الفقهاء بحيث يتسنى لأهل العلم مجدداً ملاحظة الأخطاء الجسيمة التي أوصلت الأمة الى هذا المستوى من الانحطاط والتخلف، باعتبار ان الأسباب التي أدت الى هذا الترف الديني لا تزال موجودة ويمكن أن تؤدي اليه في أية لحظة، وأعني بهذه الأسباب حب الدنيا والرياسة، فما لم يهجر أهل العلم حب الدنيا، فإن السياسة الفاسدة ستبقى متحكمة برقاب الناس وسيستمر السلطان في استبداده السياسي ما دام يوجد تحت مظلته من يبرر له مشاريع الترف، ويبارك خطواته على الصعد كافة.

إن صور ومشاهد الترف السياسي والديني تكاد لا تحصى، ولكننا اقتصرنا على نماذج من هذا الترف في التاريخ الإسلامي البعيد والقريب، وسنعرِّج الآن على الترف الديني والسياسي الذي تحكم بايران طيلة العهود الثلاثة، وأعني بها الصفوية والقاجارية والبهلوية لنبين انها كانت متماثلة مع الدولة العثمانية فيما كانت تعتمده من أساليب سياسية ودينية لتدعيم السلاطين واستثمار الدين في مشاريع الترف والاستبداد، ويكفي في هذا المجال أن نعرض لتجربة المشروطة والمستبدة في ايران ودور الفقهاء فيها لنرى ما إذا كان الفقه هناك قد قام بدوره الجاد والحقيقي بعيداً عن استبداد السلطة وترفها الديني والسياسي!؟

لا شك أن الفقهاء الشيعة دخلوا لعبة السياسة فيما سمي بالمشروطة والمستبدة، وقد تصدى ثلاثة فقهاء كبار في النجف الأشرف لدعم الدستور في ايران تأثراً منهم برياح التغيير التي وفدت الى العراق من الغرب، يقول عبد الحليم الرهيمي: «لقد توافد آلاف الطلاب والعلماء من ايران والهند وأفغانستان وسوريا ولبنان حتى بلغ عدد الطلاب الذين يدرسون في مدارسها قبل الاحتلال الانكليزي للعراق حوالي ١٢ ألف»[١].

---

(١) وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، م.س. ص١٧١.

وهذا التوافد على النجف كان لا بد أن يحمل معه أطروحات مختلفة ومفاهيم متعددة من بلادهم التي كانت تعج بالمشكلات الثقافية والسياسية نتيجة للاحتكاك بالغرب ومؤسساته، وكان لا بد أن تتفاعل هذه المفاهيم والأفكار في حوزة علمية كالنجف الأشرف التي كانت دائماً مسكن كبار العلماء والمجتهدين، وبخاصة المرجع الأعلى للشيعة في العالم. لقد نشأ عن هذا التوافد وهذا التفاعل في الأفكار، ما يمكن أن نسميه الكشف عن محاسن النظام الديمقراطي الدستوري المعاش في الغرب، وفي البلاد المحكومة دستورياً، ونظراً لما كانت تعيشه ايران من استبداد، ولما كان يقوم به مدحت باشا من اصلاحات في الدولة العثمانية، فقد رأى بعض الفقهاء أن ينظروا في الوضع الاسلامي في ايران بهدف ايجاد صيغة تحمي الناس من استبداد النظام، وكان من هؤلاء الفقهاء الشيخين المجتهدين: الملا كاظم الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني، ومجموعة من العلماء أبرزهم الشيخ حسين نائيني[1].

ولكن كما يقول الشهيد مطهري وكثير من العلماء الذين كانوا يعيشون الوضع الايراني، ويعرفون في تاريخه وتفاصيله[2]، لم تكن ايران مؤهلة لاستيعاب أية صيغة جديدة باعتبار ان شعبها، نتيجة لنفوذ الفقهاء في أوساطه، كان يعيش الاسلام فكراً وسلوكاً، وهذا ما دفع بعض الفقهاء الى رفض المشروطية لما تعنيه من تمويه وخداع!، وبما ان موضوع بحثنا هو الترف الديني والسياسي، فإننا نريد النظر فيما آل اليه الصراع الفقهي بين فقهاء النجف، والفقهاء الذين لم يروا بالدستور إلا تأجيلاً لمشكلة يمكن أن تنفجر في أي وقت، كونهم كانوا على علم بما كان يطمح اليه السلطان

(١) وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، م.س. ص١٨٢.
(٢) انظر: مرتضى مطهري، الاسلام ومتطلبات العصر، بيروت، دار الهادي، ط١، ١٩٩٣، ص١٢٧.

القاجاري آنذاك بدعم من حلفائه الأجانب، هذا الانقسام أدى إلى صراع بين علماء المؤسسة الدينية المعينين من قبل السلطان الذين أصدروا أحكام التفكير بحق من يعارض الشاه، وبين فقهاء الدين المستقلين، بمعنى آخر نقول: إن الصراع كان له ثلاثة وجوه وجه عبر عنه فقهاء النجف الذين دعوا الى الدستور، ووجه آخر عبر عنه فقهاء ايران الذين كانوا خارج مؤسسة السلطان وضد الدستور، ووجه ثالث عبر عنه علماء مؤسسة السلطة المؤيدين للشاه، هكذا يمكن وصف ما كانت تعيشه ايران من صراعات دينية وسياسية، والمفارقة الأساسية فيما بين الدولتين العثمانية والايرانية هي انه بمقدار ما كان السلطان السياسي نافذاً في الدولة العثمانية، كان الفقيه نافذاً في الدولة الايرانية، أي أن فاعليه وتأثير أي خطاب في الدولة الايرانية كان لا بد من توجيهه إلى الفقهاء لما كانوا يتمتعون به من تأثير ونفوذٍ في أوساط الناس، خلافاً لما كان عليه الوضع من الدولة العثمانية التي كان لا بد من توجيه الخطاب فيها الى السلطان، والحق يقال انه كان يوجد في كلا الدولتين فقهاء في خدمة السلطان، إلا انِ الأكثرية الساحقة منهم كانت مستقلة عنه وخاصة في الدولة الايرانية. إن ما يهمنا من هذا هو تحكمات الترف الديني والسياسي في الدولة الايرانية التي برز في النجف من العلماء مَن يتهم بعض الفقهاء بأنهم يمارسون الاستبداد الديني بحق شعوبهم، ويساهمون في تمكين السلطان من الاستبداد السياسي، وقد عبر النائيني عن هذا بقوله: «وقامت شعبة الاستبداد الدينية، باسم حفظ الدين، وتقدمت عبدة السلطان، باسم حب الدولة، وشهر كل من سائر أولئك الأنذال سلاحه، وحملوا حملة واحدة على هذا الركن الركين فردوا أحكام حفاظ الدين المبين واندرجوا تحت عنوان (فانما بحكم الله استخف وعلينا رد الراد علينا راد على الله وهو في حد الشرك بالله) وحدود وأقضية نكثت طائفة وزهقت أخرى ومرق

آخرون»[1].

وقد ادّعى وجيه كوثراني ان الذين عارضوا الحركة الدستورية وعلماءها في النجف وايران، يشبهون أولئك الذين تصدوا للدستور في العهد الحميدي كأبن الهدى الصيادي، وقد بينا في كتابنا سلطة الفقهاء ان المقارنة بينهما غير دقيقة وتفتقر إلى الدقة العلمية لما بين الفقهاء من اختلاف في التوجه والانطلاق والاجتهاد[2].

إذن الشيخ النائيني يحدثنا عن تعاضد الشعبتين الدينية والسياسية، ويرى في الاستبداد الديني خطراً أكبر وأعظم من خطر الاستبداد السياسي «ويعتبر علاج هذه القوة بعد علاج سابقتها من أعسر الأمور وأصعبها وذلك لشدة رسوخها بالاذهان والقلوب... وقد أظهرها المنسلكون في زي الرياسة الروحية بعنوان الديانة وخدعوا الشعب الجهول لفرط جهالته وعدم خبرته بمقتضيات دينه بوجوب طاعتهم...»[3].

وبما اننا لا نسلم مع الشيخ النائيني بأن الذين عارضوا الدستور كانوا مستبدين دينياً، وانما كان رفضهم مرتكزاً إلى فهم واجتهاد أثبت لهم ان الدستور الوافد من الأجانب ليس حلاً للتخفيف من وطأة الاستبداد السياسي، فكذلك عدم تسليمنا معه فيما ذهب اليه حول الاستبداد الديني لا يمنعنا من التسليم معه بأن المجتمع كان يحتوي على كثير من المعممين الذين لبسوا زي العلماء لغاية الإفساد والتبعية؟!

إن مجرد الاعتراف بشعبة الاستبداد الديني المتآلف مع الاستبداد

---

(١) الإمام النائيني، مجلة الغدير، عدد ١٢ ـ ١٣، تصدر عن المجلس الشيعي، ص١٢٣.

(٢) راجع كتابنا، فقهاء السلطة، وسلطة الفقهاء، بيروت، دار الوسيلة، ١٩٩٥، ط١، ص٧٢.

(٣) انظر: العلاّمة النائيني، م.س. ص١٢١.

السياسي يكفينا لاثبات ان الترف الديني كان ولا يزال عمدة الاستبداد السياسي، ولكن الشيخ النائيني قد يكون أخفق في تشخيص من يمثلون شعبة الاستبداد الديني في ايران، لأن التجربة أثبتت صحة وسلامة ما ذهب اليه المجتهد الأكبر كاظم اليزدي الطباطبائي وكل الذين عارضوا الدستور (من خارج دائرة السلطة)، وذلك حينما لم تفلح الديمقراطية وكل القوانين الوافدة من الخارج في اصلاح الوضع السياسي في ايران إلى أن جاء الإمام الخميني في اطروحته الاسلامية الملائمة تماماً لما يعيشه الشعب الايراني من مبادىء وأهداف وغايات اسلامية بعيدة عن الشرق والغرب معاً. .

بناء على ما تقدم، نحن نرى ان الثورة التي قام بها الشيخ النائيني ضد شعبة الاستبداد الديني كانت مبتنية أساساً على رؤية واضحة لما ينبغي ان يكون عليه المسار الديني في المجتمع، وإن كنا لا نوافقه فيما ذهب اليه لجهة حصر شعبة الاستبداد بالمعارضين للدستور، كما في قوله: «في ابتداء ظهور الديمقراطية في ايران. . . أي حينما كانت حقيقة الديمقراطية وراء الستار وحينما كان يظن أن سلب الاستبداد مخصوص برؤساء الحكومات فقط وان هذا الأمر مخصوص بهلاك الجيران لا غير، كانت جميع طبقات المعممين الغاصبين لزي العلماء والملاكين وغيرهم تبذل جميع جهدها في اقامة هذا الأساس وتنفق جميع مساعداتها في تنفيذ هذا المشروع حتى إذا ما ارتفع الستار وتجلّى النهار، وعرفوا روح المطلب وحقيقة الديمقراطية قلبوا ظهر المجن وأظهروا من حقدهم ما يشيب له فود الرضيع»[1].

انك أمام نص يمكن أن يوسم به أولئك الذين دعموا السلطان ضد الحركة الدستورية، لأنهم كانوا يرون في الدستور تقييداً لصلاحياتهم، وتحجيماً لترفهم الديني والسياسي، ولكنه لا يصح أن يوسم به أولئك

---

(١) انظر: النائيني، مجلة الغدير، م.س. ص١٢١.

الفقهاء الذين لم يكونوا إلا في خدمة الإسلام.. من أمثال كاظم اليزدي، وفضل الله نوري الذي ذهب ضحية المشروطية حينها، وكما يقول الشهيد مطهري (رض): «وتفيد القرائن أن الذين عارضوا النظام الدستوري كانوا يقولون ان هذا النظام المراد تطبيقه هو غير النظام الذي يتحدثون عنه، فهو ليس نظامه دستورياً شرعياً كما سوف لا يكون كذلك، ومن هؤلاء كان المرحوم الشيخ فضل الله نوري الذي كان رجلاً عظيماً ومجتهداً مسلَّماً باجتهاده»[1].

فالترف الديني موجود وقد تجلى في كل عصر ومصر، ولا يزال يحكم مدارسنا الفقهية والعلمية الى اليوم، فما لم يتحرر العلماء من الترف وهو الدنيا، وإذا لم يطرحوا الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حكم بحيث يكون بديلاً لكل الأطروحات سواء أكانت من صناعة محلية أو صناعة وافدة من الخارج، وإذا لم يخرجوا من دائرة السعي وراء المصالح والرياسات، ومن دائرة التحزب المذهبي والطائفي، فإنهم لن يستطيعوا، كما في السابق، أن يحققوا أدنى تقدم على مستوى حضور الإسلام الحقيقي في المجتمع، وكذلك لن يتمكنوا من تخليص أنفسهم من ربقة السلطان كوريث حقيقي للاستبداد الديني والسياسي معاً منذ معاوية وحتى عصرنا الحاضر.

لقد أرشد الإمام الخميني الى حقيقة ما ينبغي القيام به من قبل علماء الدين، والإمام ـ كما نعلم جميعاً، قرأ وبدقة تجارب الاستبداد الديني والسياسي وعرف مواطن الخطأ، ومقاتل الأمة، وأدرك أسباب المصائب التي وقعت على المسلمين تحت شعارات شتى في الدين والسياسة، وارتفع فوق الدستور ليلامس حقيقة الاسلام المحمدي الخالد، ومن موقعه هذا استطاع أن يرشد وينصح العلماء والفقهاء بأن يبتعدوا عن الترف في الحياة

(١) مرتضى مطهري، الاسلام ومتطلبات العصر، م. س. ص١٣٠

الدنيا، لأنه يؤدي إلى أن يكون الدين مشروعاً مستثمراً في مشاريع الترف الدينية والسياسية، يقول الإمام الخميني: «أعرضوا عما ضمن لكم في هذه الحياة الدنيا، وزكوا أنفسكم، واتقوا ربكم واتكلوا عليه، وإن كنتم ـ لا سمح الله ـ انما تدرسون علوم الدين لتترفوا في الحياة، فأنا أؤكد لكم انكم لا تبلغون من الله شيئاً، ولا تنالون لديه مقاماً محموداً، والله سيحرمكم من التوفيق الى فضيلة الاجتهاد والفقه والبصر في أحكام الدين، ولستم بذلك أمناء الرسل ولا ورثة الأنبياء، ولا حصون الإسلام... اتركوا زخارف الحياة، واكتفوا بعيشة الكفاف ليقتدي الناس بكم في عفة نفوسكم»(١).

إن سلامة الدين على مستوى العقيدة والتشريع لم تستمر مع السلطان ومن لاذ به من الفقهاء، أو مع المترفين الذين اتخذوا من الدين شعاراً، وإنما استمر الدين حياً مع العلماء العدول الذين أسسوا للثورة ضد الظلم والظالمين، وقد تعرّض هؤلاء العلماء إلى كثيرٍ من المحن والمصائب في سبيل إبقاء تعاليم الدين حيَّةً في المجتمع الإنساني. كما أن وجود هؤلاء العلماء قد حال دون إفساد عقائد الناس بما تمكنوا من المحافظة عليه في ظل حكم الإستبداد والترف. إن العلماء بالله، وإن كانوا قلَّة، فقد استطاعوا توجيه النقد إلى كل رجال الدين الذين دأبوا على تسويغ مشروع السلطان السياسي، يقول الملا صدرا: «لقد اتهموهم وتوجهوا بالنقد إليهم لما رأوه من انكبابهم على تحصيل الجاه والرياسة، وتمشية أغراض الملوك في ما لا يجوز... فانظر إلى ما يقاسيه في نفسه ومجتمعه العالم بالله والمجاهد في سبيله»(٢).

---

(١) انظر: الإمام الخميني، الحكومة الاسلامية، طبعة النجف الأشرف، (لا ـ ت) ص١٤٤.

(٢) انظر: الملا صدرا، مفاتيح الغيب، م. س، ص٧٣.

بين المستبد الجائر والمترف الديني

إن مما يدل على أن للترف دوراً كبيراً في إهلاك الجماعات والمجتمعات البشرية، هو ما أرشدت إليه جملة من الآيات والأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ، حيث تبين أن الحكام الذين أترفوا وطغوا ما لم يحكموا بما أنزل الله، ويهتدوا بما شرعه الله تعالى لهم من قوانين ومبادىء أخلاقية واحكام دستورية، فإن قيادتهم وقراراتهم ستكون وبالاً على المجتمع الذي ألقى إليهم مقاليد أموره، وما من شك أن السبب الرئيسي الذي يحول دون أن يكون هؤلاء حكاماً عدولاً ومهتدين بشرع الله تعالى هو الترف الذي يدفع بالحاكم إلى أن يستبد بالناس، وهو غالباً ما يتعنون بحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة[1].

كما أن حديث رسول الله ﷺ الذي يتحدث فيه عن أسباب تداعي الأمم على المسلمين رغم كثرتهم، هو أيضاً ناظر إلى هذا المعنى، أن حب الدنيا يكبر ويعظم عند الإنسان حينما يستغرق في الترف لدرجة أنه لا يقدر

(١) يقول الإمام علي عليه السلام: «إلا ومن لهج قلبه بحب الدنيا التاط قلبه منها بثلاث همّ لا يغبه وحرص لا يتركه وأمل لا يدركه» نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٢٨.

على رؤية شيء وراء الثروة والمال. والحق يقال ان أكثر الناس تعرضاً لهذا الترف وطلباً له هم الحكام ورجال السياسة وقد أنضم إليهم في تاريخنا الإسلامي، وفي عصرنا الحاضر عدد كبير لا يستهان به من رجال الدين الذين يفترض فيهم أن يكونوا أطباء للناس يداوونهم مما قد يصيبهم من أمراض الترف وحب الدنيا وقدوة للناس في القول والفعل باعتبار انهم وُضعوا في مقام الامتداد للنبوة والوارثة لها على مستوى العلوم والأحاديث وليس على مستوى الدرهم والدينار لما بينه رَسُول الله ﷺ بقوله: «العلماء ورثة الأنبياء»[١].

وكما ورد في صحيحة قداح: «ان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم»[٢].

إذن الترف له دخالة كبيرة في تسافل الناس سواء أكانوا حكاماً أم بشراً عاديين، تسافل على مستوى الاعتقاد والأخلاق والقوانين والمبادىء فضلاً عن تسافل السياسة الذي يدفع بالحاكم والقيادات إلى ممارسة الظلم والاعتساف، وقد قيل انه إذا أردت أن تعرف أوضاع قوم في الشؤون كافة فانظر إلى مستوى الاعتقاد والاخلاق، لأن الاعتقاد، هو في الحقيقة دليل على ما يتمتع به مجتمع الإنسانية من عقل ووعي وبصيرة، وهذا ما عبر عنه العلامة هبة الدين الشهرستاني بقوله: «إن الاعتقاد هو المحرك الأول نحو الفعل والمهيىء الأول لقبول الأثر، وللأخلاق والعواطف المنزلة الثانية من التأثير والاعداء مهما كانت قوية التأثير، فالإعتقاد هو العامل الأول وله أثر عظيم في تقدم الأفراد والأمم والمدخلية العظمى في تسافل الإنسان وفشل

(١) انظر: الملا صدرا، شرح اصول الكافي، كتاب فضل العلم وكتاب الحجة، طهران مؤسسة مطالعات، ص٨٨.
(٢) انظر، الإمام الخميني، كتاب الحكومة الاسلامية، م. س. ص٩٨.

أعماله، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بحسن الإعتقاد، وكم تدهورت أمم عظمى في هوة الانقراض من سوء الاعتقاد»[1].

نلاحظ أن جملة الآيات التي تم استعراضها عن طريقة تعامل الأنبياء مع أقوامهم، قد بدأت: ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾ وهذا دليل على أن النبوة جاءت لتصحح اعتقادات الناس، وتزرع فيهم أخلاقاً جديدة، وتعلمهم كيف يقولون القول السديد حتى يغفر الله لهم ذنوبهم ويصلح لهم أعمالهم... وكان أول مَن تصدى للنبوة هم أهل الترف كما بينا، وأعني بهم الحكام، وهو ما دلت عليه الآية المباركة ﴿**واتبعوا امر كل جبار عنيد**﴾[2].

إن الحاكم المستبد يهمه كثيراً أن تكون اعتقادات الناس واخلاقهم متسافلة لأن ذلك يعزز فرص بقائه رأساً مدبراً، وحاكماً مستبداً، ويسهّل عليه إشاعة المعتقدات الفاسدة والخرافات والأساطير وغيرها مما يُبقي على حالة الجهل والعماء في المجتمع، فإذا ما تنورت الرعية بنور العلم، فإنه يصبح من العسير جداً على الحكام الاستخفاف بالناس، أو الاستمرار في تجهيلهم على النحو الذي يُبقي لهم الزعامة والرياسة، وهذا ما عبر عنه الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد بقوله: «ما أشبه المستبد في نسبته إلى رعيته بالوصي الخائن القوي على أيتامٍ أغنياء، يتصرف في اموالهم وانفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما انه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الإيتام رشدهم كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم»[3].

---

(١) انظر: الشيخ المفيد، تصحيح الاعتقاد، تعليق هبة الدين الشهرستاني، منشورات الرضى، قم، ١٣٦٣هـ، ص١٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٩.

(٣) الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد، بيروت، دار النفائس، ط١، ١٩٨٤، ص٥٠.

وما دام هذا البحث قد تعنون بالمستبد الجائر والمترف الديني لغاية أردناها ألا وهي معرفة ما إذا كان هناك ثمة فرق بين الحاكم الجائر في زمن النبي موسى عليه السلام وبين الحاكم الجائر في زماننا هذا؟

وهل الحاكم المتصف بصفة الجور تختلف أقواله وأفعاله بين زمن وآخر!؟

وما هو الفرق بين أن يقال حاكم جائر، وحاكم مترف؟.

بين المترف والجائر:

في سياق الحديث عن حكومة الجور الحديثة لا بد من استحضار صور ومعاني حكومة الجور التي تعاقبت على حكم المجتمع الإنساني منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا. وقد أشرنا فيما سبق من أبحاث إلى أن القرآن وسائر الكتب السماوية تحدث عن حكومة الجور تحت عنوان الترف كما في قوله تعال: ﴿**إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون**﴾، أي قادة الشر في كل مجتمع انساني، والشر لا يتحكم بمجتمع ما فيما لو كانت تحكم هذا المجتمع حكومة عادلة، فهناك تلازم قوي بين حكومة الترف أو الجور وبين سيادة الشرور في المجتمع الإنساني، بل يمكن القول إن مصطلح الترف (المترف)، أعم من مصطلح الجور (الجائر) باعتبار معناهما اللغوي، فالأول انما المقصود به التنعم الزائد[(١)]، والمترف هو المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها، بينما الجور، فهو نقيض العدل، فيقال جار يجور جوراً، والجور ضد القصد، ومنه الحديث: «حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخش إلا جوراً، أي ضلالاً عن الطريق، وقال ابن الأثير، هكذا روى الأزهري... وفي رواية لا يخشى جوراً بحذف إلا، فإن صح فيكون الجور

(١) لسان العرب، م. س. ج١، ص٤٢٩.

بمعنى الظلم، وقوله تعالى: ومنها جائر»[1].

إن المترفين الذين كفروا بما جاء به الأنبياء، وقالوا نحن أكثر اموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين لم يكونوا متوسعين في ملاذ الدنيا فقط وكافرين بأنعم الله تعالى، بل كانوا إلى جانب ذلك حكاماً أيضاً وجائرين يحكمون بالظلم ويسومون الناس سوء العذاب، ويقطعون أيديهم وأرجلهم من خلاف كما بين القرآن في حديثه عن فرعون، وهامان ومن تبعهما من الناس. . . غاية الأمر في بيان الفرق بين الجور والترف ان الجور قد لا يكون عاماً، فقد يكون هناك انسان جائر في الحكم وظالم لنفسه وللناس، ولكنه لا يتدخل في عقائد الناس، وفيما يختارونه لإنفسهم من مبادىء وأخلاقيات وغير ذلك مما لا يرى فيه الجائر خطراً عليه من قبيل هذا ما ذكره الإمام الخميني (قده) من أن أحد قادة الاحتلال البريطاني للعراق حينما سمع المؤذن في المسجد سأل عن الضرر الذي يسببه هذا الأذان للسياسة البريطانية، فلما أخبر بأنه لا ضرر من ذلك قال: «فليقل ما شاء ما دام لا يتعرض لنا»[2].

فالحكومة الإنكليزية التي كانت محتلة في العراق، هي دون شك حكومة جائرة مستبدة، إلا أن جورها وظلمها لم يحملاها على التعرض لمساجد الله تعالى بحيث تمنع الأذان أو الصلاة ما دامت العبادات لا تترجم إلى عمل سياسي وعسكري ضد جنودها ومصالحها في العراق، ومن هنا قد يصح القول أن الجور هو أحد أبعاد الترف، وفي مقام التمييز وشرح الأبعاد التي يمكن الإشارة إليها في بيان معنى الترف نستطيع القول بأن المترف هو الذي يجد نفسه مضطراً للتدخل في عقائد ومبادىء ومعاملات وأخلاقيات الناس، ويلجأ إلى منعهم بالقوة عن أن يتخذوا لإنفسهم شيئاً من ذلك بمعزل

---

(١) م. ع. ج١، ص٧٢٢.

(٢) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية، م. س. ص٢١.

عن موافقته مثلما فعل فرعون وغيره من الذين أترفوا في الحياة الدنيا، ولهذا نرى الحوار القرآني بين النبي وقومه أخذاً الاعتقاد وتصحيحه كأساس وكأولوية لعمل المبلغ، وكان لسان حال المترفين دائماً يقول رداً على أطروحة النبوة: ﴿**أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وان نفعل في أموالنا ما نشاء**﴾[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿**قال فرعون أمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأُصلبنّكم أجمعين، قالوا إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن أمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنى مسلمين، وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . . .**﴾[2].

ولئن كان المترف أقوى على القتل والاستبداد وممارسة الطغيان، إلا أنه يستوي في كثير من اموره وشؤونه مع الجائر، واجرأ من الجائر على الكفر والإلحاد وقتل الصالحين من عباد الله سواء أكانوا أنبياء أو أئمة يهدون إلى أمر الله وسبيله، وغالباً ما يكون الجور سبيلاً للترف، وإذا كان هناك من الجائرين مَن لم يبلغ به الجور درجة الترف وعبادة الأصنام والأموال والأهواء من دون الله تعالى، فذلك شاذ جداً، وكما نعلم أن الشاذ لا يصلح أن يكون قاعدة للحكم على الأشياء، أو لبيان الفرق بين الجائر والمترف، وقد لحظ القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿**وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين**﴾[3]، فهذه الآية تميز بين المترفين الذين

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٧.
(٢) سورة الأعراف، الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩.

أشركوا بالله وكفروا بأنعم الله واتخذوا من دونه أرباباً، وبين الجائرين الذين لم يبلغ بهم الشرك والكفران حد الترف وعبادة ما كان يعبد الآباء، وإلى الرأي والدين المائل المعوج أشار سبحانه بكلمة جائر، وكل ما مال فقد جار وظل،[1]، وقد فسرها ثعلب: فقال: «يعني اليهود والنصارى»[2]، فهؤلاء ليسوا كالمترفين من حيث الاعتقاد والاخلاق والسلوك باعتبارهم أهل كتاب، ولكن الأصرار على الميل والجور وترك القصد في الاراء والمعتقدات لا بد أن يؤدي إلى الضلال والترف، كما حصل لليهود في تاريخهم، حيث أدى بهم الجور والترف والظلم والطغيان إلى قتل الأنبياء واتهام الله في عدله وغناه وقالوا بأن الله فقير وهم الأغنياء، كما في قوله تعالى: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء**﴾[3]، وهذا هو معنى الجور المؤدي إلى الترف بكل أبعاده.

---

(١) لسان العرب، م.س. ج١، ص٧٢٢.

(٢) لسان العرب، م، س، ج١، ص٧٢٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

الأمة بخير ولكنها مترفة

اذا قلنا بأن المجتمع الإنساني عرضة للنبوة مثلما هو عرضة للترف، وبأن التاريخ يعيد نفسه وتتكرر أحداثه سواء على المستوى النظري المفهومي، أو على المستوى التطبيقي العملاني، فذلك معناه أننا نحتم استمرار هذه العلاقة الجدلية السلبية بين موقع النبوة وموقع الترف في كل زمان، وبما أن النبوة ليست فقط مجرد وصايا وارشادات ومبادىء أخلاقية، وانما هي بالاضافة إلى ذلك صاحبة مشروع متكامل في الدين والسياسة، فكذلك الترف ـ بما هو عنوان للجور والظلم ـ ليس هو مجرد تعبير عن بعض الاعتقادات والخرافات المضللة، وانما هو، فضلاً عن أنه كذلك ـ يحمل مشروعاً سياسياً قوامه الاستبداد والاستخفاف، كما في قوله تعالى: **﴿فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين﴾**[١].

إذن المسألة ليست مجرد اختلافات نظرية مفهومية يمكن حسمها عن طريق الجدل والمناظرة، بل تتعداها إلى الواقع الاجتماعي والسياسي وتترك أثارها فيه، وإذا سلمنا بأن المسألة السياسية في المجتمع كانت ملاحظة في

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.

الصراع بين المترفين والنبوة، فلا بد أن نسلم أيضاً بكل النتائج التي يمكن أن تترتب عليها سواء مال الناس إلى هذا الجانب أو ذاك، بل لنقل إلى الحق أو إلى الباطل. فالواقع الاجتماعي السياسي، وعموماً الحياة العامة للناس، هو ساحة الصراع وميدانه، وذلك يحتم أن تكون للواقع انعكاسات سلبية أو إيجابية بسبب هذا الصراع بين النبوة والمترفين.

هناك اليوم مَن يحمل أطروحة الترف ويدافع عنها تحت عنوان الحضارة وهناك مَن يحمل أطروحة مناقضة لروح هذه الحضارة. ويجاهد في سبيل تحقيق الواقع بالرسالة المقدسة التي جاء بها الأنبياء، وكون هذه الأطروحات مختلقة ومتناقضة في الجوهر، فلا يمكن التوفيق بينها والتخفيف من وطأتها في الواقع الاجتماعي، مما يؤدي إلى اختلالات وسلبيات قلما ينجو منها المجتمع، وهو مؤهل لأن يتلقى هذه الأطروحات بكل تناقضاتها لعدم قدرته على التمييز بين ما هو حق وما هو باطل فيها، فهو يأخذ من هذا ضغث ومن ذاك ضغث فيضمهما إلى بعضهما البعض، فيشكلوا له أطروحة ثالثة هي مزيج من كل ما تلقاه وتعلمه من خارج دائرة نفسه...، ولهذا نراه اليوم غير قادر على حسم الموقف في عالمه نتيجة لهذا الواقع المعاش في العالمين العربي والاسلامي، بل في العالم كله؟!

فالحكومة الجائرة لا شك هي تحمل مشروعاً خاصاً بها، وترى ضرورة ان يتبنى المجتمع هذا المشروع سواء أكان يتفق مع رؤية المجتمع ومصالحه أم لم يكن متفقاً، إذ ان معيار الحق عند هذه الحكومات اليوم ان يكون الإنسان مطيعاً لها ومسوغاً لمشروعها، وكل ما عدا ذلك فهو الباطل بعينه...!؟

وقد نشأ عن هذه الفلسفة، وهذه الرؤية مفهوم جديد للسلطة سبق للغرب أن عبر عنه بالروح المطلقة والدولة المطلقة التي هي السيد بالنسبة

للمواطنين العبيد، فهي دولة مقدسة تعطي الشرعية لكل شيء ولا تأخذ الشرعية من أحد، وما لم يكن الإنسان عضواً في هذه الدولة، فلن تكون له موضوعية، ولا حقيقة، «والواجب الأسمى ـ كما يقول هيغل ـ أن يكون الأفراد أعضاء في الدولة. . . أو بالأحرى ليس هناك تبادل إلا بين حقوق الدولة وبين واجبات المواطنين، فالحق الوحيد الذي للفرد اتجاه الدولة هو أن يحترم القوانين»[1].

إن مفهوم الدولة الجائرة، والحكومة الجائرة عن نفسها من حيث هي دولة مطلقة ومقدسة، هو أن تكون مترفعة على المواطنين، فإن أبو ذلك فلن تكون لهم أية حقيقة خارج الدولة والحكومة، والواجب المقدس يقضي بتقديم الطاعة لها باعتبارها الهاً، ومما لا شك فيه أن مفاهيم كهذه لا بد أن تترشح عنها سياسات في التربية والتعليم والتنمية وغير ذلك مما تعتبر الحكومة مسؤولة عنه بالدرجة الأولى، فإذا كانت هذه الحكومة صانعة لدينها، ومؤلهة لنفسها فما يكون معنى السياسة سواء أكانت تربوية أو تنموية أو اجتماعية أو اقتصادية أو تعليمية؟!

وهل كان لقارون وفرعون وهامان غير هذا المعنى؟

وهل كان للمترفين في كل زمان غير هذا المعنى؟

إن الموجود في عالمنا اليوم من مفاهيم وسياسات، هو في الحقيقة ارتداد فعلي أو لنقل خروج فعلي من دائرة النبوة إلى دائرة الترف!!

هناك من المفكرين مَن يقسم العالم إلى مجتمعات وعوالم الأول والثاني والثالث، ويتحدث عن استعمار جديد في العالم، ويطرح الأسئلة

---

(١) هيغل والمجتمع، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص٦٠.

الكثيرة حول الأسباب التي مكنت شعب من الشعوب من صناعة حضارته، لكن ذلك كله ينحصر في دائرة بحثنا باعتبار أن الشعوب المتخلفة اليوم كانت متحضرة في الماضي وقد تتمكن في المستقبل من صناعة حضارتها المادية، فالمشكلة لا تكمن في أن هذا الشعب عنده حضارة أم لا، وانما هي في طبيعة الإنسان، وفي مدى قبوله أو رفضه لما يجعل منه انساناً على مستوى المادة والروح معاً، ومن هنا نقول: إن حضور النبوة في حياة الناس يبقى الشرط الأساسي لبناء حضارة الحق والعدل والروح، وحينما تغيب النبوة لا بد أن يغيب معها الإنسان حتى ولو كان على حضور مادي قاهر، كما في قول فرعون: ﴿**وإنا فوقهم قاهرون**﴾[1].

فالقهر الفرعوني الحضاري هو في الحقيقة انعكاس لما كان عليه فرعون من مادية وثروة وحضارة، إلا أن ذلك لم ينفعه، وجاءت النبوة لتنفي فرعون وقهره، وتثبت موسى وعزه في الدنيا والآخرة. . .

إننا على ضوء ما تقدم من كلام في شؤون العالم الروحية والمادية ننظر إلى ما هو عليه العالم اليوم من تقسيمات، ولا نستطيع أن نسلم بهذا التقسيم المادي للشعوب، لأن هذا التقسيم قائم أساساً على ما تحقق من تقدم مادي، وانطلاقاً من قوله: ﴿**وإنا فوقهم قاهرون**﴾ التي ترددها الولايات المتحدة الأمريكية ـ فرعون هذا العصر ـ ومَن يدور في فلكها في مواجهة أنصار النبوة، والحق يقال: انه توجد في عالمنا المسمي بالعالم الثالث واحات نور يظهر فرعون هذا العصر التجاهل لها وقلة أهميتها وضعف شوكتها ويسميها بالماضي البعيد والظلام الكثيف، ولكنه في عقله الباطني يرى فيها أمل المستقبل وروح الحياة، مثلما نرى فيها نحن أنها عصى موسى القادمة، وكلمة عيسى ونور محمد ﷺ . . !؟

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

إذن التقسيم بلحاظ المعنى الروحي يختلف عن التقسيم بمعناه المادي، فمن لديه عقلية الترف فلا يسعه إلا أن يسلم بالتقسيم الفرعوني خلافاً لمن يعيش معنى النبوة بكل أبعادها فهو يعتبر نفسه خلاصة العالم وجوهرة الزمان لما يمثله من قيم ومبادىء وأهداف سامية وأخلاق نبيلة، سبق للجميع أن سلموا بضرورتها لبناء عالم متوازن لا ترف ولا طغيان فيه.

إن ما تقدم من أسئلة وتعقيب حول تقسيم العالم كان لا بد منه في اطار البحث عن انعكاسات الواقع السلبية التي يتسبب بها الترف الحاكم والسياسات الظالمة، وكما قلنا: إن حكومة الجور والظلم لا بد أن ينبثق عنها سياسات ترف، وما نعيشه اليوم في العالم، وخاصة في العالمين العربي والاسلامي هو خير دليل على ذلك، باعتبار أن الحكومة الجائرة هي التي تختار القلم والكتاب والبحث وكل ما له أثر في تكوين العقل العلمي والثقافي في مجتمعنا، يقول الشيخ شمس الدين: «إن إطار الحاكمين غالباً ما يمثلون رسل الحضارة الغربية في مجتمعاتهم، وتتفق مصلحتهم مع تطبيق الحضارة المادية في حياتهم... فالإنسان العادي في هذه الأزمة ليس أكثر من موضوع، وحقل للتأثر والإنفعال... هو يرى البرنامج السينمائي، ويسمع الراديو وقد اختاره غيره، ويقرأ المجلة والكتاب المطبوعين وقد صمم نمطهما الفكري غيره، إذن حقل الأزمة الحضارية في الفكر يرتبط أكثر ما يكون في اطار الحاكمين»[1].

نلاحظ أن النص يعترف بعمق وتأثير الحضارة الفرعونية في حياتنا وعلى عقولنا، ويذهب إلى أكثر من ذلك فيصرح بأن الحاكمين هم رسل الحضارة الفرعونية، وهذا ليس له إلا معنى واحد وهو غياب النبوة من حياتنا

---

(١) انظر: فرح موسى، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة عند الشيخ شمس الدين، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٤، ص٢٩٠.

وسيادة حياة الترف جميع الأفراد والطبقات، «فبدأ هذا الترف ينهش في خلايا الأمة حتى قضى عليها تماماً. . .»[1].

إن من يريد نفي الفرعونية وتثبيت معنى النبوة في حياته لا يمنع الناس من أن يختاروا الكتاب والبحث والفيلم الذي يتضمن أحاديث وأخلاقيات وسلوكات وسياسات وتجارب الأنبياء مع اقوامهم، لأن ذلك يتنافى مع حرية الإنسان، هذا فضلاً عما يعنيه من خروج من دائرة النبوة إلى دائرة الترف، كما أن انعكاسات الواقع السلبية كلها تشير إلى أنه لم يعد في حياة العرب والمسلمين الذي يفترض فيهم أن يكونوا امتداداً للنبوة ما يؤكد حضور النبوة واهدافها وتعاليمها، بل يوجد كل ما ينافي أطروحتها، ولا يقتصر الأمر على التدخل فيما يؤدي إلى تكميل العقل وتهذيب النفس، بل تعداه إلى محاربة كل المدارس والأكاديميات التي تحمل فكرة النبوة! تلك هي حال مجتمعاتنا في ظل حاكمية رسل الحضارة الفرعونية الجديدة التي أعادت إلى واقعنا النظرة المادية للكون والنظرة الحيوانية للإنسان. . . !؟

هناك حكومات ومؤسسات أمنية وسياسية واقتصادية واجتماعية أصبح دينها الترف وشعارها اننا فوقكم قاهرون، وهناك بشر صدقوا انهم عالم ثالث والخروج منه يتطلب عزماً أكيداً ليتم اللحاق بالحضارة الغربية المادية للفوز بقصب السبق وتحقيق الذات وبناء الحضارة، مع ما يستلزمه ذلك كله من طاعة لإطار الحاكمين وسماع لهم فيما يرشدون اليه ويأمرون به من قراءات وكتابات ومسرحيات تخدم حكومة الترف وتسوغ لها مشاريع الذل والهوان. . !؟

إن البحث السياسي أو الاجتماعي لا يمكنه الفصل بين سياسة الترف وبين إقامة دولة اسرائيل على أرض فلسطين، فلو لم يكن هناك رسل

---

(١) م. ع. ص٢٧٤.

للفرعونية وسيادة للترف الفردي والاجتماعي وكفران بأنعم الله لما كان بمقدور الفراعنة الوصول إلى فلسطين واحتلالها، ولا أخال أن فلسطين تعود في ظل هذا الترف الفرعوني المستبد بالنفوس قبل الواقع، ولعل هناك مَن يقول بأن الناس يعون الحقيقة وقادرون بما يملكون من طاقات روحية وأسرار سبحانية، وبما يتلقونه من فيوضات رحمانية على تغيير الواقع وصناعة المستقبل الذي سبق للنبوة أن صنعته في كل صراع كانت تخوضوه ضد المترفين واطار الحاكمين الذي هو منهم أو مؤيد لهم، وَمن يذهب إلى هذا القول هو في الحقيقة غريب عن ذاته وغير مستعد للتخلي عن برج عليائه أو كبريائه، إذ لو كانت الأمة قادرة على ذلك لما كانت وصلت إلينا انباء الحرة[1]، ولا كربلاء، ولا صفين، ولا النهروان، ولا ترف الأمويين والعباسيين وما أعقبهم من مماليك وعثمانيين وعروبيين واسلاميين، وهذا لا يعني أن الأمة ميتة لا أمل ولا رجاء فيها، وانما يعني ان الأمة لا تكون قادرة دائماً على تحقيق ذاتها بما يلائمها ديناً وسياسة إلا إذا توفرت على شروط ومواصفات تؤهلها لقيادة الصراع ضد الترف الديني والسياسي معاً. وهنا نسأل: لماذا لا تبني الأمة نفسها بناءً يمكنها من استعادة دورها المسلوب وحقها المهدور، وأرضها المغصوبة؟

بل لماذا نجد بعض المثقفين يرى بأن مطلب الهوية ليس مطلباً جوهرياً، ويعتبر الدفاع عنها ضد الحداثة ودعماً للأصولية؟

لماذا سمحت الأمة لإطار الحاكمين بأن يختار عنها دون اعتبار لرأيها

---

(١) يذكر السيوطي، وابن كثير ان وقعة الحرة حصلت حينما تمرد أهل المدينة على يزيد عام ٦٣هـ بسبب اسرافه في المعاصي، فأرسل اليهم يزيد جيشاً كثيفاً وأمره بقتالهم، فكانت الحرّة التي ضربت فيها المدينة بالمنجنيق وأبيحت ثلاثة أيام واغتصب فيها ألف عذراء... را، إبن كثير، البداية والنهاية، مطبعة دار الكتاب العلمية، بيروت، ج٤، ص٢٢٦.

ولما يلائم أطروحة النبوة في حياتها؟ لماذا يسمح العرب والمسلمين لإسرائيل بأن تمتد في عالمنا سياسياً واقتصادياً وامنياً فتكاد تصل إلى عمق وجودنا بسبب تعاطف أكثر الحاكمين معها وتداكيهم عليها طمعاً في سلمها وخوفاً من حربها؟؟

وهل هناك في الأفق ما يطمئن بأن الأمة هي بصدد اعداد نفسها وتكوين برنامجها بحيث تكون خير أمة اخرجت للناس كما كونها الله سبحانه وتعالى؟

وهل هناك أمة فعلاً تستحضر التاريخ وتعتبر بأحداثه، وتقرأ فصول الصراع بين الأنبياء والمترفين كي تتمكن من صناعة المستقبل على ضوء ما هو مشرق في تاريخ الإنسانية؟

إننا أمام فراغ قاتل لا تملأه إلا النبوة، بل اكاد أقول اننا أمام موت محتم ما لم تتدخل ارادة السماء لإنقاذ الموقف كما هو شأنها أمام كل منعطف تاريخي وتحول جوهري، وهذا ما بينه الله تعالى في كتابه العزيز في اشارة إلى ما ينتظر العالم من أحداث، حيث قال تعالى: ﴿**وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً**﴾[1].

لقد تدخلت الإرادة الإلهية لانقاذ المجتمع الإنساني من عبث العابثين وترف المترفين، وجاءت النبوة الخاتمة لتؤكد على استمرار وامتداد هذا المعنى في الزمان، ولكن الناس كفرو بأنعم الله الروحية والمادية، وخرجوا على أطروحة السماء، أو على الأقل حولوها إلى مادة ثانوية، وجعلو لها بديلاً من عندياتهم ما أنزل الله به من سلطان، كما قال تعالى: ﴿**إن هي إلا**

---

(١) سورة الاسراء، الآية: ٥٨.

أسماء سميتموها أنتم واباؤكم﴾[١] .

إن الأمة اليوم ليست بخير على المستوى الروحي والسياسي والاجتماعي، والفكري، وإن كانت بخير على مستوى المال والثروة وكنوز الذهبان ومغارس الجنان، فذلك ليس دليلاً على أنها أمة حية وفاعلة وقادرة على بناء نفسها روحياً، وتحقيق ذاتها سياسياً بحيث يكون لها القرار والموقف في مواجهة الحاكمين والمترفين، وكونها على خير في الثروة والمال لا يعفيها من مسؤوليات النهوض باعباء الرسالة، باعتبار أنها جعلت على خير مادي لهدف استراتيجي، وما من أمة في تاريخ الإنسانية إلا وكانت على خير، وكان أول ما ذكرت به من الأنبياء هو هذا الأمر لإلفاتها إلى نعم الله عليها، وهذا ما بينه الله تعالى في كتابه العزيز حيث قال تعالى: **﴿وإلى مدين اخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾**[٢]، فقوله اني اراكم بخير، انما يستفاد منه انها على نعمة من المال وسعة الرزق والخصب، فلا حاجة بها إلى نقص المكيال والميزان»[٣] .

وقد يكون معنى إني أراكم بخير أعم مما ذكره البعض، أي إنها على خير فيما اتاها الله من عقل ورشد ورزق، مما يوجب عليها أن تكون شاكرة لله على نعمه لا مفسدة في الأرض ولا كافرة بأنعم الله تعالى. لذا فإن الأمة الإسلامية اليوم على خير لا يعد ولا يحصى ولكننا نراها جائعة فقيرة فضلاً عن أنها فاسدة في كثير من الأمور والشؤون وخاصة على المستوى السياسي والاقتصادي، بسبب هيمنة الفرعون وأتباعه على مقدراتها وطاقاتها، كما

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٤.

(٣) سعيد أيوب، الانحرافات الكبرى، دار الهادي، بيروت، ص٣٣٣.

انها مصداق حقيقي لما بينه الله تعالى في قصة شعيب وقومه، وهذا إن كان يدل على شيء فإنه يدل على ما ستؤول إليه أوضاع هذه الأمة في المستقبل فيما لو انتظرت أن يبعث الله لها رسولاً في وقت تتربص اسرائيل بها مستفيدة من خيراتها وثرواتها. !؟

نحن نسأل أولئك المتفائلين بوضع الأمة العربية والإسلامية، والمنتظرين للفرج من مضايق البلاء، هل عندكم ما يطمئن الناس إلى مستقبلهم وسعادتهم، أم أنكم متفائلون بعملية السلام في الشرق الاوسط وما سينشأ عنها من سوق اقتصادية؟!

نقول: إن الأمة بخير نعم، ولكنها باتت بأمس الحاجة إلى نبي يزكيها ويعملها الكتاب والحكمة، وأن تقول الحق، ذلك هو وحده السبيل الذي يقطع دابر المترفين ويقيم دولة الحق والعدل، وكما جاء في الحديث: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1].

فالحكمة الإلهية تقضي بتدخل النبوة حينما يبلغ الترف حد الكفر بأنعم الله المادية والروحية، فيبعث الله رجلاً من أهل بيت النبوة ليضع الأمور في مواضعها، ويعزل الذين أترفوا عن دين الله تعالى لقول أبي عبد الله عليه السلام: ان الجائرين (المترفين) لمعزولون عن دين الله»[2].

---

(١) الملا صدرا، شرح اصول الكافي، كتاب الحجة والعلم، طبعة إيران، م. س. ص٤٨١.

(٢) م. ع. ص٢٨٧.

روح اجتماعية واحدة للترفين

مما تقدم نستطيع الإجابة على ما سلف من أسئلة لمعرفة ما إذا الحاكم الجائر المترف مختلفة أوضاعه وتصرفاته بحسب الزمان والمكان وتداول الأيام. وقد سبق أن بينا أن أكثر الناس في كل زمان كانوا ولا يزالون يتبّعون أمر كل جبار عنيد، ويخضعون لسلطان الملك ويؤدون اليه الطاعة طوعاً لما ألفوه واعتادوا عليه سواء بسب الخوف منه، أو بسبب اقتناعهم به، وقوله تعالى: **﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾** لا يمكن فهمه في سياق الحديث عن قوم أو أمة بعينها، باعتبار انه قول معبر عن حالة الناس ومنسجم مع ما تؤول إليه أوضاعهم في ظل أنظمة الحكم الجائرة. سواء تلك النظم الجائرة المترفة، أو الظالمة بحسب ما تم التميز به والتفريق على أساسه في بيان معنى مصطلحي الترف والجور.

إن القاعدة التي يمكن الاستناد إليها للبحث فيما آلت إليه أوضاع المجتمعات الإنسانية في العصر الحديث في ظل الأنظمة الجائرة، هي حب الدنيا وكراهية الموت، وان الناس على دين ملوكهم، وكيفما يكونون يولى عليهم، وكلها قواعد خلصت إليها الأبحاث السياسية والاجتماعية بعد

مجهودات كثيرة وكبيرة بذلها أهل الاختصاص على طول التاريخ البشري، ولو أردنا أن نبحث من جديد في أوضاع مجتمعاتنا المعاصرة لما كان بالامكان مخالفة النتائج التي انتهت إليه أبحاث العلماء القدامى، باعتبار أن الآيام واحدة، والجور والترف واحد وإن كان له اشكال متعددة، وكذلك الحق واحد؛ فالنبي هو النبي، والمترف هو المترف، والجائر هو الجائر، والناس هم الناس، كما الحق هو الحق، والباطل هو الباطل. . .

إن للترف امتداده في الزمان، مثلما للنبي امتداده، ولا يمكن أن تخلو الدنيا من صراع الحق والباطل، وعليه فإن العالم اليوم يعيش حقيقة هذا الامتداد لك منهما، ويتصارع أهله في ظل حضارة مادية قاتلة، وبحسب ما نرى ونعايش فإننا نجد بأن أهل الترف اليوم ـ وهم دعاة التحضر ـ لا يختلفون في شيء عن اهل الترف الذين سبقوهم، هذا إن لم يكونوا قد سبقوهم في فنون الجريمة، وفي تكديس الثروات وجمع الأموال وعبادة ما صنعوه من آلهة ما انزل الله بها من سلطان، وإذا كان لا بد من التحقيق في هذه المسألة، فنقول: إن الأنظمة الحاكمة هي ذات طبيعة فرعونية، وتعتبر المال والثروة مقياساً لكل شيء، وسبباً للسعادة كما انها في غالبيتها سواء في العالم العربي أو في العالم الاسلامي ـ مترشحة عن ترف الناس واتباعهم أمر كل جبار عنيد، وأدنى تأمل في عمق هذه التشكلات البشرية في العصر الحاضر لا بد أن يخلص إلى هذه النتيجة وهي ان النظام الحاكم ـ أي الفرعون المستبد ـ له امتداداته في عقول وقلوب الكثيرين من الناس، ويجد الكثير من الأعوان والأنصار لترجمة استبداده في الواقع، وللتعبير عن نفسه بالطريقة التي تؤكد حضوره وفعالية دوره، ولعل قوله تعالى: ﴿**وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى. . .**﴾ ناظر إلى هذه الحقيقة، باعتبار ان القائل في الآية هو الناس الذي اتبعّوا فرعون وليس فرعون نفسه. ؟!.

نحن قد لا نكون على معرفة دقيقة بالأنظمة السياسية التي كانت حاكمة في تاريخ البشرية، لكن ما نعرفه هو أن فرعون وسائر الفراعنة في التاريخ البشري لم يكونوا أصحاب أموال فقط، بل كانوا أصحاب سلطة أيضاً وهذه السلطة كان لها مشروعها كما هو حال الأنظمة والسلطات اليوم مع اختلاف بسيط أو كبير فرضته طبيعة التقدم البشري وعوامل الزمن الذي امتد بعيداً، واستوعب كثيراً من التجارب البشرية في شتى المجالات، لكن الشيء الثابت في هذا التاريخ البشري هو عقلية الترف وسياسة الترف، فهي لم تتغير بل ازدادت حدتها وقويت شوكتها مما جعلنا نترحم على فرعون الزمان ومن سبقه أو خلفه من الفراعنة، فالنظام السياسي اليوم، هو في الجوهر، نظام مترف وجائر وكل همه أن يحفظ مكاسبه ومصالحه الشخصية له ولبطانته، وهذا يحتم علينا أن نرفض المقولة القائلة بأن الإنسان اختلف كثيراً، أو تطوراً كثيراً عما كان عليه في السابق، لأنها مقولة مبنية أساساً على قواعد مادية وأفكار وأطروحات جاهلية لا تنفع في تعريف الإنسان، بحسب اعتقادنا، روحياً وحضارياً على ضوء ما حققه من تقدم في مجال المادة، وقد قيل: «إنك إذا أردت ان تعرف حضارة ما، فانظر في الأصل الديني الذي بعثها وأسس لها باعتبار ما قيل من أنه في البدء كانت الروح»[(١)].

إن قوام الحضارة هو الأخلاق والإنسانية، وحيث لا أخلاق ولا انسانية ولا روحية، فلا حضارة ولا تقدم ولا نظام سياسي عادل، ومن هنا يمكن القول: ان الأنظمة السياسية الموجودة اليوم في العالم وخاصة في العالم الثالث شبيهة بتلك الأنظمة القديمة التي كان دورها مقتصراً على

(١) يقول مالك بن نبي: «فالحضارة لا تنبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها. . . فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا. . . انظر شروط النهضة، مكتبة الشهيد الصدر، ايران، قم، ١٩٧٩، ص٥٠ ـ ٥١.

محاربة الأنبياء وقتلهم، وبحق نقول: إن إنسان اليوم ليس مثاله في المستقبل، بل في الماضي القديم الذي كان قوامه الترف، وإذا حاولنا استنطاق النص القرآني وبامكاننا ذلك لوجودنا أن قوله تعالى: ﴿لتجدنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا﴾[1]. ليس نصاً مقتصراً على الزمان الذي نزل فيه، أو على الشعب اليهودي الذي شهد نزوله، وانما هو يتعداه إلى زماننا هذا، ولو نظرنا إلى مصداقه الخارجي اليوم وأعني بهم اليهود، لرأينا أنهم كذلك فعلاً من حيث العداوة وحب الدنيا وفعل الجريمة، هذا فضلاً عن ادعاء أطروحة الشعب المختار، وابناء الله وما إلى ذلك من خرافات معاشة في الواقع اليهودي، وليس لذلك إلا معنى واحد وهو ان الشعب اليهودي الذي حارب الله ورسوله له امتداده وروحه المترفة في كل زمان، يقول المفكر الإجتماعي الكبير الشهيد مطهري: «وقد نسب في القرآن بعض الأعمال التي ارتكبتها الأجيال السابقة إلى الجيل المتأخر، كما نسب أعمال بني اسرائيل في عهود الأنبياء السابقين الى اليهود في عهد الرسول ﷺ وقد حكم عليهم باستحقاق الذلة والمسكنة لقتلهم الأنبياء بغير حق، والسر في ذلك أن هؤلاء من وجهة النظر القرآنية، استمرار لأولئك القوم بل هم قوم واحد بلحاظ الروح الاجتماعية، ومن هنا قيل إن البشرية تتشكل من الأموات أكثر من تشكلها من الأحياء، يعني أن للأموات والسلف سهماً اكبر في تشكيل عناصر البشرية من الأحياء الباقين، ومثال ذلك ما قيل: إن الأموات يحكمون على الأحياء أكثر من ذي قبل»[2].

إذن الترف، والأنظمة السياسية، وقادة الشر في المجتمع وانسجام الناس اليوم مع أطروحة الفساد العالمية ليس عجيباً لمن بحث اجتماعياً،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

(٢) مرتضى مطهري، المجتمع والتاريخ، بيروت، دار المرتضى، ١٩٨٢، ص٣٢.

وتأمل عميقاً في حالة الناس وما يحبون وما يكرهون، وخاصة في عصرنا الحاضر الذي تحول فيه الترف إلى دين يعبد من دون الله تعالى كما كانت حالة الناس في السابق مع الفراعنة والجبابرة والطواغيت، والتطور الذي حصل وتجاوز ما كان عليه السابقون، هو أن الحضارة المادية اليوم أعطت للترف أبعاداً جديدةً ووفرت للإنسان الوسائل اللازمة والمتطورة للقضاء على حياة الروح وكل ما أنجزه الإنسان من مشاريع الخير، وهنا نسأل، هل كان ينقص أهل الترف السلاح النووي والجرثومي وغير ذلك مما صنعه قادة الشر في العالم؟

لقد تلهى الإنسان في عالمنا اليوم بأسماء الأنظمة، فمنهم مَن يدعي الديمقراطية والحرية، ومنهم من يدّعي الثيوقراطية، وهناك مَن يدعيّ الإسلامية أيضاً، إلى كثير من الأسماء التي يمكن جمعها تحت وصف واحد هو الترف والجور وما يلازمهما من استبداد وطغيان وحرمان، فاضرب بطرفك حيث شئت فهل تجد إلا أنظمة جائرة دفع بها حب الدنيا إلى مصالحة اعداء الله تعالى، وإلى تمكين اعداء الإنسانية من نعم وخيرات جعلها الله للناس كي يقوموا بالقسط ولا يسرفوا فيها.

والسؤال السياسي والاجتماعي والاقتصادي، هو بأي حق تريد بعض أنظمة المنطقة العربية والاسلامية أن تعطي اسرائيل مقاليد أمورنا والتحكم باقتصادياتنا وثرواتنا وكل سياساتنا الاجتماعية والتنموية وغيرها؟؟

وهل لهذه الأنظمة الجائرة أن تدلنا على مشروع الحياة الذي أعدته لشعوب هذه المنطقة ما دامت تدعي الانتماء إلى السماء والتعبير عنها؟؟

إن ما يجري في العالم اليوم يدل بوضوح على أن عقلية الترف هي الحاكمة، وما الدين إلا لعق على ألسنة الناس كما يقول الإمام الحسين بن علي عليهما السلام. . . كما أنه ليس في أفق عالمنا اليوم ما يوحي بأن اكثرية

الناس عادت لتتشكل وفق أطروحة الأنبياء والرسل وسائر الفقهاء الأمناء، لأن مسار الاحداث يتجه نحو الغاء الهوية الإسلامية بحيث تعود الأمور إلى ما كانت عليه في زمن المترفين، وقد سبق لجاهلية بني أمية أن عبرت عن هذا المشروع على لسان يزيد بن معاوية بعد قتله الإمام الحسين عليه السلام بقوله: «ليت أشياخي ببدر شهدوا... إلى أن قال: لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل»[١].

ليست الأنظمة الموجودة في عالمنا اليوم، سواء تلك التي تدعي الديمقراطية في الغرب أو في الشرق، أو تلك التي تدعي الجمهورية أو الملكية أو ولاية العهد، أو الإسلامية الذوقية، أو الشورى، هذه الأنظمة كلها ليست شيئاً غير الترف، وإذا كان هناك من الأنظمة مَن يدعي الوقوف إلى جانب النبوة، أو رسالة السماء، فذلك ادعّاء فقط ولا برهان عليه لا في السلوك ولا في التصرف ولا في المفاهيم، ولا في المشروع السياسي التي تحمله وتعمل له هذه الأنظمة، لأن معنى نصرة الأنبياء أن يسلم الناس من استبداد الحاكم ومن سيفه وسجنه ومطاردته، ومعناها أن ينصف الناس ويطعم الفقراء، وأن يكون المال مال الله، وليس مال الطغمة الحاكمة، معناها أن لا تكفر الأنظمة بنعم الله من خلال ايداعها في البنوك الغربية، أو صرفها في تنمية مشاريع يستفيد منها الغرب وحتى كلاب الغرب في وقت يموت الناس في العالم العربي والاسلامي جوعاً وحرماناً، وهل معنى قوله تعالى: ﴿**وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله...**﴾، هل معناه غير هذا أن يصرف المال في غير وجوهه، وأن لا يكون للفقراء منه نصيب، وأن يتقوى به اعداء الله تعالى،

---

(١) را: المجالس السنية، السيد محسن الأمين، دار التعارف، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ج١، ص٥٦١.

هل معنى الكفر بأنعم الله تعالى غير هذا؟

هكذا يمتد الترف، وهكذا تحارب النبوة والرسالة، وهكذا يستبد قادة الشر في المجتمع، وما يجري على اللاحقين سبق له أن جرى على السابقين، ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾، وما ذهب اليه الشهيد مطهري من أن القوم لهم حالة واحدة بلحاظ الروح الإجتماعية، انما يدل على حقيقة الطبيعة البشرية وامتداداتها في الزمن بمعزل عن الحياة المادية أو الحضارية التي تعيشها، وإذا كانت الأنظمة الحاكمة والتي تغلب عليها حياة الترف وتحكم بما تهوى، هي نتيجة لما يكون عليه الناس من وعي ديني وسياسي، فذلك دليل على أن الروح الاجتماعية فيما لو كانت روح ترف لا بد أن تؤدي إلى انبثاق طبقة مترفة تسمى بطبقة الحكام، باعتبار انه لا يمكن الفصل بين الترف الاجتماعي العام وبين ما يمكن أن يتولد عنه من أنظمة، من هنا فإن الحديث عن الأنظمة الحديثة، هو في الوقت نفسه حديث عن حياة الترف العامة في المجتمع، وقد أرشد التاريخ، وخاصة التاريخ الإسلامي إلى هذه الحقيقة فيما سجله من وقائع وأحداث وقعت في العهدين الأموي والعباسي وسائر العهود الأخرى، وما يحصل الآن هو نتيجة لما زرعه الأموات، فجاء الأحياء ليحصدوا موتاً على موت، وشراً على شر!! ولكن الخير يبقى أكثرياً في هذا العالم نظراً لما وعد الله به المؤمنين من جوائز على ما حققوه من ايمان وأدوه من عمل صالح حيث قال تعالى: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾ هذا وعد الله تعالى وهو لا يخلف الميعاد، وسيكون للترف في حاضره ومستقبله مثلما كان له من ماضيه الوبال والبوار والخسران المبين. وكما قال تعالى: ﴿**وما كانوا سابقين**﴾.

الفصل الرابع

المال والسلطة والترف

تمهيد

١ ـ المال والسلطة في القرآن .

٢ ـ المال والسلطة في النطاق التاريخي

٣ ـ ظاهرة المال وفنون تجارة الترف

٤ ـ دور المال في اضلال المجتمعات البشرية

٥ ـ مفهوم الغنى والفقر في الإسلام

تمهيد

لقد أكثر الباحثون من الكلام حول المال والسلطة وما لهما من دور وتأثير في صياغة وتشكيل المجتمعات البشرية، وما يهمنا بحثه في هذا الفصل هو التأكيد على ما ذهب إليه القرآن في معنى المال والسلطة من خلال آيات عدة متضمنة لمعاني دقيقة وجليلة ترشد الإنسان الفرد والجماعة والمجتمع إلى ما ينبغي أن يكون عليه فيما يتداوله من المال، وفيما يخضع له من سلطة، حيث أن القرآن يبين الهدف الذي من أجله سخر الله الطبيعة للإنسان، وقد جاءت النبوة لترشيد حركة الإنسان في الحياة سواء اكان رجل ذا مال، أو ذا سلطة، فإذا لم يخضع الإنسان لما جاءت به النبوة من قوانين وأحكام وتعاليم، فإن كل شيء في حياة الناس يصبح عرضة للترف، وتتحكم به الشهوة واللذات، وتكون النتيجة الكفر بأنعم الله تعالى، وتعطيل دور الإنسان فيما أعد له من خلافة على هذه الأرض. فبدل أن يكون المال والسلطة وسيلتان لسد حاجيات الإنسان، واداة لتحقيق غاية الاستخلاف في الأرض، يصبحان لعنة على الإنسان، ومادة للإفساد تدفعان بالإنسان نحو الجاهلية والترف من جديد، ذلك هو معنى أن يكون المال والسلطة في خدمة الشهوة، ولعل ما ذهب إليه القرآن بقوله تعالى: **﴿وقارون وفرعون**

وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾[1] مرشد الى هذه الحقيقة، وهي أن الاستكبار والاستعلاء يدفعان بالمال والسلطة إلى أن يكونا عدوان للإنسان، بدل أن يكونا عوناً له على تدبير معاشه وتنظيم حياته.

كما أننا سنلفت النظر في هذا البحث الى معنى دقيق تم التعرف عليه من خلال عدة آيات قرآنية ناظرة الى معنى المال والسلطة من خلال الإشارة الى مثلث الرجس المتمثل بقارون وفرعون وهامان الذين استكبروا في الأرض وساموا الناس سوء العذاب، وجعلوا المال والسلطة هدف غاية يسعون إليهما بكل الوسائل بما في ذلك استعباد الناس والاستخفاف بهم. !؟

إن الآيات التي تجمع بين قارون وفرعون وهامان، كما سنبين في هذا الفصل تشير بصراحة ووضوح الى ان هؤلاء كانوا يجمعون بين المال والسلطة، وخاصة قارون الذي كان على سلطة مالية طاغية هادفة الى استثمار المال في المشروع السياسي للصد عن سبيل الله تعالى.

كما ان التأمل فيما تنطوي عليه الآيات الجامعة لمثلث الرجس من دلالات يكشف عن ان قارون لم يكن أقل من فرعون فيما أنتجه من فتن ومفاسد سواء على مستوى المفاهيم، أو على مستوى الحياة العملية للناس، فكل من فرعون وقارون كانت له سلطته السياسية والمالية المتكبرة، ونحن نعتقد أن هذا هو وجه الجمع بين قارون وفرعون في كلام الله تعالى، إذ أننا في آية نرى فرعون متقدماً على قارون، وفي آية أخرى نرى قارون متقدماً على فرعون، مما يعني أن أحدهما لم يكن أقل طغياناً وإفساداً من الآخر، بل يستويان في أفعالهما، وفيما يترشح عن سياستهما من مفاسد عقائدية واجتماعية. إن إهمال المفسرين لهذا الجمع، وعدم الإشارة منهم الى

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

المدلولات الشاملة التي ينطوي عليها هذا الجمع لمثلث الرجس، دفع بنا الى التركيز على معنى ودور المال والسلطة من خلال آيتين تجمع بين قارون وفرعون وهامان، حيث انه يستحيل ان يكون كلام الله تعالى عن هؤلاء قد ورد لمجرد الحديث عما أصابهم من خسف وغرق، بل نرى انه ورد لبيان معنى أن يكون هناك سلطة سياسية ومالية مترفة ومستكبرة ترى في المال سبباً للخلود والسعادة وغاية ليس بعدها غاية في حياة الانسان، كما قال المترفون: ﴿**نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين**﴾.

لقد وقفنا على ما ذهب إليه المفسرون في معنى هذه الآيات، ووجدنا انهم جميعاً يركزون على طغيان هؤلاء دون الإشارة لا من قريب ولا من بعيد الى الحكمة من وراء هذا الجمع في آيتين من آيات القرآن بين قارون وفرعون وهامان، وفي رأينا أنه من المناسب فعلاً استظهار مفهوم المال والسلطة في القرآن من خلال هاتين الآيتين وعلى ضوء آيات أخرى مستقلة بالحديث عن فرعون وهامان من جهة، وعن قارون من جهة أخرى، والحق يقال: إن قارون كان أكثر فتنة وبلاءً للناس من فرعون ولعل هذا هو وجه تقديم قارون على فرعون وهامان في سورة العنكبوت، كما ان هناك من الآيات في سورة القصص عن قارون وما كان عليه من سلطة مالية ما يكفي لإقامة الدليل على أنه كان صاحب سلطة طاغية ومؤثرة من دون أن يكون حاكماً، وقد أجمع الباحثون في التجارب الإنسانية والسياسية على ان المال هو الذي يدعم سياسة السلطان الحاكم، وغالباً ما يكون المال وأصحاب الثروات، حكاماً من وراء السلطة بتمكين مَن يشاؤون من الحكم على حد تعبير موريس دوفرجيه.

لقد انضم قارون الى فرعون وهامان لا بسبب انه يملك المال فقط، وانما لأنه كان عوناً لفرعون وهامان وسلاحاً سياسياً فعالاً في توجيه المجتمع

والدولة، ومن هنا نرى ان الآيات القرآنية ناظرة الى مفهوم المال والسلطة ودورهما وليس الى الأشخاص بما هم أشخاص يملكون المال ويعيشون حياة رغيدة ومترفة. . .

إن إدخال قارون في ضمير هذه الآية وتقديمه على فرعون وهامان فيه إشارة دقيقة، ودليل قوي على ما لسلطة المال من دور وأثر في بناء المجتمع والدولة، وما ورد في القرآن من آيات بشأن قارون في سورة القصص، وما ادعاه قارون لنفسه من قدرات وخبرات وسياسات، وما انتهى إليه الناس بعد أن عرض زينته أمامهم، كل ذلك يؤكد لنا أن لتقديم قارون في الآية معناه وهو أن السلطة المالية فيما لو كانت مستكبرة تقود المجتمع والدولة إلى الترف والفقر معاً، وتمنع الإنسان من أن يؤدي دوره كخليفة لله على الأرض، هذا فضلاً عما تتسبب به هذه السلطة من طغيان وظلم وحرمان، وهذا لا ينفي أن يكون فرعون مثل قارون من حيث سلطة المال والاستكبار بها على الله والناس معاً، باعتبار أن فرعون قد واجه موسى وهارون بأساورة الذهب، والحق يقال: إن كل ما كان لفرعون من استعلاء واستكبار وطغيان كان له بسبب التعصب لإثار مواقع النعم والثروات، فالآية القرآنية الجامعة لمثلث الرجس نرى أنها تعطي لقارون ميزته وسلطته، وإذا كان هناك من علاج لهذا الاستكبار، فليس له إلا بينات النبوة وسائر الأئمة ممن يشكلون امتداداً لها، هذه البينات التي تحول دون أن يكون المال والسلطة سبباً للفساد، وتؤهل مجتمع الإيمان لأن ينطلق في إصلاح الأرض، وانفاق الأموال في السبل المخصوصة لها. وقد بينا في فصول هذا الكتاب، كيف تتحول الثروات من كونها نعم إلى نقمة تصيب بشرورها المجتمع والدولة على حد سواء.

نحن لا نعتقد أن أحداً أعطى هذه الآيات حقها في التأمل والتدبر،

وندعو الباحثين والمفسرين وخبراء السياسة والاقتصاد إلى إعادة النظر فيما جرى من حوارات بين الأنبياء والمترفين. لعل ذلك يُسهم في الكشف عن مفاهيم جديدة حول المال والسلطة، وقد ذكرنا في بحوثنا المتواضعة أن المال كان ولا يزال دعامة السلطة السياسية، وما نشهده اليوم من استكبار واستعلاء من الدول المسماة بالعظمى، ومن سياسات فرعونية مترفة وعابثة بخيرات الأرض والسماء، هو خير دليل على ما للمال من أثر ودور في رسم سياسات العالم، ونرى أيضاً أنه بسبب سوء استخدام الثروة، واعتبار المال غاية لا وسيلة عاد العالم اليوم ليتشكل وفق اطروحة قارون وفرعون وهامان وعلى ضوء مفاهيمهم ورؤيتهم عن المال والسلطة، وهذا إذا كان يدل على شيء فإنه يدل على غياب بينات النبوة العالمية وسائر النبوات الخاصة التي جاءت لهداية الناس، وتصحيح مفاهيمهم، وترشيد حركاتهم المالية والسياسية، وهذا الغياب للبينات النبوية أعاد إلى دائرة الضوء التقسيمات الفرعونية الى المجتمع وأحيا فيه الجاهلية من جديد سواء لجهة النظرة المادية إلى الكون أو لجهة النظرة الحيوانية إلى الإنسان.

ومن جملة ما بيناه في هذا الفصل أيضاً، هو تأكيد النبوات كلها على ضرورة أن يكون المال وسيلة لاستمرار الحياة وتأمين حاجات الإنسان، ولأجل تدبير المعاش واصلاح الأرض وتعميرها، وإذا كان الناس قد أساؤوا استخدام المال، وجعلوا منه غاية في حياتهم، فذلك ليس من تعاليم ومفاهيم الإسلام في شيء، لأن الله سبحانه وتعالى شرع الأحكام المالية والاقتصادية بهدف ضبط حركة الإنسان وتقييده على النحو الذي يفيده في تدبير نفسه في هذا العالم ويضمن له حياة أخروية سليمة، ولما تجاوز الإنسان حدود القوانين وانطلق في استثمار ما في الطبيعة من خيرات دون اعتبار لما خلق من أجله، ولما تمكنت منه الرغبات والشهوات، ولما انتهى

الأمر به إلى جعل نفسه في خدمة الثروة، كان لا بد أن يخسر دوره وموقعه، إضافة إلى الحاق الأذى بالأخرين.

إن قارون وفرعون وهامان ومن تبعهم من الملأ كانوا ولا يزالون أسباباً لكل المظالم التي وقعت على المجتمعات البشرية، وما نتعرض له نحن اليوم هو بسبب امتدادات هؤلاء في الواقع والحياة البشرية، لقد تجلت فيهم وبمن تبعهم حياة الترف، وهم من جملة مَن وضع أساس الظلم وقسم المجتمع إلى فقراء مدقعين، وأغنياء مترفين، وها هي فلسفاتهم في القرآن ومنطقهم وأساليب عملهم تشهد عليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى قال: «وما كانوا سابقين»...

مما تقدم نستطيع القول: إن الآية القرآنية التي قدم فيها قارون على فرعون وهامان، ناظرة إلى السلطة المالية وسياستها في حكم البلاد والعباد، وإن لم يكن الأمر كذلك، فما هو وجه الجمع بين قارون وفرعون وهامان وتقديم قارون على فرعون رغم كل ما يحفل به الكتاب العزيز من آيات عن فرعون وهامان دون أن يذكر فيها قارون؟ فإذا كنا قد عثرنا على هذا المعنى، فإن الله تعالى هو الموفق لذلك له الحمد والشكر، ونسأله أن يديم علينا نعمه وبركاته وأن يهدينا إلى سبيل الرشاد، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والحمد لله رب العالمين.

تم الفراغ من مسودة هذا البحث في ليلة الخامس عشر من شعبان ١٤١٧ الموافق ٢٦/ ١٢/ ١٩٩٦، يوم ولادة الإمام محمد بن الحسن الإمام المنتظر عجل الله فرجه وسهل مخرجه وجعلنا الله من أعوانه وأنصاره.

المال والسلطة في القرآن

قال تعالى: **﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبيّنات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب﴾**[2].

إن الجمع في الآيتين بين قارون وفرعون وهامان كما أشرنا في تمهيدنا لهذا الفصل ـ لم يرد لمجرد الإشارة الى أشخاص استبدوا وطغوا بما ملكوا من مال وسلطة ـ وانما ورد لبيان حقيقة المشاريع التي كان يحملها هؤلاء ويسعون لتحقيقها في الواقع، ويمكن ان يستدل على ما نذهب إليه بجملة من الآيات القرآنية التي تعرض لطبيعة الصراع بين موسى وفرعون من جهة، وبين موسى وقارون من جهة اخرى، باعتبار أن موسى عليه السلام لم يكن شخصاً، وإنما كان مشروعاً هادفاً الى تحقيق العدل وإزالة الظلم، وقد أرسله الله الى فرعون وهامان وقارون لا بما هم أشخاص، وانما بما هم

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

(٢) سورة غافر، الآية: ٢٤.

مشاريع سياسية قائمة على الثروة والمال ومتقوّمة بهما[1]. وبما أن المشروع الإلهي يقوم على أساس العلم والتقوى فكان لا بد من احتدام الصراع بين النبوة والترف لتكون النتيجة انتصار مشروع النبوة التي صححت مفاهيم الناس عن المال والسلطة، ولا يخفى أن تقديم قارون على فرعون وهامان في سورة العنكبوت له دلالاته ومغازيه بحيث يفهم منه ان قارون كانت له سلطته المالية الطاغية التي أحدثت من الفتنة والفساد ما يفوق ما أحدثت سلطة فرعون وهامان في المجتمع. فالتدبر في هاتين الآيتين لا بد أن يكشف عن أسرار هذا الجمع لمثلث الرجس، فهم ليسوا من أمة واحدة، كما انهم لا يستوون فيما كانوا عليه من سلطة ومال، ففرعون كان جبار القبط ومليكهم، وهامان كان وزيراً له، وقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم كما قال تعالى: ﴿**إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم..**﴾[2].

يقول العلامة الطباطبائي: «وانما اختصّ الثلاثة من بين الأمتين بالذكر

---

(1) قال ابن منظور في لسان العرب: «المال معروف، ما ملكته من جميع الأشياء، والجمع أموال»، وقال ابن الأثير: «المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة، ثم اطلق على كل ما يقتنى من الأعيان، واكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر اموالهم» را: ج٦، م. س، ص٤٣١. وفي معجم ألفاظ القرآن الكريم: «المال: هو ما يملك من الأعيان كالذهب والفضة والحيوان والدار والشجر، وكان الحضري يقول: «خرجت إلى مالٍ لي بالطائف يريد ضيعته، والبدوي كان يقول خرجت إلى مالي يريد إبله..».

ويستنتج الدكتور الفضلي من هذه التعريفات: «أن كلمة المال في البدء كانت اسماً للنقد (الذهب والفضة) ثم صارت تطلق على النقد والعين، وجملة المال في اللغة معناه: هو ما يملك من النقود والأعيان، على اعتبار أن مفهوم العين ضرب في الدنانير كما في مجمع البحرين، ويجمع على أعيان بمعنى آخر، يقول الفضلي: «إن مفهوم العين يشمل النقود لأنها مادة ذات وجود خارجي، ولهذا قيل: «إن المال هو ما يملك من الأعيان» أنظر: عبد الهادي الفضلي، المال دراسة نقدية مقارنة، مجلة المنهاج، عدد (٢)، ١٩٩٦، ص٢٩.

(2) سورة القصص، الآية: ٧٧.

لكونهم أصولاً ينتهي اليهم كل فساد وفتنة فيهما»[1].

إذن الجمع بين هؤلاء في آيتين من آي القرآن لم يكن بهدف الجمع فقط، وانما هناك معانٍ ومدلولات اخرى يمكن ان تتكشّف لنا من وراء هذا الجمع بينهم. والحق يقال: انه جمع للسلطة والمال، وفي احدى الآيتين نلحظ اعتباراً خاصاً لقارون فيما كان يملكه من ثروة مالية مفسدة وطاغية[2] وافقت فرعون وهامان وتعاونت معهما على الإفساد في الأرض والاستكبار فيها، وقد أظهرت الأبحاث مؤخراً دور المال وتأثيره في دعم السلطة السياسية الحاكمة، وبينت ان المال هو أقوى سلاح سياسي في يد السلطة ولا تتورع عن استخدامه لتضليل الرأي العام لحماية مشروعها السياسي كما فعل فرعون وهامان، وكما يفعل سائر الحكام في كل زمان، فسياق الجمع يشعر بأن قارون لم يكن تابعاً لفرعون، بل كان صاحب سلطة موازية ومتميزة بقدرتها على التضليل في مواجهة مشروع النبي موسى عليه السلام باعتبار أن قارون كان ابن عم موسى، وهذه القرابة جعلته أقوى على التأثير في الناس، وأخطر من فرعون وهامان على المجتمع الإنساني، نظراً لبروز سلطته المالية القوية في وسط قوم النبي موسى عليه السلام، وإن مما تسببت به ثروة قارون هي أنها أقلقت حياة الناس وفتنتهم لدرجة تمنّي أن يكون لهم ما كان لقارون، كما أنها خلّفت آثاراً سلبية تفوق بكثير تلك الآثار التي خلّفتها حركة فرعون وهامان في مواجهة مشروع النبوة. إن اجتماع المال والسلطة لدى فرعون وهامان وتعاضد المال والسلطة وتوافقهما حول مشروع واحد وهدف واحد كما يتبدى بوضوح من خلال الجمع بين قارون وفرعون وهامان، هذا الجمع

---

(١) العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، م. س، ج١٧ ص٣٢٧.

(٢) قال تعالى: **﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾** القصص، الآية: ٧٦.

بما يحمل من مشاريع تحلّل من الضوابط والقيود والاحكام مما أدى الى الاستكبار في الأرض، وإلى عدم اعتبار مصالح الناس إلا على النحو المادي الذي يكسب المال والسلطة مزيداً من التحكم بمصائر العباد والبلاد، لأن مشروع الترف سواء أكان شعاره الدين أو السياسة لا يلتفت الى مصالح الناس المادية والمعنوية، وإنما غايته أولاً وأخيراً استثمار الناس ومصالحهم في مشروعه بهدف تمكين ملكه وزيادة ثروته، ولهذا نرى القصص القرآني ناظراً الى حالة هؤلاء فيما يتحركون لأجل الفوز به، ومؤكداً على هوان وحقارة اطروحة ومنطق وسلوك المترفين في مواجهة مشروع النبوة، حيث انهم كانوا لا يتورعون عن القتل والسبي في سبيل الدفاع عن سلطتهم وثرواتهم ومصالحهم السياسية الضيقة، وقوله تعالى: ﴿**فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه**﴾[1] مرشداً الى أن هؤلاء الطغاة كانوا بصدد الدفاع عن مشروع المال والسلطة والإفساد في الأرض من خلال استعمال كل أساليب الطغيان ضد الذين آمنوا، وكان من جملة ما جاء به موسى بالحق هو الاحكام المالية والاقتصادية التي تصحح المفاهيم عن المال والسلطة، وتحقق التوازن في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية على ضوء ما جاء به النبي من آيات وأحكام وبيّنات، لكنهم استكبروا وبادروا الى القول اقتلوا أبناء الذين آمنوا مع النبي موسى عليه السلام .!؟

انه أسلوب كل سلطة مالية أو سياسية تعتبر المال والثروة والسلطة غاية لها، ومنطق كل سلطة قوامها المال والثروة.!؟

كما أن الآية تبين أن أسلوب قارون ومنطقه كان نفس أسلوب ومنطق فرعون وهامان، وتنسب اليه قول القتل لأبناء الذين آمنوا مع النبي موسى عليه السلام مما يعني ان قارون من موقع سلطته المالية كان يرى ما يراه

(١) سورة غافر، الآية: ٢٥.

فرعون وهامان، ويطمح أن تكون له الهيمنة الكاملة على الناس ومصالحهم، وقد خسف الله به الأرض، كما أغرق فرعون، وبما أن مصيرهما لم يكن واحداً، فإن ذلك يدل على ان هؤلاء لم يكونوا أصحاب سلطة واحدة، بل كان لكل منهما سلطته ودوره ومشروعه وإن كان سياق الآيات يشعر بأن قارون كان موافقاً لفرعون في أطروحته ومتبنياً لأحكامه في حق بني إسرائيل، يقول العلامة الطباطبائي: «يشعر السياق ان من القائلين بهذا القول قارون وهو من بني إسرائيل ولا خير فيه لأن الحكم بقتل الأبناء واستحياء النساء كان قبل الدعوة صادراً في حق بني إسرائيل عامة وهذا الحكم في حق المؤمنين خاصة فلعل قارون وافقهم عليه لعداوته وبغضه موسى والمؤمنين من قومه»[1].

لقد انطلق هؤلاء الطغاة في مشروعهم السياسي باتجاه هدف واحد هو المال والثروة، في مقابل مشروع النبوة الذي انطلق باتجاه الإنسان لتحقيقه بالإيمان على مستوى المفاهيم والرؤى والواقع.

وإذا كان هؤلاء الطغاة قد أنفقوا وتعاونوا على مواجهة المشروع الذي جاءت به النبوة، فذلك لا يعني انهم كانوا متوحدين في آرائهم ومناهجهم وأساليب عملهم، بل كانوا متفرقين ومتربصين بأنفسهم شراً على نحو ما نجد في التاريخ من قصص عن مسار ومصير كل الأنظمة التي تقوّمت بالمال والثروة وجعلت منهما غاية لها. فأهل الباطل دائماً تراهم أهل سبل متفرقة وأنفس مشتتة على الرغم من تعاونهم واجتماعهم على أمر ما، خلافاً لأهل الحق الذين لهم سبيل واحد، كما قال تعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[2].

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، م. س، ج١٧، ص٣٢٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

إذن اجتماع قارون وفرعون وهامان على مواجهة النبوة لا يستفاد منه ان هؤلاء اجتمعوا على أمر واحد، أو أنهم أرادوا أن يكونوا في مفاهيمهم وأعمالهم وأساليبهم على طريقة واحدة لما بيّنه القرآن عن اختلاف هؤلاء فيما يعود الى نظرة ورؤية كل منهم للحياة والإنسان فضلاً عن المال والسلطة باعتبار أن النص القرآني لا يظهر حرص قارون على السلطة السياسية بمقدار ما يظهر حرصه على المال والثروة والرغبة في المزيد منهما. كما أنه يمكن ملاحظة الاختلاف في طبائع ورغبات المترفين الذين تدفع بهم الأطماع والرغبات إلى التغالب والتنازع في سبيل السلطة بحيث لا يكون لأحد منهم منازع في السلطة وفي الثروة. ان اجتماع فرعون وقارون وهامان على مواجهة موسى ورفضهم لآيات الله وبيّناته، هو في الحقيقة اجتماع فرضته طبيعة الدعوى التي جاء بها موسى عليه السلام، حيث انه لم يكن بداً من استشعار الخطر فتوحدوا في مواجهة مشروع النبوة خوفاً على مصالحهم السياسية والمادية، ولكن لا أحد يستطيع الجزم بأن هؤلاء الطغاة كان من الممكن أن يجتمعوا فيما لو لم يتهددهم موسى بدعوته. اننا نفهم من التقديم والتأخير في الآيتين المتقدمتين ان قارون كانت له سلطته وأسلوبه ومنهج عمله الخاص به، وإذا كان لهذا الأسلوب ولهذا النهج ما يماثله عند فرعون فذلك ليس دليلاً على انهما كانا على حالة واحدة وعلى رؤية واحدة فيما يعود الى طريقة ممارسة السلطة سواء السياسية منها أو المالية، فحيث نلحظ التقديم لقارون على فرعون وهامان، فإنه يمكن استظهار معنى السلطة المالية كأساس في حركة الطغاة وفي مناهجهم ورؤيتهم عن الحياة والإنسان، وحيث نجد التقديم لفرعون وهامان، فإنه يمكن التأويل لهذا التقديم على النحو الذي يفيد ان فرعون لم تكن له هذه السلطة القاهرة، كما سنرى لاحقاً، إلا بعد أن جمع المال الكثير والثروات الطائلة التي مكنته من

ممارسته استبداده واستخفافه، بمعنى آخر نقول: إن المال هو الأساس الذي تقوم عليه مفاهيم وعقائد وطرائق المترفين في كل زمان، فحيث يكون المال تكون السلطة، وصاحب المال يبقى سلطاناً ومترفاً ومستبداً ما لم يتقيد بما أمر الله به ونهى عنه، وبما جاءت به النبوة من بيِّناتٍ وأحكام. ومن هنا نرى ان اجتماع السلطتين المالية والسياسية في أيدي المستكبرين لا بد أن تكون له آثار سلبية على مستوى المفاهيم والحياة العملية للناس. وقوله تعالى: **﴿ولقد جاءهم موسى بالبيِّنات فاستكبروا في الأرض﴾**[1] **مرشد الى ان الهدف من بعثة موسى** عليه السلام وسائر الأنبياء عليهم السلام هو ترشيد حركة هؤلاء وتصحيح مفاهيمهم عن المال والسلطة، يقول الشيخ شمس الدين: «إن ما حمله الأنبياء والرسل من شريعة الله، ينهج للإنسان سبيلاً آخر في شأن المال والثروة ينسجم مع فطرة الله ومع غاية خلق الإنسان والطبيعة، وخلافة الإنسان على الأرض»[2].

إن الآيات ناظرة إلى هذا المعنى أن اجتماع المال والسلطة في أيد المترفين، يحول دون استثمار الطبيعة وتدبير ثرواتها كما يجب، ويؤدي إلى اعتبار المال والسلطة بديلاً لكل القيم والمبادىء والمعايير والأهداف السامية، وسبيلاً إلى القهر والحرمان والطغيان، وهذا كله يؤدي إلى أن تكون وظيفة المال والسلطة الإفساد في الأرض وليس الإصلاح بحيث يكون هناك عدالة في توزيع الثروات، ونظام سياسي عادل يضمن حقوق المواطنين، ويتكفل بتأمين العيش الرغيد لكل أفراد المجتمع، ولكن قادة الشر الثلاثة بعد أن جاءهم موسى بالبينات استكبروا في الأرض ولم يروا فيما دعاهم إليه موسى عدالة، لأنه يفرض فيما جاء به من تشريعات وأحكام

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

(٢) شمس الدين، محمد مهدي، الإحتكار في الشريعة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط١، ١٩٩٠، ص١٥.

مالية أن يكون المال والسلطة وسيلتان لتحقيق حاجات المجتمع وحماية الإنسان من شرور الترف والمنع من الإفراط أو التفريط بالثروة لما لذلك من انعكاسات سلبية على مسيرة المجتمع وعلى توازنه الإجتماعي، وكما نعلم ان الحاكم المستبد لا يقبل بانظمة وقوانين تقيده، ولا بتحديد صلاحياته، ويريد أن تكون له سلطة مطلقة على الناس والطبيعة معاً، وحينما تتحقق للمستبد هذه السلطة فلا يبقى أمامه ما يمنعه من أن يعطي المال والسلطة قيمة ذاتية موضوعية تجعل منهما مقياساً للسعادة والخلود عند كل مَن يظفر بهما سواء عن طريق مشروع أو عن طريق غير مشروع... ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً، هو أن لتقديم قارون دلالة خاصة جداً، وهي اعتبار سلطة المال عند قارون الذي ادعى أنه أُوتي المال على علم عنده، ولهذا نرى بأن المال له أثر كبير في تركيب شكل السلطة والنظام، ودور كبير في رسم السياسة العامة واتخاذ القرارات حتى ولو لم يكن صاحب الثروة على رأس السلطة السياسية، بل يكفيه من الحاكمية والتسلط أن يخرج على الناس بزينته فقط حتى يقولوا جميعاً ﴿**يا ليت لنا مثلما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم**﴾[1]، وهذا الكلام في لغة اليوم له دلالات سياسية كبيرة فيما لو ظهر مثل هذا الحدث في عالمنا المعاصر، وقد ظهر هذا الأمر بوضوح على ساحتنا اللبنانية، وقدم معطيات جلية عما كان عليه الوضع في السابق، وعما انتهى إليه الأمر لاحقاً. لقد تأكدت لنا حاكمية المال من وراء السلطة السياسية وقدرة أصحاب الثروة على الوصول إلى السلطة ورسم السياسة العامة للدولة بتأثير وضغط من سلطة المال. وهنا لا يسعنا إلا أن نعيد النظر فيما عبرنا عنه بالمال والسلطة، بعدما تبين لنا أن هناك شيئاً واحداً اسمه سلطة المال فقط لما لهذه من تأثير على الناس فيما تعدهم به من أموال

(١) سورة القصص، الآية: ٧٩.

ومشاريع ترف، ومن نفوذ في رسم سياسة الدولة، ولهذا لا يبقى ثمة مجال للحديث عن سلطة أخرى مقابلة، أو موازية لسلطة المال. حتى أن برلمانات الشعوب تصبح عرضة لضغط المال مما يجعلها مؤهلة ومستعدة لكل التشريعات اللازمة لتبرير سياسة الترف ومشاريع احتكار الثروة!!

لكن هذا الكلام لا يعني أن سلطة المال سلطة مستحدثة، لأنه سبق لنا أن عرفنا ما ينطوي عليه تقديم قارون في الآية على فرعون وهامان من دلالات، وهنا يمكن أن نشير إلى التفاته اخرى، وهي أن فرعون هو المترف المتجلي بقوة في آيات القرآن، فلماذا يتقدمه قارون في هذه الآية؟ وهل لذلك من معنى غير أن سلطة المال فيما لو اعتبرت غاية، وأفلتت من التشريعات والقوانين الضابطة والمنظمة لحياة الأفراد والجماعات والمجتمعات لحولت الثروة إلى لعنة والحكم إلى استبداد؟!

كما إن تاريخ الشعوب التي لم تلتزم بتشريعات الله التي حملها الأنبياء والرسل يؤكد هذه الحقيقة، ويعطي صورة واضحة عما كانت ولا تزال تتمتع به سلطة المال من تأثير على المجتمع والدولة معاً، يقول موريس دوفرجيه: «ومما يدل على تأثير المال من حيث هو سلاح سياسي أن هناك موازاة بين تطور اشكال الثراء وتطور أشكال السلطة، ففي المجتمعات الزراعية حيث يشكل استغلال الأرض المصدر الرئيسي للثروة كانت طبقة المالكين الزراعيين هي التي تمسك بزمام السلطة، ويكون نظام الحكم أرستقراطياً حيث تكون السلطة متوقفة على امتلاك الأراضي وسلاح الفرسان في أن واحد... وفي المجتمعات التجارية والصناعية يصبح امتلاك مصنع أو مخزن أو بنك هو القاعدة الرئيسية للثراء، وعندئذ تسقط السلطة السياسية في أيدي البرجوازية... ثم يتساءل دوفرجيه، أليس استخدام المال سلاحاً سياسياً يطعن المساواة القانونية بين المواطنين ويسيء إلى سير الانتخابات

والبرلمان سيراً سليماً»[1]؟ . . .

إن الله تعالى قدم الحل لمواجهة سلطات الترف في أي مجتمع بما جاء به الأنبياء والرسل من أحكام مالية واقتصادية لكبح جماح غريزة الإنسان المفرطة في حب المال والسلطة وما يمكن أن يتولد عنهما من شرور، وما دامت بينات موسى وعيسى ومحمد تواجه بالاستكبار في الأرض من قبل الطواغيت والفراعنة، فلن يلقى الناس إلا البؤس والحرمان وانقلاب النعم إلى شرور، والسياسات إلى فجور إلى أن يحق قول الله عليهم فيرون العذاب الأليم.

فالأنبياء لم يركزوا على عامل المال في دعوتهم إلى إصلاح المجتمع وإقامة الدولة العادلة، وإنما ركزوا على العلم والتقوى في مقابل أطروحة الترف الداعية إلى اعتبار المال أساساً وجوهراً في قيام الحياة الإنسانية وهدفاً رئيساً لها، وهذا ما يمكن الكشف عنه من خلال الآيات القرآنية التي تعرض لحال بني إسرائيل الذين اعترضوا على طالوت ورفضوا أن يكون ملكاً عليهم حيث قال تعالى: ﴿**وقال لهم نبيُّهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال، قال إنَّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم**﴾[2].

قوله: ﴿**ولم يؤت سعة من المال**﴾ إشارة كاشفة وناظرة إلى ما تتقوم به سلطة الحكم المترفة، حيث أن كل شيء بحسب هذا المنطق لا قوام له إلا بالمال، وبما أن طالوت لم يكن غنياً، فقد رفضوا أن يكون له الملك عليهم،

---

(١) دوفرجيه، موريس، مدخل إلى علم السياسة، ترجمة، دروبي، اتاسي، م. س. ص١٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

وقد كان منطلق رفضهم أنهم أحق منه بالملك لما هم عليه من ثروة ومال وعراقة مجد، ولكن ردّ النبوة كان أن الله اصطفاه وزاده بسطة في العلم والجسم، وهذا يعني أن السلطة ـ بحسب منطق النبوة ـ لا تتقوم بالمال أو بمقدار ما يكون عليه الناس من جاه، وإنما قوامها العلم والتقوى، وبين أن يكون الملك قائماً على المال ومتقوماً به، وبين أن يكون الملك قائماً على العلم والتقوى يوجد فرق كبير، إذ إنه في الحالة الأولى يكون الناس في ظل سلطان الترف والمال موضوعاً للبيع والشراء والإستخفاف، أما في ظل سلطان العدالة والتقوى والعلم بما أنزل الله، فإن الناس يكونون أحراراً وموضوعاً للرعاية والهداية والتدبير بحيث تحفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم من أن يستبدَّ بها من قبل سلطة الحكم المترفة، إضافة إلى ما يمكن تحقيقه من أهدافٍ نبيلة من خلال وصول كل فرد من أفراد المجتمع إلى كماله الذي يليق به، يقول العلامة الطباطبائي في معنى أن يكون الملك محققاً للكمال: «وبالجملة فإن الغرض من الملك أن يدبّر صاحبه المجتمع تدبيراً يوصل كل فردٍ من أفراده إلى كماله اللائق به، ويدفع كل ما يمانع ذلك، والذي يلزم وجوده من نيل هذا المطلوب أمران، أحدهما: العلم بجميع مصالح حياة الناس ومفاسدها، وثانيهما: القدرة الجسمية على إجراء ما يراه من مصالح المملكة، وهما اللذان يشير إليهما قوله تعالى: ﴿**وزاده بسطة في العلم والجسم**﴾، وأما سعة المال فعدّه من مقومات الملك فإنه من الجهل»[1].

لا شك أن ما حققه الإنسان من انجازات على مستوى التجارات والمعاملات يقل كثيراً عما خسره من الروحية والمبادىء والأهداف، وإذا كان لا بد من اعادة ما تمت خسارته في ظل الترف والتجارات المترفة، فلا

(١) الطباطبائي، السيد محمد حسين، تفسير الميزان، ج٢، ص٢٩١.

بد من أن يعود الناس إلى ما تخلو عنه من بينات نبوية وأحكام الهية، لعل ذلك يُسهم في إعادة التوازن إلى المجتمعات كشرط أولي لتحقيق الخير للمجتمع الإنساني كله، لأن الانقسامات الإجتماعية والفوارق الاقتصادية والمالية، وانحصار الثروة في أيد فئة قليلة، كل ذلك يرشد إلى مظالم كثيرة واخطاء كبيرة ارتكبها الإنسان بحق نفسه أولاً وبحق الطبيعة ثانياً، وهذا كله منشأه، كما بينا ظلم الإنسان لنفسه، وجهله بالغاية التي خلق من أجلها، وكذلك جهله بالغاية التي سخرت لأجلها كل أموال الطبيعة سواء تلك التي يقابلها ثمن أو التي لا يقابلها ثمن، وحينما يدرك الإنسان الغاية من وجوده ومن وراء تسخير الأرض له، يستطيع القيام بأمر الخلافة على الأرض، وتحقيق العدالة الإجتماعية التي أمرت بها شرائع السماء وتجوهرت بها دعوات الأنبياء، باعتبار أن العدل هو أساس في التكوين وفي التشريع، وليس على الإنسان أن يصطنع لنفسه ما ينافي هذا العدل فيما يقوم به من أعمال تجارية ويمارسه ويؤديه من مهام رسالية، ذلك هو معنى أن يكون المال مال الله والناس مستخلفين فيه وأمناء عليه ينفقونه في سبيل إعمار الأرض، واشباع حاجات الإنسان على النحو الذي يمكنه من لعب دوره كخليفة لله على الأرض.

فالمال والسلطة، إما أن يكونا نعمة يعمل الإنسان من خلالها على بناء مجتمعه وفق ما شرعه الله من احكام مالية واقتصادية، واما أن تكونا نقمة على الإنسان تدفع به إلى حياة الغريزة بعيداً عن نهج النبوة، وتجعله أسير الشهوة واللذة، كما كان قارون وفرعون وهامان وكما هو حال الكثيرين في عالمنا اليوم ممن يعبثون بنعم الله ويترفون بها، تاركين وراءهم من المظالم والبلاءات ما لا يعد ولا يحصى، وكما قلنا: إنه لا بد من تحكيم شرع وأحكام الله في كل ما نعيشه في حياتنا من معاملات وتجارات وسياسات،

لأنه في البدء كانت الروح ولم يكن المال، فكيف تتحول الروح إلى وسيلة، والمال إلى هدف وغاية!؟

إنها عقلية الترف المستكبرة في الأرض، ولكن النتيجة كما قال تعالى: **﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم مَن أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم مَن أخذته الصيحة، ومنهم مَن خسفنا به الأرض، ومنهم مَن أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**(١).

وها نحن اليوم أمام مال وسلطة لا ندري ما إذا كان التاريخ قد عاش مثلها فيما تملكه سلطة المال اليوم من أساليب في الترف والطغيان وتمارسه من ظلم بحق الإنسان والطبيعة، وفي جميع الأحوال يبقى الترف هو الترف، والايمان هو الايمان نقيضان لا يجتمعان، وصراع مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما قال تعالى: **﴿فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين﴾**(٢).

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٩.

المال والسلطة في النطاق التاريخي

سنبين في هذا البحث ما آل إليه أمر المجتمعات البشرية في ظل ادخار المال والثروات، وما حصل من تحولات في حياة الإنسان لجهة تدبير المعاش، واستثمار الأموال، وسنرى ما إذا كان الإنسان قد أحسن استغلال الطبيعة وتدبيرها بما تنطوي عليه من ثروات، أضف إلى ذلك معرفة ما إذا كان الإنسان قد أصلح في الأرض، وفهم عن الله تعالى ما يجب أن يقوم به من مهمات ووظائف وإن أول ما تجدر اليه الإشارة في هذا البحث، هو أن الإنسان في تاريخه غالباً ما أساء استعمال الثروة، وقد كان ذلك نتيجة لغياب المبادىء والمفاهيم التي من شأنها تصحيح مسيرة الإنسان، وتمكينه من سلوك سبيل السعادة، باعتبار انه لم يخلو زمان إلا وكانت فيه مبادىء وأهداف وقيم تحرك الإنسان وتدفع به إما إلى الخير وإما إلى الشر وحيث لم تكن هناك أهداف ومبادىء، لم تكن هناك أعمال منسجمة مع فطرة الإنسان، لأن المبادىء والأهداف والقيم الحقيقية فيما لو كانت حية وفاعلة، تمنع الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية من أن تسلك سبيلاً لا يؤدي بها إلى السلامة فيما تقصده وتطمح إلى تحقيقه من مكتسبات مادية أو معنوية.

إن الثروة كانت ولا تزال عاملاً مهماً من عوامل استمرار الإنسان وتقدمه، وهي انما وجدت لأجل تمكين الناس من الانطلاق في الحياة الدنيا على أساس أن كل شيء في هذا الكون قد سخره الله للناس لتحقيق الغاية التي خلقوا من أجلها، وبما أن (المال) في ذاته لا يصلح ولا يفسد، وان الإنسان هو الذي له إرادة ذلك، فإن ما انتهت إليه المجتمعات البشرية من أساليب وتجارات وفقر وترف لا يمكن اعتباره نتيجة لوجود المال بل هو نتيجة لما اختلف الناس فيه وفهموه عن معنى وجودهم في هذه الحياة...

لقد انقسم الناس على طول التاريخ، ومنذ بدء الخليقة بين طالب للثروة كهدف نهائي له، وبين طالب للثروة بهدف الاصلاح في الأرض وادامة الحياة، وتحقيق العدل، وقد تجلت هذه الانقسامات فيما نشب من صراعات في المجتمعات والتي كانت دائماً تعبر في صراعاتها عن طبيعة الأهداف التي كان يسعى كل فريق لتحقيقها على حساب الأخر، وخير دليل على هذا الوضع الانقسامي في التاريخ البشري، هو ما اتخذته النبوة لنفسها من مواقع في مواجهة الانحراف على مستوى النظرية والتطبيق معاً. حيث أنها جاءت لتمنع من استغلال الطبيعة وثرواتها في طريق الشر ولتحول دون احتكار الثروات من قبل الذين جعلوا المال هدفاً وحيداً في حياتهم يبذلون في سبيله كل شيء لطالما اعتبروه عنواناً للسعادة وسبيلاً إلى الخلود.

وكما سيتضح لنا أن خلق الطبيعة وكل ما فيها من أشجار وأنهار ومعادن وثروات ظاهرة وباطنة هو المقصود باحتكار الثروة، وليس المال النقدي الذي اتخذه الإنسان وسيلة لتصريف سلعه وحفظ قيمتها، ولما كانت الطبيعة قد أوجدت لخدمة الإنسان، وكان المال هو ما تنطوي عليه هذه الطبيعة، وان ذلك كله قد تم من خارج ارادة الإنسان ولم يكن له أي دور فيه فقد استحال أن تكون الثروة قد وجدت لإناس دون اخرين، وإنما هي لجميع

الناس وليس لأحد أن يحتكر نعمة الله ويستغل الطبيعة لصالح أهدافه الخاصة، وهذا هو مقتضى العدل، أن يكون المال مال الله والناس مستخلفين فيه لتحقيق الأهداف المقدسة التي أمر الله تعالى باستثمار الطبيعة وتدبيرها لحساب هذه الأهداف، يقول ارسطو: «فكما أن علم السياسة لا يوجد الناس بل يستمدهم من الطبيعة ويتصرف بهم، كذلك يجب على الطبيعة أن تمد بالقوت، أرضاً كانت أم بحراً أم شيئاً أخر، وعلى المجتمع والدولة ان يستغلاها ويتدبرا ثروتها كما يجب إذ ليس على الحياكة أن تنتج الصوف، ولكن أن تستعمله وتميز الجيد منه والموافق مما هو فاسد وغير موافق»[١].

إذن المال ليس شيئاً غير الطبيعة وما تنطوي عليه من كنوز الذهب والفضة، وما انتهى إليه الإنسان في مبادلاته وعلاقاته التجارية والإقتصادية والمالية من إيجاد النقود والعقود وغير ذلك مما اصطنعه الإنسان لنفسه من وسائل ووسائط لحماية الثروة وتوزيعها، ومن ثم لتبادلها، ليس هو المسمى بالمال حقيقة، لأن الإنسان في بداية علاقاته وتدبير معاشه لم يكن على عهد بالنقود والمصارف والمبادلات التجارية المعتمدة للنقد، إذ ان الإنسان كان ينتج بنفسه السلعة، ومن ثم يقوم بنقلها ليبادلها بسلعة أخرى، «ولكن سيطرة الدوافع الأنانية على التجارة أدت إلى تطويرها وانحرافها عن وضعها الطبيعي، وبخاصة في عصر الرأسمالية الحديثة ونتج عن ذلك انفصال التداول والتبادل في كثير من الأحيان عن الانتاج، وأصبح نقل الملكية عملية تقصد لذاتها دون أن يسبقها أي عمل إنتاجي من الناقل وتمارس لأجل الحصول على فوائد وأرباح. . . »[٢].

---

(١) أرسطو، في السياسة، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، ط٢، ١٩٨٠، ص٣٠ ـ ٣١.
(٢) الصدر ، محمد باقر، اقتصادنا، م. س. ص٦٨٣.

إذن ظاهرة المال في التاريخ البشري وقبل استعمال النقد والمصارف والحيل والخبرات المكتسبة من العمليات التجارية لم تكن ظاهرة احتكار وترف، وإنما كان ظاهرة انتاجية تؤمن للإنسان ما يحتاج إليه في حياته، ومما لا شك فيه أن تطور العمليات التجارية وتوسط النقد بينها ترافق مع هجران تام للمبادىء والقوانين والأحكام المالية التي تبقي على الثروة في نطاق الخير، مما أدى إلى بروز حالات الترف والاحتكار والحرص على جمع الثروة وادخارها، ومع تقدم الإنسان وتطور معارفه ومداركه ازداد الترف وتحكم الحرص والطمع والربا في عمليات التجارة، وتمركز المال في يد فئة قليلة من الناس، يقول الشيخ شمس الدين: «إن الشريعة الإسلامية جاءت بتشريعات اقتصادية ومالية تنظم وجوه حياة الفرد والجماعة والمجتمع كلها، وتهدف إلى جعل الإقتصاد والمال وما يلازمهما من سلطة قوة خيرة بانية تنسجم مع غاية الله من خلق الإنسان، وتحول دون انقلاب الثروة إلى لعنة وشر حين تتركز في يد واحدة أو أيد قليلة فيولد من ذلك الطغيان وعذاب وحقارة الإنسان»[1].

إن تمركز الثروة أدى إلى نشوء انقسامات اجتماعية حادة في المجتمع الإنساني، وإلى مزيد من احتكار السلع الضرورية، هذا فضلاً عما أدى إليه تمركز الثروة في أيد المترفين من بروز سلطة مترفة مستبدة مشجعة على المعاملات الربوية لجني أرباح طائلة من خلال النقد نفسه وليس مما جعل له النقد، باعتبار أن النقود جعلت للمبادلة، «ولهذا نجد في تجارة الرأسمالية اليوم أن العمليات القانونية لنقل الملكية قد تتعدد على مال واحد، تبعاً لتعدد الوسطاء بين المنتج والمستهلك، لا لشيء إلا لكي يحصل أكبر عدد

(١) شمس الدين، محمد مهدي، الإحتكار في الشريعة الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط١، ١٩٩٠، ص١٥.

ممكن من التجار الرأسماليين على أرباح تلك العمليات ومكاسبها»[1].

مما تقدم نستطيع النظر والتأمل فيما انطوت عليه آيات القرآن من مضامين ودلالات حول السلطة والمال ودور النبوة في تحويل المال والسلطة من أداة لممارسة الظلم والطغيان، إلى اداة لتحقيق غاية الاستخلاف في الأرض، فنقول: إن الحديث عن قارون وفرعون وهامان، وجمع هذه الرموز (قادة الشر) في أيتين فقط، لدليل واضح على أن الفئة المترفة التي كانت متحكمة بأمور المجتمع والناس، هي هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كانوا يحتكرون المال والسلطة، ويتخذون منهما وسيلة لقهر الناس والاستخفاف بهم، هذا فضلاً عن اعتبارهما غاية ليس بعدها غاية لقول المترفين: «نحن اكثر أموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين»، وإذا اردنا أن نتعرف على حقيقة ما كان يراه هؤلاء المترفون لإنفسهم من عزة في الأموال والأولاد، وفي التسلط على الناس والطبيعة، فليس لنا اكثر من أن نتأمل فيما هي عليه حالة عالمنا اليوم لجهة انحصار الثروات والسلطات في أيد قليلة تتحكم بالعالم وتهدد ثرواته في فنون الترف الخاصة والعامة.

وهذا ما سنتوقف عنده في البحث القادم لمعرفة وجوه التحولات والتبدلات في حركة المال والسلطة وما أدّيا إليه من ترف في المجتمعات البشرية منذ أقدم العصور والى يومنا هذا.

(١) الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، م. س. ص٦٨٣.

ظاهرة المال وفنون تجارة الترف

إن الإسلام، كما تبين في أبحاث سالفة، لم يمنع من الغنى وادخار الثروة، وانما منع من الاستعمال غير المشروع لهذه الثروة، وما دام المال مؤدياً إلى تحقيق الأهداف الكبرى التي يحملها الإنسان وخادماً له في حركته من أجل الإصلاح، ومانعاً من الافساد في الأرض، فإن الإسلام لا يمنع من هذه الثروة ما دامت مستثمرة في طريق الاصلاح، وفي مجال تحقيق الاهداف الكبرى التي حملها الإنسان منذ استخلافه على هذه الأرض، وكما لاحظنا في العديد من الآيات القرآنية أنها تتحدث عن نوعين من الغنى والثروة، نوع يبحث عنه الإنسان كهدف نهائي له، ونوع أخر يبحث عنه الإنسان لإدامة الحياة وتحقيق الهدف، واصلاح المجتمع، لأنه كما سيتضح لنا أن مجرد خلق الدنيا والطبيعة وكل ما فيها من أشجار وأنهار وديار ومعادن وغير ذلك مما يمكن اعتباره مالاً إنما هو هادف إلى تعزيز الإنسان بكل ما يلزم للقيام بشأن الخلافة على الأرض.

وما انتهى إليه الإنسان في تبادلاته وعلاقاته التجارية والاقتصادية والمالية من إيجاد النقود والعقود وغير ذلك مما قبله الإنسان كوسيط لتبادل

السلع ليس هو المال الحقيقي، لأن الإنسان في بداية علاقاته وتدبير معاشه لم يكن على عهد بالنقود والمصارف والمبادلات التجارية، وكل ما كان له عهد به هو مقايضة السلع بعضها ببعض دون اكتراث لجمع المال وادخاره باعتبار أن الغنى طائفة من الأدوات والوسائل الاقتصادية والمدنية، ولما حصل أن تطور الإنسان في معارفه وعلاقاته التجارية واحتاج إلى توسيع تجارته وتصريف منتجاته رأى أن يوسط النقد في عمليات بيعه وشرائه لضمان قيمة السلع وتسريع تصريفها على النحو الذي يضمن له أرباح تجارية، مما يعني أن المال ليس هو ما اصطلح عليه عند الناس بأنه النقد، وانما هو ما قدمته الطبيعة لمنفعة البشر، وما يقوم به الإنسان من أعمال وما يبذله من مجهودات للإنتفاع بنعم الله المادية، كما في قوله تعالى: ﴿**وآتاكم من كل ما سألتموه**﴾ ولهذا فإن النقد ليس مالاً في الحقيقة، ولا قيمة له إلا إذا كان نتيجة لعمل الإنسان أي مسبوقاً بعمل من أعمال الانتاج. إن توسع التجارات ونتيجة لتحلل الإنسان من ضوابط الشرع وأحكامه المالية ساهم في زيادة فنون الربا، وأدى إلى الإنحراف عن الوضع الطبيعي الذي يجب أن تنمى فيه الثروات، حيث فصل التداول عن الانتاج، واقتصر الأمر في كثير من التجارات على تنمية النقد نفسه، لا مما جعل له النقد، بمعنى أخر تقول: إن النقد الذي جعل وسيطاً بين سلعة وأخرى لم يعد كذلك، بل أصبح غاية يقصد لذاته، يقول أرسطو: «وما النقد إلا هذيان وعادة مرعية، وما هو على شيء من القيمة الطبيعية إذ لو عدل مستعملوه عما اصطلحوا عليه لأضحى شيئاً زرياً لا يعتد به، ولا يقضي حاجة، ولأمس من قامت ثروته على النقود في أمس العوز إلى القوت. وما أسمج الغنى إذا أغدق على حي ومات معه من الجوع»[1].

---

(١) ارسطو: في السياسة، م. س. ص٢٧.

إن النـاس لمـا كثـروا واعتـزل البعـض الأخـر، وكثـرت خيـراتهـم وتغايرت، بدأوا يبحثون عن وسائل لتصريف الإنتاج وتوزيع السلع، وكان من جملة ما وجدوه من وسائل الإنتقال من مقايضة السلع بسلع أخرى هو توسيط المال بين السلع، وذلك بعد أن توسعت مدارك الإنسان، وفتحت أبواب التجارة، وكما يقول ارسطو: «فلما حصل الامداد الأجنبي باستيراد ما يفتقرون إليه، وتصدير ما يغزر عندهم، ابتكرت الضرورة استعمال النقد»[1]، لأن ضروريات المعاش ليست كلها سهلة النقل، وهذا ما أوجزه الفضلي بقوله: «فقد كان التبادل قبل اختراع النقود يعتمد فيه طريق المقايضة التي تعني مبادلة السلع بسلع اخرى مباشرة، أو مبادلة سلع بخدمات، أي يتم التبادل هكذا: س ـ س ولكن لما في المقايضات من صعوبات ذكرها علماء الاقتصاد، ومن أهمها: صعوبة توافر الرغبات المشتركة أو المتوافقة بين الأطراف المتبادلة للسلع اخترعت النقود وسيطاً لتبادل السلع، فصار التبادل يتم هكذا: سلعة ـ نقد ـ سلعة، أي س ـ ن. س.»[2].

إذن ظاهرة المال في المجتمعات البشرية، ليست ظاهرة سلبية بحد ذاتها، لأن معنى خلق الكون وايجاد الإنسان أن توجد الحاجات، وأن يبادر الإنسان إلى سدها من خلال استعمال الطبيعة والتمتع بكل ما فيها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿**قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق...**﴾ وهذا الرزق وكل الطيبات لا يمكن أن تتحصل من دون مجهودات الإنسان ومساعيه، ومن دون اختراع ادوات ووسائل لتنمية الثروة واستخراج كنوز الطبيعة...

---
(١) م. ع. ص٢٨.
(٢) الفضلي، عبد الهادي، مجلة المنهاج، م. س، ص٤٢.

إن وجود الإنسان على هذه الأرض اضطره إلى ابتكار كل ما يناسبه من الوسائل لتحقيق الغاية التي وجد من اجلها وكان من مقتضيات القيام بالخلافة وحمل الأمانة ان يستعمل الإنسان المال الذي هو كل ما في الطبيعة، وهناك أموال وأشياء كثيرة متوفرة في الطبيعة ولا يوجب الحصول عليها أي بذل، لانها بمثابة التمكين للإنسان كي يقوم بواجباته، وأعني بها الهواء ونور الشمس والماء والأشجار والأنهار، وهي كما يقول علماء الاقتصاد عنها أنها ليست من الأموال الاقتصادية، باعتبار أن هذه الأخيرة اموالاً نادرة نسبياً، وهي السلع التي يتبادلها الإنسان مقابل بذل أثمان لها.

إن حكمة الله تعالى قضت أن يكون هناك أموال متوفرة ومشاعة لكل الناس كالماء والهواء والشمس لإنها ضرورية لحياة الإنسان، إذ إن عدم وجودها يحتم عدم وجود الإنسان أصلاً، وبما أنه لا قدرة للإنسان على توفير هذا النوع من الأموال، فقد خلقها الله تعالى له لأجل تمكينه من القيام بمهمة الاستخلاف، مما يدل على أن الإنسان لم يكلف أكثر من طاقته، وتوفير الأموال التي لا قدرة على توفيرها، وكما هو معلوم أن توفير الماء والهواء والنور هي شروط لا بد منها في حركة الإنسان كي يتمكن من توفير الأموال المادية النسبية، ولو أن الله سبحانه وتعالى طلب اليه أن يوفر الهواء والماء والنور لكان ذلك بمثابة الطلب إليه أن يوفر نفسه وحياته وروحه، وهذا محال على الإنسان ولا سبيل له إليه أي أن يوجد الإنسان نفسه، فهو قادر على استعمال الطبيعة وغزو الأفاق والأعماق، وقد زوده الله بكل ما يمكنه من ذلك وما على الإنسان إلا الانطلاق بهذه المهمة لتحقيق نفسه على ضوء قدراته وطاقاته ومعارفه، وهو كلما تطورت قدراته ومعارفه، كلما بادر إلى ابتكار أساليب جديدة في استعمال الطبيعة وتأمين حاجياته من السلع، وبناء على ذلك فإن كل ما انتهى إليه الإنسان على مستوى المسائل المالية

والاقتصادية والتجارية كان نتيجة حتمية لتطور معارفه ومداركه، ولم يكن نتيجة للصدف أو بسبب أمور خارجة عن ارادته، فهو الذي اختار في بداية الأمر تبادل السلع ومقايضتها، ولما اهتدى إلى وسائل جديدة لتوزيع منتجاته وحفظ أمواله، عمد إلى استعمال النقود، وعن هذه المقايضة التي لا تناقض الطبيعة كما يقول أرسطو «نشأت المبادلة الذميمة، أي التجارة التي لا غاية لها إلا جمع المال»[1].

وفي كتاب «تحرير المجلة» للشيخ آل كاشف الغطاء: «إن مدار العقد والمعاملات على الأموال، وليس للمال حقيقة عينية خارجية كسائر الأعيان تتمخض في المال تمخض سائر الأنواع في حقائقها النوعية، وانما هو حقيقة اعتبارية ينتزعها العقلاء من الموجودات الخارجية التي تتقوم بها معايشهم وتسد بها حاجاتهم الضرورية والكمالية فمثلاً: الحبوب والأطعمة مال لأن البشر محتاج إليها في أقواته وحياته، وهكذا كل ما كان مثل ذا من حاجات الملابس والمساكن ونحوها، وقد انتزع العقلاء منها معنى وصفياً عرضياً يعبر عنه بالمال»[2].

مما تقدم يمكن أن نشير إلى مرحلتين هامتين من مراحل الحياة البشرية، الأولى هي التي عاش فيها الإنسان مكتفياً بما كان ينتجه من سلع، وبما كان يؤمنه لنفسه من المعاش، فإذا ما زاد عنه شيء من ذلك بادر إلى مقايضته بسلع أخرى، وهذا الفن من فنون التجارة كان يضمن للإنسان حياة هادئة، ولم يكن هناك ثمة مجال للاحتكار على النحو الذي يجعل المجتمع اسيراً لسلعة معينة، فالخيرات كانت توزع طبقاً لحاجة كل فريق، وهذا لا يعني أن حياة كهذه كانت خالية من عقلية الترف، إذ ان الترف ليس وليد

(١) أرسطو، في السياسة، م. س. ص: ٢٧.
(٢) الفضلي، عبد الهادي، المنهاج، م. س. ص٣٣.

الحاجة إلى استعمال النقد وتطور التجارة وفنونها، وانما هو حالة نفسية يمكن أن تظهر في أي وقت سواء في وقت تبادل السلع، أو في وقت توسيط النقد بينها، باعتبار أن حالة الترف هي في الحقيقة حالة نفسية وليست حاجة واقعية مرتبطة بتطور حالة الإنسان وازدياد ثروته لما نعرفه من حالة الناس قبل التجارة والمبادلة فيما كانوا يلجأون إليه لتدبير أحوالهم، وتأمين معايشهم من أعمال القنص والصيد وقطع الطرق وما إلى ذلك من أعمال متباينة لأيجاد القوت، يقول ارسطو: «فطرق المعاش التي تعتمد على شغل منتج في حد ذاته، ولا تؤتي الرزق: بالمبادلة أو البيع والشراء، هي هذه على التقريب، الرعاية والزراعة والتلصص وصيد السمك وقنص الوحوش والطيور، ومن الناس من يقرنون بين الطرق المشار إليها طمعاً منهم في الترف. . . »[1].

فالترف حالة نفسية لم يسبقها الإنسان إلى الوجود، بل وجدت معه وتطورت مع معارفه وفنون تجارته، وترافقت مع تبدلات حياته وسائر تدبيراته المعاشية، لأن غريزة حب المال والسلطة متمكنة بالإنسان ومؤدية به إلى الترف حتماً ما لم يكن هناك تعاليم وارشادات وقوانين تضبط حركة الإنسان وغريزته، وتحول دون أن يتحول الإنسان معهما إلى مترف يستغلهما في سبيل الشهوة والافساد، وقد تبين مما سبق من أبحاث أن الترف ليس خاصية من خصائص الأغنياء فقط، وهذا ما ترشدنا إليه نصوص ارسطو من ان الناس كانوا يقرنون بين طرق المعاش طمعاً في الترف، مما يدل على أن ظاهرة الترف لا تكون نتيجة لحضارة ما، بل قد تكون سبباً لحضارة، وهي غالباً ما تكون سبباً للحضارة، بدليل ما نحن فيه اليوم من سياسات ترف تسببت بها نفسية الإنسان وأطماعه، فلو أن نفس الإنسان كانت مقيدة بما

---

(١) أرسطو: م. ع. ص٢٤.

شرعه الله تعالى وما جاء به الأنبياء، لما كُنا نشهد اليوم فنون الترف المتعددة فيما نعتمده من أساليب ومن وسائل لتدبير المعاش. . .

إن مرحلة تبادل السلع ومقايضتها لم تكن تخلو من عقلية الترف، إلا أن هذه الحالة تطورت مع الإنسان وتجارته لتصل إلى المرحلة الثانية التي وجدت فيها نفسية الترف ما يكفيها من الفنون لجمع الثروة، كما يمكن القول أيضاً أن المرحلة الأولى التي عاشها الإنسان في بدايات تفاعله مع الطبيعة، وفي ظل ما كان عليه من أساليب ووسائل وطرق لتحصيل المعاش، لم تكن تسمح بظهور تفاوت إجتماعي كبير في المجتمع نظراً لما كانت عليه الناس من بساطة في فنون التجارة والترف، ولما دخل الإنسان عصر التجارة وتوسط النقد بين السلع برزت نفسية الترف بشكل فاضح جداً لتتخذ من التجارة غاية، ومن الترف في الحياة ديناً. !؟

لقد بدأت المرحلة الثانية بانتقال الإنسان من المبادلة ومقايضة السلع، والتي كانت تتوخى الإكتفاء الذاتي، إلى التجارة التي توسطت النقد في تبادل السلع، ومع هذه المرحلة انتقل الإنسان من مرحلة الإكتفاء الذاتي، إلى مرحلة التجارة التي لا غاية لها إلا جمع المال من خلال تنمية النقد نفسه والتحايل في وجوه الكسب والتجارة، يقول ارسطو: «ولما عُمد إلى النقود، إذ اضطرت إليها المبادلة نشأ النوع الأخر من فن ادخار المال، وهو فن التجارة، ولقد برز بسيطاً في بدء نشأته، وتذرّع بعد ذلك بشتى الحيل، بسبب الخبرة المكتسبة متكيفاً بصور مختلفة لإغتنام أكبر المرابح من مكامنها»[1].

إذن ظاهرة المال في المجتمعات البشرية كان من الممكن أن تستمر على نحوها الإيجابي والمثمر لو أن الناس استمروا بها بالشكل الذي يؤمن

---

(١) م. ع. ص٢٧.

لهم حياة هانئة وسعيدة، وجعلوا منها وسيلة لعمارة الأرض واصلاحها، واتبّعوا ما جاء به الأنبياء من أحكام وقوانين. لكن انغماس بعض الناس في المادة، وطلب الحياة بأي ثمن دفع ببعض المجتمعات إلى طلب الثروة، واعتماد فنون تجارية غير مشروعة لاحتكار المال ومنعه من أن يكون مالاً للجميع، وهذا ما أرشد إليه الإمام علي عليه السلام بقوله: «ما جاع فقير إلا بما متع به غني» أي ان حالة التفاوت في المجتمع وانقسامه إلى فقراء وأغنياء بدأت مع المرحلة الثانية التي اعتمدت فيها الحيل المكتسبة والخبرات الطويلة، وكذلك المعاملات الربوية، وكانت النتيجة بروز طبقة المترفين في المجتمع الذين جعلوا المال والتجارة غاية نهائية لهم، ولهذا قال تعالى: **﴿وما أرسلنا من نبي في قرية إلا قال مترفوها إنا بما ارسلتم به كافرون﴾**[1]، وما من شك ان هذه الآية متضمنة لحقيقة تحول المجتمع الإنساني من مجتمع يتساوى افراده في الخيرات، ويطلب المال لتحقيق الإكتفاء الذاتي، ويصون أهدافه ومبادئه من أن تصبح عرضة للأهواء والمفاسد، وأسيرة للمال، إلى مجتمع المهن التجارية التي تطلب المال والترف وتوظف كل المبادىء والقيم في مشاريع التجارة والمال، وازاء هذا الحال كان لا بد أن ينقسم المجتمع إلى أغنياء يمثلون الطبقة المترفة، وفقراء يمثلون أصحاب المبادىء والقيم، وكان لا بد من أن ينطلق الصراع بينهما على طول التاريخ، ومن هنا نلاحظ العلاقة السلبية دائماً بين موقع النبوة وموقع المترفين في كل زمان، ولو أن أمر المجتمعات ومال الله تعالى خلي لهؤلاء لما بقي شيء من الصلاح في هذا العالم، ولأصبح عدم وجود الدنيا خير من وجودها. وقوله تعالى: **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**[2]، هو في الحقيقة مرشد إلى أن استقامة المجتمع البشري انما تكون ممكنة فيما لو كفت أيدي المترفين

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الحشر، الآية: ٧.

عن تناول المال ليكون دولة بينهم دون غيرهم، لأن من شأن اجتماع المال في أيديهم الافساد في المجتمع والتأثير على مبادىء الناس وقيمهم، والذي يحول دون وصول المجتمع إلى هذا المستوى من البلاء هو موقع النبوة الذي هدى الناس إلى كيفية استعمال المال في سبيل تحقيق هدف الاصلاح في مقابل أُولئك المترفين الذين يقضون أعمارهم كلها في طلب الغنى والإفساد في الأرض ظناً منهم بأن ذلك هو الاصلاح وقد عبر القرآن عن هذا المعنى حيث قال تعالى: **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون﴾**[1].

إن ما ضربه الله من أمثلة، وما أرشد إليه من حقائق فيما ذكره عن حالة قارون مع قومه، وعن صاحب الثمر الذي أحيط به، وعن الذين يحبون المال حباً جماً، كل ذلك ارشاد إلى الإنسان كي يقوم بالمال على حسب ما وجَد له أفلا يكون هدفاً بحد ذاته، وقد شرع الله تعالى في كل زمان من القوانين ما يمنع من ادخار المال عن طريق الربا والمهن التجارية التي تتوخى الربح فقط، وإذا كان لا بد من الغنى والثروة فلتكن هذه من أجل اصلاح المجتمع وإعانة الناس واقامة المؤسسات الصحية والتعليمية والتربوية وغيرها، وإن مما يدل على حقيقة ذلك هو ما بينه الله تعالى عن حالة مدخري الأموال والذين ادعوا أنهم أكثر أموالاً وأولاداً، حيث قال تعالى: **﴿ويل لكل همزة لمزّة، الذي جمع مالاً وعدّده، يحسب أن ماله أخلده، كلا لينبذّن في الحُطمة، وما أدراك ما الحطمة﴾**[2].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «أما الأغنياء من مترفة الأمم فتعصبوا لإثار مواقع النعم فقالوا: «نحن أكثر اموالاً واولاداً وما نحن بمعذبين»، فإن كان

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢.
(٢) سورة الهمزة، الآيات من ١ ـ ٢.

لا بد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الأخلاق»[1].

إنها دعوة إلى أن يكون المال وسيلة لحفظ الحياة واستقامة الأمور، وهو بمقدار ما يكون كذلك بمقدار ما يستطيع الإنسان معه من تحقيق توازنه وبناء حياته على ضوء ما شرع من قوانين وأحكام مالية واقتصادية، ذلك أن التعصب لأثار مواقع النعم وكل ما يمكن أن ينشأ عنها من كبرياء وتعالي، ليس ناشئاً من طبيعة المال ونعم الله على الإنسان، وانما هو متولد عن الجهل وسوء الفهم لوظيفة ودور هذه النعم، مما يؤدي إلى أن يكون التعصب لأثار مواقع النعم والترف بها بديلاً للقيم والمبادىء والأخلاق. وكل ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام بمكارم الخصال...

غاية المال وجودة الحياة:

مثلما أن الغاية من الشجاعة احراز الثقة والاقدام، ومثلما أن الغاية من الطب احراز العافية والصحة، ومثلما أن الغاية من القيادة الإصلاح في العباد والبلاد، فكذلك الغاية من المال، ان يكون سبباً في إعمار الأرض، وفي تسهيل معاملات العباد وتأمين المعاش اللازم لهم، وكل من يعمل في استصلاح الأرض، وفي استخراج المعادن، وفي تأمين مشاريع الري لقطاعات كبيرة من الأراضي، هو في الحقيقة يكون بصدد تأمين المال اللازم لكفاية عائلته ومجتمعه أيضاً.

أما أن يكون المال هو الغاية، فذلك معناه أن يتحول كل شيء في المجتمع، بحيث يصبح كل شيء في المجتمع منصرفاً إليه بذاته دون النظر إلى ما وراءه، وكم تكون المصيبة كبيرة في المجتمع إذا أصبحت الغاية من الطب هي الطب، أو الغاية من القيادة، هي القيادة، أي أن تتحول هذه كلها

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢

لا شك أن ذلك يؤدي إلى النتائج التالية، أن يتحول الناس إلى الحياة والسعي في طلبها كغاية ليس بعدها غاية، وبدلاً من أن تكون السلطة وسيلة لفصل الخصومات، وتحقيق العدل، تصبح بحد ذاتها سبباً للخصومة، ومحلاً للمظالم، فلا يتورع أي إنسان تحكمه الغريزة عن السعي في طلبها بدافع حب الرياسة وبهدف تحصيل السعادة، وتكميل الغاية، وكذلك الأمر بالنسبة للطب حينما يصبح غاية بذاته، فإنه يؤدي إلى أن يكون موضوعاً للتجارة، وبدلاً من أن ينتج العافية والسلامة للأبدان، يصبح سبباً في مرضها، والقول نفسه يقال في الشجاعة فيما لو تحولت إلى وسيلة لإحراز الأموال، وانحرفت عما هي معدودة له في أصلها، أي أن يحرز بها الاقدام في مواطن الحرب والجهاد.

إن المترفين الذين تحدث عنهم القرآن ووصفهم بما هم أهله، وما ادّعوه لإنفسهم من أولاد واموال وظنوه خيراً، هو في الحقيقة يريد أن يبين أن هؤلاء بما ذهبوا إليه من آراء ومعتقدات زاعمين أنه الحق ليس هو الحق، لإنهم جعلوا المال غاية لكل شيءفإذا لم تكن الشجاعة مؤدية إلى المال والثروة فهي ليست بشجاعة، وإذا لم يكن الطب مؤدياً إلى جمع المال والثروة فهو ليس بطب حقيقي، وكذلك القيادة للناس إذا لم تكن سبباً لدر المال، وتحقيق الترف فإنها لن تكون سلطة حقيقية، وانطلاقاً مما بنى عليه هؤلاء منطقهم وفلسفتهم نرى انهم يخالفون ارادة التكوين والتشريع معاً. فهذا الكون كله بكل ما فيه من أموال وأشياء أوجده الله لأجل أن يعبده وينتهي إليه، فلا الريح تجد بنفسها هدفاً، ولا النور ولا الشمس، ولا الهواء، وكل ما لا يعده علماء الإقتصاد اموالاً اقتصادية. ويحصل عليه الإنسان من دون بذل، كل هذه الأشياء لا تنظر إلى أنفسها باعتبارها هدفاً،

وكل منها يحافظ على خصوصيته ويؤدي وظيفته، ويطمح إلى غايته، وقد سخر الله كل هذه الأشياء للإنسان لأجل أن ينتهي باستخدامها والاستفادة منها في طريق الكمال والسعادة، فهذه كلها بالنسبة إلى الإنسان وسائل وليست غايات، وهو لما انحرف عن الحق وزاغ عن الصواب، وتصرف فيها على غير ما خلقت له وقع فيما وقع فيه من بلاءات ومحن وانتهى أمره إلى أن يصبح غاية لنفسه يتاجر بها في اسواق السلع دون أن يكون له أيما هدف من وراء ذلك. تلكم هي الوسائل حينما تصبح غايات، فلا يبقى شيء في مكانه، ويتحول المال إلى غاية تقاس به كل المعايير والأهداف والقيم، وحيثما لا يكون المال هو الحكم، فلا تكون هنالك قيمة لأي شيء على الاطلاق.

كيف لا ونحن لا نستطيع أن نغادر آيات ربنا التي تعرض لحال قارون وهو يترآى أمام الناس عارضاً زينته، فاتناً قومه، هذا العرض الذي يبين الله فيه كيف أن قارون كان يعتبر نفسه وقومه مالاً، وكذلك قيمه وأهدافه وكل ما كان يحيط به من ذهب وفضة وزينة كان يستخف بها قومه ويستعبده بها، فلم يكن هناك حساب عند قارون وقومه لأي تجارة أخرى سواء اكانت هذه التجارة رابحة أم خاسرة، إنه المال الذي تشري به ضمائر المهندسين والأطباء والمقاتلين وعوام الناس. . . !؟

هذا هو معنى أن يكون الإنسان مترفاً، ان تتحول كل المهن عنده إلى مهن تجارية لا قيمة لها ولا اعتبار ما لم تكن سبيلاً لإدخار المال، وكم كان ارسطو مصيباً ومحقاً حينما وصف حالة هؤلاء بقوله: «إن تلك الطائفة ـ من المترفين ـ تحول الفنون كلها إلى مهن تجارية لزعمها ان التجارة غاية، وكل شيء يوّجه حتماً إلى الغاية. . . »[1].

---

(١) أرسطو، في السياسة، م. س. ص٣٠.

إنه تأكيد حقيقي ومصيب لما كان عليه المترفون في حياتهم، ولو أن هؤلاء لم يقابلوا بالأنبياء والمصلحين، وبأصحاب الأهداف النبيلة، لما كان هناك ضرورة لأيجاد هذا العالم فيما لو كان الأمر يدور بين أن يكون الترف حاكماً ومستبداً وشاملاً، وبين أن لا يكون العالم موجوداً. إن الله تعالى أراد للإنسان أن يعيش حياته في ظل أهداف وغايات نبيلة، وقد مكنه الله من كل الوسائل المؤدية به إلى ذلك، وهو كلما تحقق بالايمان والعمل الصالح، كلما كانت قدرته على السيطرة على الحياة والمترفين أقوى، وهذا ما تجلى بوضوح تام فيما عرضه الله تعالى ومدح به أصحاب الإيمان السليم والعمل الصالح حينما واجهوا دعوات المترفين بمقولة: «ويلكم ان ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون».

لقد انتصر منطق النبوة في كل زمان، وهو منطق كما علمنا لا ينفر من جوده الحياة، ولا من المال فيما لو كان ذلك مؤدياً إلى ثواب الله والدار الآخرة، وهذا المنطق لا يخشى أن تكون الثروة كبيرة، وانما يخشى أن تتحول هذه الثروة إلى عامل إفساد في الأرض كما فعل المترفون في تاريخهم، والحق يقال: إن دعوة الأنبياء لم تكن إلى تحصيل الثروة وجمع المال، وانما كانت توجه الناس إلى الإكتفاء بما يجعلهم أقدر على مواجهة الحياة وتخطي الصعاب، وهو ما سبق للناس أن عاشوه في ظل مقايضات السلع وقبل أن يتحول النقد والغنى إلى تجارة بالارواح والمبادىء والقيم الإنسانية، ذلك هو مبتغى النبوة، أن يبقى المال وسيلة للعيش الكريم، واداة للإصلاح في العباد والبلاد.

دور المال في إضلال المجتمعات البشرية

إن الأحكام المالية في القرآن، إنما شرعت لأجل أن تتمكن البشرية من تدبير أمورها، وضمان معايشها، ولم يكن الهدف من تشريعها ابداً أن يتحول الناس إلى عبادة المال واتخاذه الهاً يعبدونه من دون الله تعالى، لهذا نجد أن الله تعالى يذم الذين يحبون المال حباً جماً ويأكلون التراث أكلاً لما، فالمال ليس غاية، وانما هو وسيلة لتنظيم أمور الناس الحياتية والمعاشية من قوت ومسكن وغير ذلك مما يحتاجه الناس في مبادلاتهم، وقد وضع الله تعالى لحسن التصرف بالأموال قوانين وضوابط حيث أنه منع من الربا، وحث على اتيان الزكاة وبين في العديد من الآيات الرحمانية أن وجوه صرف المال لا تكون كيفما اتفق، بل لا بد من ان تكون في أيد مؤمنة وأمينة[1]، ونهى عن أن يؤتي السفهاء أموالهم، أو أن يكون المال دولة بين الأغنياء،

---

(١) فقد جاء في الحديث: ان الإمام موسى بن جعفر ذكر بشأن تحديد مسؤولية الوالي في أموال الزكاة، : وإن الوالي يأخذ المال فيوجهه الوجهة الذي وجهه الله له، على ثمانية اسهم للفقراء والمساكين، يقسمها بينهم بقدر ما يستغنون في سنتهم بلا ضيق ولا تقية، فإن فضل من ذلك شيء رد إلى الوالي، وان نقص من ذلك شيء ولم يكتفوا به كان على الوالي أن يمونهم من عنده بقدر سعتهم حتى يستغنوا. را: الشهيد الصدر، اقتصادنا، م. س، ص٧٠٩.

فهو يحتاج دائماً إلى مَن يعرف بوجوه صرفه ومَن يستحقه من الناس، وهناك ابحاث فقهية كثيرة ترشد إلى هذه الوجوه وإلى مَن هم أهل لتطبيق الأحكام المالية، وهو ما يعرف بأبواب الفيء والخمس والزكاة التي يشرف عليها الفقهاء وقد افردوا لها الكثير من أبحاثهم وتقريراتهم. . .

قال تعالى في محكم كتابه: **﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على ما يشاء، والله على كل شيء قدير، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، فلله وللرسول ولذي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**[1].

فالآية ـ كما نلاحظ، ناظرة إلى حق الجماعة كلها في الثروة، وعلى الدولة أن تعمل لتأمين حق جميع الأفراد منها، وأن تمنع من الاحتكار، والآية ناظرة أيضاً إلى حاكمية النبي ﷺ، والإمام المعصوم ومن ينوب عنهما، ولا منافاة بين أن يكون الفيء مصرفاً لليتامى والمساكين وابن السبيل وبين كون النبي أو الإمام مالكاً للثروة وذلك باعتبار منصبه، فما لم يكن الإمام العادل هو الحاكم، فإن الثروة لا تلبث أن تحتكر من قبل الحاكم الجائر وجماعته، وقوله تعالى: **﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾**، يرشد إلى ضرورة أن يكون الحاكم على غنى نفسي وروحي، وعلى عدالة وعلم كي يتمكن من ضمان العيش الكريم والكفاية لجميع أفراد المجتمع الإسلامي، لأن مَن لا يكون على هذه الصفات وتُعطى اليه تقاليد الأمور في البلاد سواء في المال أو في السياسة أو غيرهما، يكون هو أول مَن يستأثر بالمال ويمنعه عن الفقراء والمساكين وابن السبيل، وقد اثبتت التجارب في تاريخنا الإسلامي أن الحاكم استولى على السلطة واغتصب مقام الخلافة،

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

وادعى الإمامة، وكانت النتيجة أن جعل مال الله دولاً، وعباده خولاً، وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «ولكنني أسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذون مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حزباً، والفاسقين حزباً...»[١].

اذن الآية تتحدث عن فيء لله ورسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومن ثم تنهى عن أن يكون المال دولة بين الأغنياء، مما يدل على أن المال لا يكون كذلك دولة بين الأغنياء إلا إذا كان النبي في موقعه وعلى رأس الدولة بقرينة قوله تعالى: **﴿ولكن الله يسلط رسله على ما يشاء﴾**، وبذلك فقط يكون ضمان حق الجماعة كلها في الثروة وايجاد نظام توزيع عادل لها، يقول الشهيد الصدر: «في هذا النص القرآني نجد إشعاعاً بالأساس الذي تقوم عليه فكرة الضمان، وهو حق الجماعة كلها في الثروة (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم» وتفسيراً لتشريع القطاع العام في الفيء، بكونه طريقة لضمان هذا الحق، والمنع عن احتكار بعض افراد المجتمع للثروة وتأكيداً على وجوب تسخير القطاع العام لمصلحة اليتامى والمساكين وابن السبيل ليظفر جميع الأفراد حقهم في الانتفاع بالطبيعة التي خلقها الله لخدمة الإنسان»[٢].

إن ما نرومه في هذا البحث ليس معرفة وجوه صرف المال، أو مَن يستحق هذا المال، وانما لبحثنا وجه أخر غير هذا، وهو معرفة أثر المال ودوره في إسعاد الناس واضلالهم، حيث ان المترفين الغارقين في الأموال، والجامعين لكنوز الذهب والفضة قد أساؤوا استعمال هذه النعمة، فبدل أن يستغلوها في إصلاح المجتمع، وتحسين أُمور الناس الصحية والعلمية

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٦٢.
(٢) الصدر ، محمد باقر، اقتصادنا، م. ع. ص٧٠٤.

وغيرها، نجدهم قد انطلقوا بها في طريق أخر، وهو طريق الافساد والتجهيل، وقالوا: «نحن أكثر مالاً وأعز نفراً وما نحن بمعذبين» إلى غير ذلك من المقولات التي رفعها ودعا إليها المترفون على طول تاريخ الإنسانية، ولا شك أن الباعث على هذا الأمر عندهم كان ولا يزال سوء الفهم والتصرف بهذه النعمة التي ظنوا أنها مغنية لهم عن الدار الآخرة حينما ضمنوا لإنفسهم سعادة الحياة أينما كانوا وفي أي دار حلوا، وهذا ما عبر عنه الرجل الكافر في حواره مع الرجل المؤمن بقوله: «ولئن رُدِدت إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً».

لقد كفر الأغنياء المترفون بأنعم الله، وزعموا أنها أُوتيت لهم على علم واستحقاق وسهوا عن أن الله يرزق من يشاء بغير حساب وعن أن الأموال والأولاد فتنة واحتقروا كل مَن لا سبيل للمال إليه، أو ليس له سبيل إلى المال، وكما قدمنا في العديد من الأبحاث أن تاريخ البشرية حافل بقصص المترفين وادعاءاتهم وناطق بما أقدم عليه هؤلاء من إفساد للمجتمعات الإنسانية، إذ انهم لم يوفروا جهداً إلا بذلوه من أجل التحكم بمصائر العباد والبلاد عن طريق وضع اليد على مصادر الثروة في البلاد وتوزيعها بشكل غير عادل، مما ساهم في ايجاد الانقسامات المادية بين فئات المجتمع التي كانت ولا تزال منقسمة إلى أغنياء وفقراء مدقعين بسبب ان الأغنياء احتكروا السلطة والمال معاً وتمتعوا بنصيب أغلب الناس من هذا المال الذي جعل الله الناس مستخلفين فيه وأمناء عليه كيما يذهب إلى غير مستحقيه، ويصرف في غير وجوهه المشروعة التي أرشد الله إليها ودل عليها في محكم كتابه . . . !؟

مما تقدم ندخل إلى البحث في أصل وجود المال فنسأل: هل أراد الله تعالى أن يؤتى المال للناس كي يضلوا عن سبيله؟

هل أراد الله تعالى أن يضل الناس بالأنعام عليهم ابتداءً بحيث يجعلوا

منه غاية لا هم لهم إلا الجمع والادخار والافساد والاحتكار؟

أم أنه اراد للناس أن يعيشوا النعمة ويشكروه عليها بأن جعلهم أكثر مالاً وولاداً؟

قبل الدخول في الإجابات على هذه الأسئلة، لا بد من الإشارة إلى الحقيقة التالية، وهي أن الله تعالى في علمه القديم يعلم بأن هذه النعمة فيما لو حصل عليها هذا الشخص أو ذاك ستؤدي إلى اضلاله أو إلى إسعاده، وإذا كان يعلم بأن هذه النعمة ستفسد على انسان ما دينه ودنياه وامتنع عن التفضل بها عليه، لوجب أن يمتنع عن التفضل بها على مَن علم أنها ستصلحه لإنه تعالى لو تفضل بها على من يكون له الصلاح بها دون غيره لما كان للإمتحان والتكليف معنى. . . فالإنسان مكرم من قبل الله تعالى واختياره هو الذي يحدد ما إذا كان من أهل الصلاح أم من أهل الفساد. وبما أن الامتناع عن هذا ليس من الحكمة في شيء فقد وجب أن يتفضل بها على جميع خلقه، كالشمس تماماً التي تشرق على الكافر والمؤمن معاً، مما يعني أن الله تعالى لا يلجىء احداً من الناس إلى افساد نفسه بالنعمة، ويوفق ويسدد الإنسان لاستثمار هذه النعمة في طريق الخير والصلاح، يقول الإمام علي عليه السلام: «فلا يقنطنّك إبطاء إجابته تعالى، فإن العطية على قدر النية. وربما أخرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه، وأوتيت خيراً منه عاجلاً أم أجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلرب أمرٍ قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته. . .»[١] من هنا نقول: إن علم الله الذاتي والقديم شيء، وتحقق هذا العلم في الواقع شيء آخر، ولا بد أن يمتحن الإنسان فيما لديه من النعم كيما يستحق الثواب أو العقاب. إنها سنة الله في خلقه، وقد شاء أن يمتحن عباده حيث قال تعالى:

(١) نهج البلاغة، الكتاب: ٣١.

﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادهم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾[٢]، وقد جاء في الدعاء المأثور: «اللهم انا نعوذ بك من مضلات الفتن»[٣].

إذن الهدف من النعمة على العباد، أن يصلحوا امورهم، ويحصلوا سعادتهم، والامتحان لهم فيما هم مستخلفون فيه، وامناء عليه، فإذا حصل الإضلال به فلا يكون الله هو المسؤول عن ذلك لأن الإنسان أقدم على ذلك باختياره فحوَّل المال بين يديه إلى نقمة بعد أن كان نعمة!؟

أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني عما إذا كان الله تعالى قد أراد الإضلال بالمال ابتداءً، فقد أجمع الفقهاء على أن الإضلال الابتدائي يستحيل عليه تعالى، وأما الإضلال بعنوان المجازاة ومقابلة السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبته كلامه في موارد كثيرة، وقد كان فرعون وملؤه مصرين على الاستكبار والافساد، ملحين على الإجرام، فلا مانع من أن يؤتيهم الله بذلك زينة واموالاً ليُضلوا عن سبيله جزاءً بما كسبوا»[٤].

قال تعالى: **﴿وقال موسى ربّنا إنك اتيت فرعون وملأه زينة واموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليُضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم. واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون، وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين، الآن وقد عصيت قبل وكنت من**

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢.
(٢) سورة التغابن، الآية: ١٥.
(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٩٣.
(٤) انظر السيد الطباطبائي محمد حسين، تفسير الميزان، بيروت الأعلمي، ج١٢، ص٥١ وج١٤، ص٢٤٤.

المفسدين﴾[1].

إن اكثر الناس افساداً في الأرض هم أصحاب المال والثروة، وهم سبب شقاء المجتمع الإنساني منذ فجر التاريخ وحتى أيامنا هذه، لإنهم يستعملون الأموال لقهر الناس وحرمانهم من حقوقهم المشروعة، وخوفاً من أن يتمكن الفقراء من حقوقهم، فإنك تراهم يبذلون اضعافاً مضاعفة من الأموال لأجل قهرهم، ولو أنهم أعطوا المال لأهله لوفروا الكثير من الأموال التي أنفقوها في الصراع مع الفقراء، فقارون مثلاً وإلى جانبه فرعون وهامان كانت الحياة عندهم وكذلك المبادىء والقيم عبارة عن أساورة من ذهب، وقد بذل هؤلاء جهوداً مضنية من أجل أن تكون هذه الأموال معززة لسلطان فرعون وزبانيته، لقد انفق هؤلاء المال فُي غير طريقه، مثلما جمعوه من غير طريقه، فبدلاً من أن يشكر فرعون الله على نعمه عمد إلى تنصيب نفسه إلهاً بقوله: **﴿أنا ربكم الأعلى﴾ ﴿وما علمت ان لكم إلهاً غيري﴾** فقد نازعه فرعون رداء العظمة والكبرياء وأشرك بالله مالم ينزل به سلطاناً واتخذ مال الله دولاً، وعباده خولاً مما حتم مجيء أمر الله، فأدركه الغرق بعد أن عصى وكان من المفسدين ولم يكن له فئة ينصرونه من دون الله..؟

وإذا كان فرعون قد ظن بنفسه خيراً وقدرة على التمادي في طغيانه، واعتبر نفسه ذا قدرة على تناول مال الله لتدعيم مشروع الشرك بالله والإفساد في الأرض، فما كان على موسى إلا أن يدعو الله بأن يطمس على امواله، ويشدد على قبه حتى يرى العذاب الأليم، لأن الهدف من المال ان ينفق في سبيل إصلاح الأرض وإسعاد الناس، وبما أن فرعون قد استعمله لإضلال الناس وافساد حياتهم الدينية والمدنية فقد وجب الدعاء عليه، حينما تحولت عاقبة امرهم إلى الإضلال عن سبيل الله، ومحاربة مشروع التوحيد، وذلك

---

(١) سورة يونس، الآيات: ٨٨ ـ ٩٠.

لم يكن من موسى واخيه هارون إلا بعد اليأس من ايمان فرعون وملئه.

إن المال: إما أن ينفق في سبيل الله، وإما أن يتحول إلى عبء على المجتمع وحياة الناس، وهو حينما ينفق في سبيل الله فإنه يتحول إلى مادة حياة في المجتمع الإنساني، لأن الله سبحانه وتعالى غني حميد، وهو المتفضل على عباده بالزينة والمال، وإذا كان الله قد استقرض الناس، فإنه، كما يقول الإمام علي عليه السلام لم يستقرضهم من قِلٍ، إذ كيف يكون ذلك منه وبيده خزائن السموات والأرض، وإذا كان الله قد استنصرهم، فإنه لم يستنصرهم من ذل، وكيف يكون ذلك منه، وله جنود السموات والأرض[1]. فالمال انما هو وسيلة لإسعاد المجتمع وتحقيق صلاحه، وذلك لا يكون إلا باعداد العدة وبذل المال من أجل الدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين، وفي مواجهة الأعداء في الداخل والخارج، فإذا لم يوضع المال في مواضعه، وصرف في غير وجوهه وإذا لم يُحل بين المترفين وبين المال، فإن صلاحاً ما في المجتمع لا يتحقق لأن الناس حينئذ يكونون قد استسلموا للترف وحياة الدعة والسكون والرغبة في قليل من القوت بمعزل عن الكرامة والايمان، وهذا هو ديدن كل المترفين في كل زمان، وأوامر الله تقضي بأن يقوم الناس بواجباتهم لئلا يحق عليهم القول فيدمروا تدميراً، وأول هذه الواجبات أن ينفق العالم من علمه، والغني من ماله، فيجد الفقير حينئذٍ مادة حياته وكذلك الجاهل، فيحال بين الطاغوت وبين أن يكون له السلطة على المال والعلم وغير ذلك مما يخش منه الظالم على سلطانه. اما إذا تخلى الناس عن واجباتهم ونبذوا اوامر الله ظهرياً، وبخل العالم بعلمه، والغني بماله، فإن فرعون وأمثاله في كل زمان سيجدون سبيلاً الى التحكم بمصائر العباد والبلاد ومصادر الثروات فيها

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٣.

فيصرفونها في اشباع رغباتهم وشهواتهم باستعمال كافة الوسائل الممكنة لتحقيق هذا الهدف، كما أنهم لن يألوا جهداً لاستيعاب البخلاء في العلم والمال ليكونوا لهم أعواناً على سائر الناس، وكما يقول الكواكبي: «إن المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته، فلا بد للمستبد من أن يستحقر نفسه كلما وقعت عينه على من هو أرقى منه علماً، ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكي، فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق، وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله «فاز المتملقون» بل هذه طبيعة في كل المتكبرين وعليها مبنى ثنائهم على كل من يكون مسكيناً خاملاً لا يُرجى لخير أو لشر»[1].

إذن ليس على الباحث إلا أن يتأمل جيداً فيما انتهت إليه حالة أصحاب العلم والمال في عصرنا الحاضر، كي يدرك حقيقة ما اليه اشرنا في معنى المال والسلطة، وهذا كافٍ للباحث لكي يطلق أحكامه على عصر فيه كل شيء إلا القيم والاخلاق والمبادىء فهي غريبة عنه. . . !؟

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد، بيروت، دار النفائس، ص٥١.

مفهوم الغنى والفقر في الإسلام

لقد أوضح الفقهاء أن الأحكام المالية في الشريعة الإسلامية، إنما جاءت لأجل أن تكون هناك دولة، وتنظيم أوضاع المجتمع الإقتصادية والإجتماعية والسياسية، دولة تعبر عن المجتمع فيما يكون منه، ويصدر عنه، بحيث تساعده على تحقيق ذاته بالقضاء على كل مظاهر الفساد والفوضى التي تحول دون سعادته وتقدمه.

فالإسلام ـ كما بين الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ـ لا يدعو إلى الفقر والحرمان، وانما يدعو إلى العزة والكرامة والغنى، وهذه لكي تكون ممكنة، فإن مجرد الدعوة إليها لا تكفي، بل لا بد من الإتيان بها بشروطها بأن يمتثل الإنسان لما أمر به ونهى عنه من قبل الله تعالى، ويطبق أحكام الله التي من شأن الإمتثال لها تحقيق الصلاح في المجتمع، والامتناع عن سلوك طريق الاحتكار للثروة من قبل اللاهثين وراء المال والعابدين له، لأن القيام بأمر الله تعالى وتطبيق أحكام الشريعة يقيد حركة هؤلاء، ويجعل الثروة محكومة بالأهداف التي يسعى المجتمع المسلم لتحقيقها، وإلا انتهى أمر الناس ـ في ظل غياب احكام الله ـ إلى البحث عن الثروة وجمعها باعتبارها

هدفاً بحد ذاتها، كما هو حال المجتمعات الرأسمالية اليوم التي جعلت المال بديلاً لكرامة الإنسان وطريقاً إلى الإستبداد والتحكم بمصائر العباد والبلاد!

قال تعالى: **﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل، وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾**[١]، وقال تعالى: **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكنهم كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**[٢].

فالآيات القرآنية نجد أنها تتحدث عن شروط ومقدمات لا بد من توفرها من قبل الطالبين للسعادة في الحياة الدنيا، وهذه الشروط هي: إقامة احكام الله وكل ما أنزل إليهم من ربهم، ومن ثم الإيمان والتقوى اللذين لا بد منهما في مقدمة كل عمل يقوم به الإنسان.

إذن السعادة والغنى وإبعاد شبح الفقر والذل، كل ذلك يبقى مشروطاً بإقامة التوراة والإنجيل والقرآن، وليس للناس أن يبحثوا عن سعادتهم، وعن الغنى المادي والمعنوي خارج ما أنزل اليهم من ربهم، وفيما وضعه لهم بعض المشرعين بوحي من شياطينهم، لأن الله سبحانه وتعالى شرع لهم الأحكام المؤدية بهم إلى السعادة دون أن يكون له غرض من وراء ذلك إلا الحياة السعيدة والغنية لهم، بينما المتشرعة الوضعيين، فقد شرعوا القوانين بوحي من شهواتهم ورغباتهم، وفصلوها على مقاسهم لكي تكون ضامنة لمصالحهم ومحققة لإغراضهم، وهذا ما اعتبره (روسو) في معرض حديثه عن القوانين الوضعية مبيناً ضرورة أن يكون العقل الكلي هو المشرّع لضمان سعادة المجتمع الإنساني كله..»[٣].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(٣) جعفر سبحاني، عقائدنا القرآنية، بيروت، دار الروضة، ط١ ١٩٩٣، ص٢٩٢.

إن الغنى والثروة في الإسلام أمر مشروع، وليس هناك في الشريعة ما يمنع منه أو يذمه ولكنه يبقى مشروطاً بأن يؤدي إلى يسر ورخاء المجتمع الإسلامي كله، حتى لا يكون هناك أغنياء مترفون، وفقراء مدقعون يدفع بهم الفقر إلى ابتغاء الغنى من غير وجوهه كما يفعل الأغنياء، وهنا يمكن القول انه من علامات وجود ثروة غير مشروعة عند الناس هو انقسام المجتمع إلى فقراء وأغنياء، ومن هذا الإنقسام يتم التعرف على انعدام العدالة في التوزيع مع وجود وفرة في الإنتاج، وحينما تكون نتيجة الثروة والغنى زيادة البؤس في المجتمع الإسلامي، وحرمان قسم كبير من الناس من العيش الكريم، فلا يبقى ثمة مجال للحديث عن ثروة مشروعة، لأن الثروة التي تعكس بؤساً وحرماناً وفساداً في المجتمع لا يمكن أن تكون مشروعة في الإسلام، يقول محمد باقر الصدر: «إن الثروة حينما تنمو بشكل منفصل عن الناس، ويكون الجمهور في خدمة هذه الثروة لا الثروة في خدمة الجمهور، سوف تكتسب الثروة نوعاً من الصنمية، وتصبح هدف غاية لا هدف طريق، ويصدق عليها قول النبي ﷺ: إن الدنانير الصفر، والدراهم البيض مهلكاكم كما أهلكا من كان قبلكم»[١].

فالإسلام يحث على تنمية الثروة، ولا يمنع منها فيما لو كانت طريقاً إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قال الرسول ﷺ: «نعم العون على تقوى الله الغنى»[٢]، وهناك من الأحاديث ما يكفي في كراهية الفقر والاستعاذة منه، كما في وصية الإمام علي لإبنه الحسن: «يا بني استعذ بالله من الفقر، فإنه منقصة للدين مدهشة للعقل، ومجلبة للمقت»[٣]. فكلها أحاديث تدعو إلى

(١) السيد الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، بيروت، دار التعارف، م. س، ص٦٧٢.
(٢) م. ع. ص٦٧٠.
(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٣١٩.

تنمية الثروة لا باعتبارها هدفاً بل سبيلاً لتحقيق الأهداف الإنسانية، بدليل أن المال هو مال الله، وقد عزز خلافة الإنسان به لأجل أن يتمكن من القيام بالدور المنوط به على هذه الأرض، يقول الصدر: «ليست الثروة هي الهدف الأصيل الذي تضعه السماء للإنسان الإسلامي على وجه الأرض، وإنما هي وسيلة يؤدي بها الإنسان دور الخلافة، ويستخدمها في سبيل تنمية جميع الطاقات البشرية والتسامي بانسانية الإنسان في مجالاتها المعنوية والمادية، فتنمية الثروة والانتاج لتحقيق الهدف الأساسي من خلافة الإنسان في الأرض هي نعم العون على الأخرة. . . »[١].

فمن أراد أن يجعل من الثروة وتنميتها هدفاً بمعزل عما تطلب لأجله، فإنه يكون قد ألغى كل الأهداف الإنسانية النبيلة لحساب الجمع والإدخار وتعاظم الثروة، وعطل دوره كانسان مستخلف على الأرض لغاية مقدسة كما انه يكون قد ضمن أكبر عدد ممكن من الناس العاطلين عن العمل، ومن الفقراء كما هو شأن المجتمع الغربي اليوم الذي يعاني اصحابه والقيمين عليه من الفقر والبطالة على الرغم من كل ما يملكونه من ثروات، وذلك لإنهم يعيشون الحياة بعلم لا عقل معه، وحركة لا هدف لها!. وهذا ما يمنع الإسلام منه في كثير من الآيات الداعية إلى ضرورة تنمية الثروة في سبيل صلاح المجتمع، وضمان يسر ورخاء حياة الأفراد جميعاً في مجتمع المتقين، وهذا ما يدعو إليه القرآن في سياق الحديث عما كان عليه قارون من غنى وترف، ففي الآيات القرآنية ما يدل على مشروعية الغنى والتمتع به شرط أن لا يكون هدفاً بذاته وبديلاً لكل شيء معنوي في حياة الإنسان، بل هدف طريق لإغناء الحياة الإنسانية وتحقيق سلامة المجتمع في دينه ودنياه، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم واتيناه من**

---

(١) الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، م س. ص٦٧٣.

الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ فيما اتاك الله الدار الأخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي أولَم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون مَن هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون، فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثلما أُوتي قارون إنه لذو حظ عظيم. . ﴾[١].

نلاحظ أن الآيات تتحدث عن نعمة أنعمها الله على قارون، على أن يبتغي بها الدار الأخرة والإحسان إلى الناس، وعدم الإفساد في الأرض، وقد نصحه قومه بذلك، فكان جوابه أن ادعى الانعام والاحسان إلى نفسه، وانكار نعمة الله عليه، وهذا هو شأن المترفين في كل زمان الذين ينمّون الثروة ويدخرونها لإنفسهم، وبذلها تحت عناوين شتى كلها لا تتجاوز شهوة الإنسان ورغبته في أن تكون له الهيمنة على مصالح الناس وتوجهاتهم للضغط عليهم، ومنعهم من السير في طريق أخر غير طريقه، ومن التعبير عن اراء مخالفة لأرائه كما يحصل اليوم في العالم تحت عنوان الديمقراطية حيث أن أصوات الناس تشرى بالمال لضمان فوز هذا الزعيم أو ذاك، لا لشيء إلا لأنه يملك الشركات والبنوك ولديه القدرة على تمويل هذا المشروع الانتخابي أو ذاك، يقول موريس دوفرجيه: «إن أصحاب الثروة في الغالب الأعم، لا يسعون إلى ممارسة السلطة بأنفسهم وإنما يحاولون أن يرفعوا إلى الحكم أناساً يثقون بهم ويستطيعون أن يضغطوا عليهم»[٢].

(١) سورة القصص، الآيات: ٧٦ ـ ٧٩.

(٢) دوفرجيه، موريس، مدخل الى علم السياسة، دار دمشق، ترجمة سامي دروبي، وجمال الأتاسي، ص١٧٢.

هذا هو قارون الذي أتاه الله المال لغاية مقدسة، فإذا به يشكر نفسه على ما أوتي على علم عنده، منكراً على الله تعالى انعامه عليه ساهياً عن أن الذين أهلكوا من قبله كانوا اشد منه قوة واكثر جمعاً، وكانت نتيجة حب الدنيا والمال ان خسر الدنيا والآخرة معاً. .

إن الآيات التي بين أيدينا تتحدث عن عاملين ساهما مساهمة فعالة في اغواء قارون، العامل الأول: هو ان قارون وجد من الناس مَن يساعده على طغيانه وإفساده، ومن يلتقي معه في أهدافه القاضية بتعمير الدنيا وتنمية الثروة في سبيل الحفاظ على الوضع المميز له ولحاشيته، واحتكار الثروة ضماناً لاستمرار تعلق الناس به وتقديم الطاعة له، لأنه تحت وطأة الفقر والحرمان، يصبح الناس عمياً عن الأهداف ولعل حديث الإمام الصادق عليه السلام يُغني في هذا المجال، فهو يقول: «إن صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا حاجته. . .»، فإذا وجد حاجته اكتفى بها وحرص على علاقته مع مَن أداها له تحسباً لمثلها في المستقبل، ويدخل في هذا العامل الأول، ما هو عليه الإنسان في نفسه وطبيعته من حب للمال وللثروة، ورغبته في التقرب إلى مَن يملك المال طمعاً في الحصول عليه، وبما أن المستبد المترف يعلم ذلك، فإنه يقوم بكافة الوسائل التي تجعل الناس بحاجة إليه، فيعطيهم المال تفصيلاً، ويعطونه الطاعة جملة، ويمكننا التمثيل على هذه الحقيقة بأوضاع مجتمعاتنا اليوم، كل المجتمعات الإنسانية، وليس المجتمعات الإسلامية فقط، حيث انتهى الأمر بها إلى أن تبحث عن المال باعتباره غاية ليس بعدها غاية، فإذا حصلت عليه، جعلت منه ديناً لها، ومما يدل على ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثلما أُوتي قارون إنه لذو حظ عظيم﴾**[1].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٩.

أما العامل الثاني، فهو ما كان عليه قارون نفسه من جهل بنعمة الله عليه، فقد بلغ حب الدنيا به حداً لم يستطع معه أن يقاوم شهوته ورغبته في بلوغ السماء، كما في قول فرعون لهامان: ابني لي صرحاً لعلِ أطلّع إلى رب موسى وهارون». إن هذين العاملين أديا إلى أن يكون قارون والناس على مستوى واحد من الجهل بنعمة الله تعالى، فابتغوا جميعاً بها الفساد في الأرض مما أدى بهم ذلك إلى خسارة الدنيا والآخرة معاً، وقد قال رَسُول الله ﷺ: ليس منا من ترك دنياه لأخرته أو أخرته لدنياه»[1].

فالمال لم يؤت للناس كي يطلبوا به الدنيا فقط دونما اعتبار للأهداف المقدسة والغايات السامية. فالله تعالى جعل الدنيا مزرعة الأخرة، ولما ترك الناس ما أمر الله به ونهى عنه وجهلوا أحكامه، حدث ما حدث من افراط وتفريط في استخدام المال واستثماره، باعتبار أن قارون كان بإمكانه أن يعيش الدنيا والسعادة كما يحلو له لو أنه سمع لنصائح المؤمنين من قومه، وقبل ذلك لأوامر ربه، لكنه أساء استخدام الثروة وأكثر من الجمع لهدف مادي محض، وهو جمع المال للمال وليس لأهداف اخرى تتجاوز ذلك، ولما خرج أمام قومه في زينته فتنوا به وطلبوا أن يكونوا على ما هو عليه دون سؤال أو فهم لما ينبغي أن تؤديه هذه الثروة والزينة من أدوار في اصلاح المجتمع وتحقيق السعادة والرخاء لكل الناس، بل اكتفوا بأبداء الرغبة والتمني أن يؤتوا ما أوتي قارون من حظ ظناً منهم بأن المال والزينة إنما هما نعمة بذاتهما بمعزل عن أية اهداف اخرى، وليس من المبالغة في شيء أن نقول أن هذا العرض لحالة قارون وبعض الناس في القرآن، يمكن أن نجد له مصاديق كثيرة في عالمنا المعاصر، وهناك ادلة كثيرة يمكن أن نسوقها لإثبات ذلك بدءً من الرأسمالية (القارونية المتفشية في أُوروبا، وانتهاءً في

---

(١) السيد الصدر، محمد باقر، اقتصادنا، م. س. ص٦٧٠.

العالم العربي والإسلامي الذي يعيش الفساد الكامل في جميع شؤونه بسبب سوء استخدام الثروة والحث على تنميتها لأجل الثراء فقط دونما اعتبارلإوضاع الناس الإقتصادية والإجتماعية التي تنذر بمخاطر كثيرة قد لا يكون أقلها ذهاب الثروة إلى الأخرين بعدما يساء استعمالها، وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله: «ان لله في كل نعمة حقاً فمن اداه زاده منها، ومن قصر فيه خاطر بزوال نعمته»[١]، وقال لجابر بن عبد الله الأنصاري: «يا جابر مَن كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه، فمن قام لله فيها بما يجب عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء»[٢].

إن أكثر ما يعرض النعم للزوال والفناء هو الظلم الذي يبدأ بسوء استخدام الثروة وينتهي بتبديدها وتمكين الأعداء منها، كما هو حاصل الأن في عالمنا حيث أن الثروة والمال وكل ما أنعم الله به على الإنسان تتحكم به حكومات الجور والطغيان وتنفقه على صناعة ادوات الشر من اسلحة وغيرها إضافة إلى وجوه الاسراف الإخرى التي تحول دون تأمين وضمان العيش الكريم لكافة أفراد المجتمع، ففي كل عصر هناك قارون يستبد بالثروة، وفرعون يستبد بالسلطة، وتكون النتيجة ظلم سياسي واجتماعي واقتصادي، وهذا كله يؤدي إلى أن تكون الثروة معرضة للزوال والفناء، يقول الإمام علي عليه السلام: «وليس شيء ادعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من أقامة على ظلم»[٣]، ويزداد الأمر سوءاً والحال فقراً حين ينتهي الظلم بالحاكم إلى استعمال الثروة والمال في سبيل اخضاع المجتمع وحمله على تقديم الطاعة عن طريق ممارسة القوة والعنف وما إلى لك من وسائل كسفك الدماء تحت

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٢٤٤.
(٢) م. ع. قصار الحكم، ٢٣٢.
(٣) م. ع. الكتاب: ٥٣.

عنوان حفظ النظام وحماية المؤسسات، كما يقول الإمام علي عليه السلام «وليس شيء أدنى لنقمة ولا أحرى بزوال نعمة من سفك الدماء بغير حقها»[١].

في مقابل قارون والذين تمنوا أن يكونوا مثله أصحاب حظ عظيم في الثروة والزينة، نجد منطق الذين آمنوا واتقوا الله، والذين دعوا إلى إقامة التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ما أنزل اليهم من ربهم، قال تعالى: **﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقاها إلا الصابرون﴾**[٢].

هذه الآية ترشد إلى أن دور الذين آمنوا، كان ترشيد وتصحيح مفاهيم هؤلاء الناس عن دور المال والزينة في حياة المجتمعات الإنسانية، والغاية المقدسة التي يجب الإنتهاء اليها من وراء الإنعام الإلهي بالثروة والمال. وها هم يبدون اسفاً شديداً، وتعجباً كبيراً، بقولهم: «ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً» وفي كلامهم هذا دليل على أنه باستطاعة الناس ادراك ثواب الله من خلال استعمال الثروة واستثمارها في سبيل الله بحيث لا ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا التي هي مزرعة الآخرة، وكما قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا خير فيمن لا يجمع المال من حلال يكف به وجهه أو يقضي به دينه، ويصل به رحمه»[٣].

إذن ليس معنى أن تصل إلى ثواب الله أن تترك المال وتزهد في الدنيا، وهذا مفاد كلام الذين أوتوا العلم فيما شرعه الله تعالى وأنعم به على عباده، فالثروة يمكن أن تكون سبيلاً إلى ثواب الله، ويمكن أن تكون سبيلاً إلى عقاب الله، ولما رآى الذين أوتوا العلم أن الثروة عند قارون ومَن معه قد

---

(١) م. ع، الكتاب: ٥٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٠.

(٣) محمد باقر الصدر، اقتصادنا م. س. ص٦٧٠.

سلكت بهم طريق عقاب الله تعالى، فما كان عليهم إلا انذارهم وأرشادهم إلى خطورة ما يقدمون عليه بأموالهم وأعمالهم، فبينوا لهم أن الإيمان والعمل الصالح مقدمات لا بد منها في الطريق إلى الأخرة، وإلى ثواب الله تعالى، وبما أن الله تعالى قد جعل من شروط عمارة الدنيا أن تكون الأموال والزينة وسائل ضرورية لتحقيق الهدف من استخلاف الإنسان في الأرض، فقد وجب ارشاد هؤلاء وتصحيح مفاهيمهم عن المال والسلطة والزينة لعلهم يبدلّون فيما اتخذوه لأنفسهم من وسائل وغايات ومواقف ترفع بهم إلى مستوى الصنمية والشرك بالله تعالى، بدليل أن منطق قارون والذين أرادوا الحياة الدنيا معه يدل على أنه قد جعل من نفسه إلهاً يعبد من دون الله تعالى، وقد أدى به هذا المنطق إلى الهلاك كما اهلك مَن كان قبله، وهذا ما عبرت عنه الآيات المباركة حيث قال تعالى: **﴿فخسفنا به وبداره الأرض، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنه الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون، تلك هي الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علّواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾**[١].

هذه الآيات، كما نلاحظ، تتحدث عما آل إليه أمر قارون الذي جعله الله تعالى عبرة للناس الذين فتنوا به، فبعد أن كانوا يتمنون ما أوتي قارون من زينة وأموال بالأمس، ترى انهم بعد الخسف به يعلنون التوبة والندم على ما تمنوه من قبل وقد ادرك هؤلاء ما سبق للذين أُوتوا العلم أن وعظوهم به من أن ثواب الله لا ينال بالتكبر على الله بنعمه، وهذه هي نتيجة كل صراع بين المصلحين والمترفين في كل زمان ومكان ومهما بلغت قوة الباطل وثرواته،

(١) سورة القصص، الآية: ٨١ ـ ٨٣.

فإنها لن تبلغ الحد الذي تستطيع معه أن تغير وجهة الصراع، وإذا كان للمترفين أن يتنعموا قليلاً بالمال والزينة التي أتاهم الله، وأن يدّعوا بأن ما هم فيه هو لهم من دون الناس، فإن ذلك لن يؤهلهم لأن يكونوا آلهة البشر وأسياد الدنيا إلى ما لا نهاية، وسيدرك الناس في النهاية ما هم عليه هؤلاء من خواء وزيف فيما يدعونه لإنفسهم من قدرة على جمع الأموال والاكثار منها، وسيكون لسان حالهم جميعاً: ﴿**ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا، ويكأنه لا يفلح الكافرون**﴾.

وهنا نسأل: هل يحتاج الناس في حياتهم إلى مزيد من العبر كي يدركوا أن الهدف مما أنعم الله تعالى به عليهم هو الدار الآخرة باستعمال الدنيا في سبيلها؟

وهل ما في القرآن من قصص، وفي التاريخ من حوادث لا يكفي للتعرف على ما ينبغي الإقتداء به والأخذ عنه، والحذر منه، أم أن السبيل إلى ذلك هو أن نعي ذلك عن طريق العيش الأني للكارثة بحيث تكون لنا عبرة مباشرة.؟

لا شك أن شعوب الأرض كلها، باستثناء الذين أُوتوا العلم، بالكتاب ومَن هم على بصيرة من أمرهم، تعيش أزمة حضور الواقعة التاريخية في ذاكرتها دون أن تعتبر بها، مما يجعلها عرضة للخسف في أية لحظة، وإذا كان الله تعالى قد شاء للأُمم أن تتربى على ضوء ما ذكره من أحداث وقصص في القرآن، وأرشدها إلى أن السنن التاريخية واحدة وتجري على اللاحقين كما جرت على السابقين، ودلها على السبل التي تستطيع من خلالها التحكم بهذه السنن بحيث تكون لها النجاة من كوارث سبق للذين خلوا أن تعرضوا لها، فإن كل ذلك لا يبقي أي مجال للأمة بأن تدّعي رؤية قارون ثانية يخسف به وبداره كيما يكون لها الإعتبار من ذلك فتقول «ويكأنه لا يفلح الكافرون».

إن الأمة لم تعد على جهل بِما يؤدي بها إلى ثواب الله تعالى، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، ولا بما يسبب لها الكارثة والخسف فيما لو عملت بالهوى وطلبت الدنيا وطغت بالمال. إنها عالمة بكل ذلك، ومن شأن تجاهلها لأمر الله ونهيه والبعد عن الإيمان والعمل الصالح، أن يجعلها عرضة للفساد في الدنيا، والعذاب في الآخرة، خصوصاً انها تعلم بأن الناس الذين فتنوا بالفراعنة والطواغيت كافة على مدى التاريخ قد أبى الله لهم إلا أن يروا مصير هؤلاء في الدنيا، ولم يتركهم إلى الآخرة كي يحق القول عليهم وحيث لا ينفع الإعتبار؟!

يبقى على الأمة أن تلحظ سعادتها عن طريق الاستخدام الصحيح لما أنعم الله به عليها من زينة وأموال وصحة في الأبدان والأديان، وأن تجعل ذلك طريقاً إلى ثواب الله الذي هو خير وأبقى، ذلك هو السبيل الوحيد لتحقيق اهداف الأمة المقدسة التي استخلفت لأجل استخدام كل شيء في سبيل الله تعالى ليكون لها ما هو خير وابقى، وكما قال تعالى: **﴿وإن كُلاً لَّمَّا لَيوفينَّهُم رَبُّكَ أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾**[1] . . .

---

(١) سورة هود، الآية: ١١١.

الفصل الخامس

الدين والحضارة والترف

تمهيد

١ ـ الدين والحضارة

٢ ـ الحضارة والترف

٣ ـ الحضارة ومشروع النبوة

٤ ـ الحضارة والمجتمع

٥ ـ الناس والترف

تمهيد

لقد بينا في هذا الفصل معنى أن تكون الحضارة نتيجة لفعل إيماني يقوم به الإنسان ويؤديه على ضوء نداء الفطرة والعقل، لأن أي عمل حضاري لا يحفظ للإنسان قيمته وكرامته، ولا يُبقي له على إنسانيته، يكون بمثابة الإرتداد على حيوية الإنسان وفاعليته وتاريخيته، وكما بينا أن الحضارة هي فعل نفسي قبل أن تكون فعلاً واقعياً، بمعنى أنه لا يمكن تحويل المعرفة إلى حضارة حامية للمجتمع الإنساني من الشرور ما لم تكن نفسية وعقلية أفراد وجماعات هذا المجتمع مؤهلة ومستعدة لصناعة هكذا فعل في الواقع، وما قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾ إلا دليلاً على أهمية الفعل النفسي وتأثيره في صناعة الواقع، وغالباً ما يكون الواقع صورة لنفس الفرد أو الجماعة، ومن هنا ربط القرآن بين النفس وما تكون عليه من حضور وحياة، أو موت وبين التغييرات الإجتماعية التي تحصل في أي مجتمع بشري، باعتبار أنه لا يمكن الفصل بين الإنسان وواقعه، مثلما أنه لا يمكن الفصل بين المعرفة والإنسان.

وإذا كانت الحضارة فعلاً في النفس والواقع معاً، فإننا نسأل عن طبيعة

وحقيقة النفس التي تقود مجتمعاً من المجتمعات إلى حياة مادية محضة لا روح فيها؟

وهل الذي خلق الإنسان والطبيعة والكون أراد لهذه النفس أن تكون صورة للواقع أم أنه أراد للواقع أن يكون صورة لها بحيث تكون دائماً منفعلة بما ينعكس عليها دون أن يكون لها أية انعكاسات على الواقع؟

لا شك أن الأديان كلها تذهب، بل تؤمن بأنه في البدء كانت الروح، وهذه الروح كانت دائماً مبعثاً للحضارات، ذلك أن الأشياء كلها لم تعطِ قيمتها إلا بعد أن وضع الإنسان يده عليها ونفخ فيها فتمثلت له الأشياء وخضعت، وتصرف فيها فانبعثت الأشياء ليكون الدليل عليها والسبيل إليها روح الإنسان. إنها حقيقة متجذرة في تاريخ الإنسانية، وأية حضارة لا تنبعث من روح الإنسان تكون عبئاً عليه بمقدار ما هي فعل له لاستحالة الفصل بين الإنسان والواقع الذي لا بد أن يكون من صناعة الإنسان سواء استحضر جميع أبعاده المعنوية والروحية والإيمانية أم لم يستحضر. فالواقع من صناعته وتعبير عنه، ودليل عليه مهما حاول الابتعاد عن شرور ترفه وطغيان شهوته، إن الحضارة كانت ولا تزال فعلاً انسانياً، ولم يأت التوحيد والايمان لأجل الحد من نشاط الإنسان في سعيه الدؤوب لبناء نفسه وتحقيق واقعه بما يلزم من عمل العقل، وانما جاءت النبوة بما جاءت به من دعوات لأجل أن تعطي الإنسان معناه وقيمته وجميع أبعاده بعد أن كان المترفون يعبثون بأنفسهم والواقع معاً في سبيل تلبية مطالب الغريزة الحيوانية التي كانت تدفع بهم إلى التحضر في الجانب المادي دون لحاظ حياة الروح والإيمان. . .

إن حضارة المادة ألهت الإنسان فقضت عليه. . . حضارة لها منطقها وأسلوبها ومُنهجها في الحياة، فيها الشهوة واللذة والكبرياء والطغيان والحرمان، فيها القتل والاستخفاف واليأس، فيها كل شيء باستثناء الإنسان

الذي كرمه الله تعالى فهو يموت تحت وطأة الكبرياء الفرعوني والاستعلاء!؟ لسنا نحمل على الحضارة كما فعل ابن خلدون، فهي بريئة مما انتهت إليه وأنتجته من شرور وغرور وفجور، وانما نحمل على الإنسان الذي هجر الإيمان والبينات واستغن مترفاً متعصباً لإثار مواقع النعم، وولى مدبراً مفسداً فيما خلقه الله صالحاً، كما قال تعالى: ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها**﴾ ذلك هو معنى أن تنبعث الحضارة من شهوة الإنسان لتطغى عليه وتحوله إلى آلة يعبث بنفسه في الوقت الذي يحرص فيه على سلامة الواقع بكل ادياته. . . !؟

لقد مَن الله على الإنسان بأن كرمه وعززه بكل ما يمكنه من السيطرة على الطبيعة وتطويعها لإرادته، وأتاه الله من كل ما سأله لأجل أن يحيى بطريقة تناسب روحه وعقله، ولم ينس أن يمن عليه بنعمة النبوة، ولكنه كذب الرسل والأنبياء وأصر على أن تكون للكفر حضارته وفاعليته في نفسه قبل الواقع الذي يعيشه ويتصرف فيه، هكذا انبعثت حضارة الكفر وتولدت من أحضان الترف التاريخي الذي أبى إلا أن يكون عدواً للنعمه وكافراً بها، وهكذا ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. !؟

إن الفعل الحضاري الايماني الذي أسست له النبوة، هو الذي يحفظ للإنسان صيرورته التاريخية، لأنه فعل جاء نتيجة لإثارة دفائن العقول وهو كلما كان موافقاً للإيمان، كلما كان اقدر على تطويع الحضارة بما هي فعل في الطبيعة، وهذا ما جاءت لأجله النبوة أن تكون حركة الإنسان متوافقة مع روحه ومؤدية به إلى الهدف الذي خلق من أجله، فلا نقول بأن الحضارة إنما هي تفنن في الترف كما يذهب ابن خلدون، ولا أن الناس غرباء عن أنفسهم وعن الواقع، وأنهم لا يفسدون، وانما نقول: إن الإنسان هو الفاعل ولطالما لديه المنهج والاسلوب والمنطق الإيماني، فهذا يؤهله لأن يكون قادراً على

الفعل في ضوء ما يلائمه روحياً وايمانياً، مثلما هو قادر على أن يفعل وفق ما يلائمه مادياً أيضاً بحيث تكون النتيجة وفاقاً بين العقل والايمان والحق يقال: إن النبوة جاءت لترشيد حركة الإنسان، وإحداث تواصل حقيقي بين النعم المادية والروحية وبين الوحي الذي كان ولا يزال الهدف منه تحقيق هذا الإنسان على مستوى العالم من خلال فعل حضاري ملائم لطبيعته، ومحقق لأهدافه السامية، وقوله تعالى: ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات**﴾، ناظر إلى هذا المعنى الذي أشرنا إليه، أي أن تكون للإنسان القيمة والفعلية الحضارية والحيوية الزمانية التي تعطي للإنسان جميع أبعاده، وحينما يتحصل للإنسان هذا المعنى وتكون له ابعاده كلها، فإن الواقع لا بد أن يتأثر بهذا المعنى وهذه الأبعاد، فتنعكس عليه وتجعل منه واقعاً حضارياً مكتمل الأبعاد، وحينئذ لا تكون الحضارة فعلاً مادياً محضاً، بل تكون حضارة فعل الإيمان والتقوى والهدف الواضح، ولطالما عرفنا أنه في البدء كانت الروح، كذلك في النهاية تكون الروح، وحيثما ما وجدت هذه، فإن الفعل المادي كله يكون محكوماً لها، وهذا ما عبرنا عنه في فصول هذا البحث بالاجمال تارة وبالتفصيل اخرى، وبالاضافة إلى هذا فقد بينا معنى أن يؤدي الترف بالفعل الحضاري إلى كثير من البلاءات والمصائب على مستوى الأهداف والقيم والأخلاق، باعتبار أن غياب الايمان من حياة الإنسان يجعله فاقداً للمناعة وللقدرة على مواجهة المادة، كما أن غيابه يعجز الإنسان عن أن تكون له إرادة الفعل وفق ما يريد ويتمنى، ومن تحضره التجربة التاريخية لا بد أن يكتشف بنفسه حيوية وفاعلية الحضارة المؤسسة على منهج الايمان، ويدرك أيضاً أن عالمية الفعل الحضاري تحتاج إلى اطروحة عالمية بامكانها أن تؤسسه لفعل دائم، ولحيوية دائمة تحفظ للإنسان مكاسبه، وتجعله أقدر على الحضور في التاريخ . . .

انها النبوة الخاتمة التي أسست لفعل الايمان، ولحضارة متوازنة ومكتملة الأبعاد، كما أكدت على ضرورة ان يتفاعل العقل مع الواقع على ضوء ما جاءت به من بينات، ذلك وحده الذي يحمل العقل على اكتشاف طبيعة عمله في عالم يكشف عن الوحدة من حيث هو متعدد، مثلما يكشف عن نفسه لجهة ما هو عليه من وحدة على الرغم من تعدد معارفه وتنوع مداركه. إنه عالم العقل الذي يثير فيه الإيمان حقيقة تجسيد هذا العالم لآيات الله تعالى لما هو عليه من تدبير متقن وقضاء مبرم، مما يعني أن الحكمة التي جعلت العالم محكم التدبير والنظام هي التي جعلت الايمان أساساً ومنهجاً لحضارة عالمية تخدم هدف الإنسان، وليس من حكمة الإيمان في شيء أن يتجزأ التاريخ والحضارة ما دامت هي عالمية من حيث وحدتها، وإذا ما أفلت العقل من عقال الشهوة، فستتضح له هذه الحقيقة، وسينبعث منه فعل حضاري واحد باتجاه هدف واحد كشفت عنه حكمة الايمان، واستثمرت كل العلوم في سبيله. هذا الهدف هو التواصل مع الله تعالى والتحقق في دار الخلود...

الدين والحضارة

إن اشراق العالم الكوني والإنساني بنور الله، لهو خير دليل على ما اراده الله تعالى للإنسان من حرية ومعرفة وكمال، فقد وفر له كل الأسباب التي تمكنه من الاضطلاع بدوره وتحمل مسؤوليته في صناعة ما يوافق فطرته وحقيقة شهادته. . . وإذا كان من معانِ الحضارة أن يرقى الإنسان إلى مستوى الحركة التاريخية التي بدأتها النبوة، فما يكون معنى البحث عن التاريخ والحضارة وكل ما تلوك به ألسن المترفين، بمعزل عما تقربه الفطرة وتتحقق به الشهادة. . !؟

فالتاريخ لا يكون تاريخاً ما لم تبق فيه للإنسان الإرادة والقدرة على الاستمرار به في ضوء حقائق الإيمان التي بلورت الفطرة، وأعطت للتاريخ معناه، وكذلك الحضارة، فهي حضارة ما دامت في متناول يد وعقل وارادة وتدبير الإنسان. أما حينما تصبح ترفاً وقلقاً وعصية على الفهم والتدبير، فذلك معناه انها تحولت من كونها حضارة الإنسان إلى انسان الحضارة فبدل أن تكون رهينة ارادته وحركته وايمانه، يصبح الإنسان رهينة لها تدفع به في كل اتجاه كما هو شأن حضارة اليوم، التي هي في جوهرها امتداد لحضارة

الفراعنة التي دلت النبوة على أنه لم يكن بالامكان التحدث عن معنى للتاريخ والحضارة وقبلهما عن الإنسان في ظل ما كانت تقوم عليه من ترف، فالحضارات الفرعونية كلها بما في ذلك حضارة العالم اليوم كانت تعتبر سبباً لقيم ومعانٍ ووجود الإنسان الإله الذي كان يربط حضوره وتقدمه وتاريخه بما يحققه من مادية وترف واستهتار بحقائق الايمان والمعرفة، ولعل قول فرعون لهامان، كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿**وقال فرعون يا هامان ابنِ لي صرحاً لعلي أبلُغُ اسباب السموات فأطلع إلى آله موسى واني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب**﴾[١]. ناظر إلى مضمون ما تقدم من أن المادية والتقدم فيها هي سبب كل ما ادعاه المترفون لإنفسهم في ظل غياب تام لمعنى الإيمان والفطرة والشهادة، وهكذا كان تاريخ الفرعونية فقد أريد له أن يقوم على هذا الأساس، بحيث تكون المادة والترف أساساً لكل شيء ولاعتبار كل شيء. . . !؟

هذا المنطق الفرعوني الحضاري كما يسميه البعض ممن ألف معنى الترف وحياة الترف، أدى إلى أن يكون كل شيء مغيباً بما في ذلك الإنسان نفسه، وحينما نقول ان الإنسان كان مغيباً، إنما نعني به أنه لم تكن هناك علوم وسياسات ومجتمعات، فقط الموجود كان فرعون وملأه الذين أبطرتهم النعمة حتى بلغت بهم درجة الطغيان. . !؟

إن الإنسان جوهرة هذا الكون، وهو إنما يستمر كذلك فيما لو استطاع أن يحقق الغاية التي من أجلها وجد على هذه الأرض، وهو إذا ما تجاهل هذه الغاية أو جهلها، فإنه لا يكون له أي معنى، ولا تاريخ ولا حضارة حتى ولو استطاع أن يبني صروحاً، وينشر الأرض جنوداً. . .

---

(١) سورة غافر، الآية: ٣٦ ـ ٣٧.

فما كان فيه فرعون من نعم لم يكن من عندياته، ولا ثمرة كبريائه واستبداده، وانما كان من عند الله تعالى حيث قال تعالى: **﴿وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينةً واموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليُضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾**[1].

وكونها من عند الله تعالى، فليس معنى ذلك أن يتحول الإنسان في ظلها إلى عبد لها، أو أن يستبد بها بحيث يجعل من نفسه الهاً من خلالها، فيقول للناس: «إن الله أراد لي الملك والمال وانتم له كارهون[2]... كما قال معاوية». أو يقول لهم: «إننا نحن الملوك، نجلس على عرش الله على الأرض. !»[3] كما قال جيمس الأول ملك انجلترا» أو يقول لهم: «أيها الناس: إنما أنا سلطان الله في ارضه[4]. ! كما قال المنصور العباسي»، أو «اننا لم نتلق التاج إلا من الله، فسلطة القوانين هي من اختصاصنا وحدنا بلا تبعة ولا شركة! كما قال لويس الخامس عشر»[5].

إن معنى وجود هذه النعم بأيد الناس، أن ينطلقوا في بناء حضارتهم على ضوء العقل والفطرة والإيمان، بحيث يكون لكل حركة من حركاتهم معنى وهدف، فلا تكون الثروة، والحصول عليها منتهى الأمال والأحلام والغايات، إذ انه في داخل كل انسان يوجد ما يشعره بأنه شيء مقدس يتجاوز حدود اللذة والشهوة والغرائز التي تدفع به احياناً إلى أن يكون أحط من

(١) سورة يونس، الآية: ٨٨.
(٢) إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، م. س. ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٣) م. ع. ص١٥٧.
(٤) م. ع. ص١٥٧.
(٥) م. ع. ص. ن.

نلاحظ في سياق الحديث عن موسى وهارون من جهة، وعن فرعون من جهة ثانية، كما ورد في القرآن أن أُسلوب ومنطق النبوة كان متمحوراً حول مسألة واحدة فقط، وهي الدعوة إلى التوحيد والايمان، فموسى عليه السلام يقول لفرعون وملئه: أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. . . فيرد فرعون بالقول: نحن أكثر أموالاً واولاداً، وما نحن بمعذبين. . . » وقال له موسى: **﴿إني رسول رب العالمين﴾**[1]، فأجاب فرعون: **﴿فلولا القي عليه اسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾**[2].

بالتأكيد لم ينظر الأنبياء إلى ما في أيدي الفراعنة والمترفين من مال وثروة، ولا كان هدفهم اشعار فرعون أنه منازع في ملكه وثروته، لأن موسى عليه السلام ـ كما بينا سابقاً ـ شرط له بقاء الملك ودوام العز إن أسلم، كما ورد في كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فالهدف النبوي كان بيان منهج وتحقيق غاية، وكشف عن معنى العقل، ودور الفطرة في حياة الإنسان، وهذا ما لم يفهمه فرعون إلا في نهاية المطاف حينما قال: **﴿أمنت انه لا إله إلا الذي امنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين﴾**[3]. ونسي ما سبق له أن قاله: **﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾**[4].

يقول الإمام علي عليه السلام فيما جاء من أجله الأنبياء: « . . . فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم انبيائه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويرهم آيات المقدرة،

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٩٠.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥٢.

من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم. . . »[1].

لقد جاءت النبوة لتثير مكامن الإنسان، وترشده إلى ما فيه من طاقات وقوى عقلية ونفسية، تحول الثروة والمال ـ في كثير من الأحيان ـ دون تفجرها أو الشعور بها، وقد قام الأنبياء بدورهم ووظيفتهم في ارشاد الإنسان إلى السبل التي تمكنه من ازالة العقبات التي تعترض عملية التواصل بين ما هو فيه وبين الغاية التي يعمل من اجل الوصول إليها. . .

وهنا نسأل متى تكون الثروة والمال عدواً للنبوة والتاريخ والإنسان، متى تكون عدوة للإيمان والفطرة وسبيلاً للهدم والإضلال؟

إن الزينة والأموال وسائر النعم الإلهية، إنما تكون عدوة للإنسان حينما يكون غافلاً عما شهد به في عالم الذر، وجاهلاً بالغاية التي من أجلها وجد، وغير متنبه لما أريد به، باعتبار أن الثروة في ظل غياب الشهادة والغاية والعقل لا بد أن تؤدي إلى الطغيان والترف والكفر بنعم الله تعالى، وحينما نقول أن النبوة جاءت لتثير دفائن العقول، فمعنى ذلك أنها جاءت لتعطي الحياة معناها، وتؤكد حضور الإنسان في الزمان والتاريخ. . .

من خلال إثارة دفائن العقل، فينطلق الإنسان في الحياة لبناء حضارته وتاريخه على ضوء الايمان بحيث يكون العقل والفطرة والإيمان هو الميزان وليس الثروة. . .

إن الفرعونية حاولت ولا تزال تحاول أن تجعل الثروة والمال والتقدم المادي مقياساً لكل شيء، وميزاناً للقيم والمعايير والأهداف، وذلك انطلاقاً من الفصل بين العلم والإيمان، وكما نلاحظ ونشاهد فيما يسمى بحضارة

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة (١).

الغرب اليوم أن هذا المنهج ساهم في إعادة انتاج حضارة مستقلة عن الإيمان والفطرة والعقل، مما يؤكد لا تاريخية هذه الحضارة لكونها فصلت بين الحضارة والوحي، واقتصرت في كل ما أنتجته على خدمة الغاية الدنيوية بكل تمظهراتها الزمنية والمادية المحدودة!؟

وهُنا يتساءل علي الشامي: «هل يقدر الإيمان على حل مجموعة الاشكالات التي ترافق تحول المعرفة إلى حضارة؟ خاصة وان المعرفة لا تنطلق من عدم، ولا تكتفي بما ورد في القرآن، بل ترث معارف، وتتعايش مع وقائع ومعطيات بعضها يتطابق مع مفاهيم الاسلام والبعض الأخر يتناقض معها واحياناً يقاومها...»[1] ويجيب عما تساءل عنه فيقول: «تجد هذه الإشكالية حلاً لها من خلال اعتبار الإيمان بداية تأسيسية لمنهج وغاية الفعل الحضاري، والنظر إلى التجربة المعرفية والتاريخية بوصفها دائرة صراع متواصل بين طرفين: طرف عقيدي وروحي يظل بالمرصاد لكل انحراف عن المنهج والغاية اللذين يوصلان الحضارة بالوحي ويزيلان ما يعترضهما من محاولات الإنفصال، كأن يتحول الوحي إلى جمود عبادي فردي... ويضع الحضارة في خدمة الغايات الدنيوية الزمنية للناس والدول والسلطات، وطرف زمني ـ مادي يمثل هذه الغايات ويسعى إلى عزل الوحي تحت وطأة المعطيات والوقائع الموجودة والمستجدة والتي تستجيب بسهولة لرغبات الإنسان وانانيته، وتحول العقل إلى تناقض مع الإيمان وتنتهي بتأليه الإنسان»[2].

فالنبوة إنما جاءت لأجل أن يكون لكل شيء معنى في هذه الحياة،

---

(١) علي الشامي، الحضارة والنظام العالمي، بيروت، دار الإنسانية، ط١، ١٩٩٥. ص٢٣٦.

(٢) م. ع. ص. ن.

فالنعم الإلهية موجودة، والإنسان موجود، فهي أتت على عالم مليء بالمعطيات والوقائع. وقد كلفت بهداية الإنسان إلى المنهج والسبيل المؤدي به إلى الغاية الحقيقية فلا يكون عرضة للأهواء والمترفين يدفعونه في كل اتجاه، فأثارته بما يلزم، «لإنجاز عملية التقدم الصحيح والتغيير الإيجابي في المجتمع عن طريق الحركة التاريخية المستبطنة للوعي الإيماني المستقيم»[(١)].

وإذا تساءلنا عن الأسباب التي أدت إلى إعادة إحياء المنهج الفرعوني بكل معانيه وامتداداته في حياتنا اليوم، فليس هناك أكثر من اجابه واحدة، وهي غياب النبوة ومنهجها من حياة الناس، فلم يعد هناك من يذكر بالميثاق، ولاَ من يثير العقول، ونتيجة ذلك كله ستكون حتماً الخروج من التاريخ، ومن الزمان الحيوي الذي سبق للناس أن عاشوه تحت ظلال النبوة وبركاتها، فالحضارة اليوم مجانبة للعقل تماماً، وإذا كان ما نعيشه اليوم هو من انجازات العقل، فذلك ليس دليلاً على الحقيقة بمقدار ما هو دليل على العبثية. إذ ان العقل لا بد أن ينفعل بالواقع المادي، وقد سبق لشعوب ما قبل التاريخ أن انفعلت بهذا الواقع وانتجت حضارتها المادية التي يعيش فيها كل شيء إلا الإنسان فهو يموت، وعلى رأي أورتيجا في ثورة الجماهير «ان هناك قصر نظر في السياسة الأمريكية وتركيز على رؤية الحاضر والواقع المباشر دون أي حس تاريخي بحركات الشعوب، ومَن يتصور أن امريكا بلد المستقبل ينسى انعدام حسها التاريخي»[(٢)].

إن الدخول في التاريخ وحيوية الزمان مجدداً، والتواصل مع القيم

---

(١) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، حركة التاريخ عند الإمام علي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط١، ١٩٨٥، ص٧٣.

(٢) انظر: حسن حنفي، ثورة الجماهير عند اوتيجا أي جاسية، الفكر العربي، الفرد والجماعة عدد ٥٤، ص٢٧.

والأهداف والمبادىء السامية، يتطلب صناعة جديدة للعقل على ضوء الوحي والايمان، حتى تعاد للإنسان قيمته وتاريخيته وحيويته في الزمان والمكان لأن فرعون القديم والحديث لا يمكنه من خلال ثروته وحضارته ومزاعمه أن يهتدي إلى حسه التاريخي فضلاً عن معناه التاريخي، وقول الله تعالى: «وكذلك زين لفرعون سوء عمله» ناظر إلى أن الفرعونية سواء أكانت قديمة أو حديثة غير متنبهة لما تدّعيه أو تزعم القدرة على فعله... ولكن سطوع دعوة الايمان كانت دائماً تكشف عن مهانة العقلية المترفة التي تعبث بنعم الله، وادنى تأمل فيما آلت إليه الإنسانية في ظل حضارة اليوم، لا بد أن يقود إلى استحضار كافة الصور والمشاهد والحالات التي كشف القرآن عن زيفها وهوانها، وها هي قد زالت وبقيت نعم الله تعالى الروحية والمادية ماثلة في الوجدان الإنساني، ولا أقول في التاريخ، لأن التاريخ في الحقيقة هو تاريخ حركة الإنسان باتجاه النبوة وكلما تماهى الإنسان معها واعتبر بها كلما كان أكثر حضوراً في التاريخ.!

إن تاريخية كل شعب تقاس بمدى اعتباره وتوافقه وتواصله مع المشروع الإلهي الذي جاء به الأنبياء، والحضارة ما لم تكن فعل ايمان وتواصل مع كل ما ينبع منه، فإنها لن تكون حضارة متكاملة الأبعاد، أو باعثة على الحيوية والانقياد لما يجعل من الدنيا سبيلاً إلى ما هو أرفع واسمى وانبل منها، فلا تكون حياة الإنسان كلها رهن المادية والترف، أو مقتصرة على التمتع بما تطاله يد الإنسان، فذلك ليس من التاريخية في شيء، كما انه ليس من الحضارة في شيء، بدليل أن حضارة اليوم وبعد انهيار القيم والمبادىء والأخلاق تحول العلم معها إلى ألة، والتقدم إلى غزو، والقوة إلى استعمار والإنتاج إلى استغلال، والتضخم إلى حروب، والوفرة إلى انتحار، والتقدم إلى يأس وقنوط!؟

أليس في تحقق هذا كله ما يدل على أن الإنسان لما يبلغ بعد إلى المستوى الذي يليق به سواء لجهة الإستفادة من الانجازات التي حققها، أو لجهة التحكم بما حققه من انجازات، وقد سبق لنا أن اشرنا إلى أن مشروع النبوة هدف إلى أن يكون الإنسان صاحب حضارة متكاملة لا يطغى فيها جانب على جانب، أو يعمل فيها جانب لحساب اخر، أو حضارة تنتهي إلى أن تكون محض مادية. . ! فبين أن يكون الإنسان صاحب حضارة أو يكون في خدمة الحضارة يوجد فرق كبير، ففي الحالة الأولى يكون الإنسان سيداً، بينما في الحالة الثانية يتحول الإنسان إلى عبد لما ينجزه فلا يستطيع أن يرى وراء ذلك شيئاً. !

هناك أمر بديهي جداً، وهو انه لا يعقل أن تكون الرسالات والنبوات قد جاءت لتحد من قدرات الإنسان، أو لتمنعه من أن يبني حضارته التي تُبقي له إنسانيته وتاريخيته وفاعليته في الحياة، وإنما جاءت ليكون للإنسان معنى، حيث قال تعالى: **﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾**[2] إن الناس لم يتركوا سدى، ولم يخلقوا هملاً، وأعظم فعل حضاري يقوم به الناس هو أن يتدبّروا أنفسهم والعالم ويعتبروا بما صرفه الله من آيات في الآفاق والأنفس، وما يضير الحضارة أن تكون لها كل هذه المعاني؟ بل ما يضير الإنسان أن يكون في سعيه وتقدمه هادفاً.؟ وهذا ما قاله موسى لفرعون، وعيسى ومحمد للمترفين في زمانهم، ولكنهم أبوا إلا أن تكون لهم الأسباب ليطلعوا إلى إله موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، وما كان كيدهم إلا في تباب كما بين سبحانه وتعالى. فالحضارة إما أن تكون فعل إيمان وحضور

---

(١) سورة القيامة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

تاريخي، وحيوية زمان، وإما أن تكون عاراً وناراً على أصحابها كما هو شأنها اليوم. إن النبوة جاءت ـ كما بينا ـ لتأسيس منهج، وتغليب منطق، وتأكيد غاية من وراء الفعل الحضاري الذي يبدأ من النفس وينتهي بالعالم الموضوعي. . .

الحضارة والترف

إذا كانت الحضارة فعل في الطبيعة، واسترشاد بالوحي، وتواصل بينهما، فإن معنى الترف هو العبث بموارد الطبيعة، أو فيما هو كائن فيها ونجنيه منها، والبطر بالنعمة والكفر بها، إضافة إلى استرشاد الهوى وحلول التصادم مكان التواصل. إنه نفي للحضارة بمعنى ما، أو لنقل إنه عبث واستبداد بها وصرف لها في غير وجوهها، كما كان الحال بالنسبة للحضارات السابقة التي كان الترف من أهم عوامل واسباب زوالها واندثارها!

يقول ابن خلدون: «الحضارة من توابع الترف، والترف من توابع الثروة والنعمة، والثروة والنعمة من توابع المُلك ومقدار ما يستولي عليه أهل الدولة، فعلى نسبة المُلك يكون ذلك كله فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده صحيحاً في العمران. . .»[1].

إن التأمل فيما كانت عليه الحضارات القديمة، وفيما هي عليه حضارة اليوم، وما انتهت إليه هذه الحضارات رغم كل ما شهدته من تطور وحققته

(١) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ص١٧٤.

من انجازات على مستوى العمران وغيره مما كان يحتاجه الإنسان في حركته من أجل البقاء والحياة، لا بد أن يكشف لنا عن حقيقة الدور الذي لعبه الترف في حياة المجتمعات الإنسانية، وعن المكانة التي كانت له عند المترفين والناس معاً، ونحن هنا نميز بين المترفين والناس، لأن الناس لم يكونوا مترفين بالمعنى القرآني للكلمة، وانما كانوا على استعداد ليكونوا كذلك كما في قوله تعالى في وصف حالة الناس مع قارون: ﴿**يا ليت لنا مثلما أُوتي قارون إنه لذو حظ عظيم**﴾[1]. وهذا ما سنبحثه في بحث مستقل فيما يأتي من أبحاث الحضارة والترف. . .

وكيف كان، فإن الحضارة من توابع الترف بما هو إسراف وتبذير وكفران بالنعم الإلهية، واستبداد بالثروة من قبل القيمين على شؤون المجتمع وثرواته، وبما أن الترف هو من توابع الثروة والنعمة ـ كما يقول ابن خلدون ـ فذلك لا ينبغي أن يأول بما يخدم الطبقة المترفة دائماً، إذ إنه ليس من الضروري أن تكون الثروات والنعم التي أنعم الله بها على الإنسان مؤدية إلى الترف، أو أن يكون الترف نتيجة حتمية لهذه النعم، فالمَلك المترف هو الذي يحدد ـ في فلسفة الحضارة المادية ـ سبل صرف النعم والثروات والأموال، وهو الذي يجعل منهما ملكاً خاصاً أو عاماً، فله الأمر في هذا الشأن، ما دام الله ـ كما يزعم ـ قد فوض إليه احتكار الثروات والأموال إن شاء اعطى منها، وإن لم يشأ لم يعط، وهذا ما ذهب إليه الخليفة الأموي بقوله: «أنا قفل الله على بيت مال المسلمين إن شاء فتحني وإن شاء اقفلني».

وهو لسان حال المترفين في كل زمان، ودليله في القرآن قوله تعالى: ﴿**أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين**﴾[2].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٩.

(٢) سورة يس، الآية: ٤٧.

لسنا نجزم أن الحضارة من توابع الترف، ولا أن الثروة والنعمة من توابع المُلك، لأن الأنبياء أسسوا لحضارات، وهدمّوا أخرى ولم يكونوا أصحاب ثروة، كما أنهم عملوا على تأسيس حضارة ايمانية هادفة تتجاوز هذه الحياة بأهدافها إلى حياة أخرى أكثر حضوراً وتجلياً من كل ما يشاهده الإنسان في هذه الحياة التي عملت حضارة المترفين على بنائها وتعزيزها باعتبارها منتهى الغايات والسعادات!.

إن مقياس الحضارة أن تكون على مستوى الرسالة والهدف، فكم من أمة لم تكن تملك من المال والثروات إلا القليل القليل، واستطاعت أن تمتد في الزمان، وأن تصنع التاريخ بالقليل من الإمكانات، وخير مثال على ذلك هو الأمة الاسلامية التي انطلقت من شعاب مكة بهداية وحكمة الرسول محمد ﷺ لتصل إلى قلوب العالم كله، ضاربة جذورها في كل أرض، ممتدة أغصانها إلى كل مكان...

من هنا نقول إن الربط بين الحضارة والترف هو تأكيد لحضارة الترف إن لم يكن تبرير لها في ضوء تاريخ الحضارات والتركيز على أحوالها وفنون تدبيراتها كما فعل ابن خلدون وغيره من علماء الإجتماع في عالمنا المعاصر[١].

---

(١) ابن خلدون يرى ان الحضارة متصلة وصراع دائم على الملك والرياسة، ومتقلبة بين طور واخر إلى ما لا نهاية، وكأنما نلحظه يؤسس لصراع تاريخي حقيقي، ولقوانين اجتماعية طبيعية لا مفر من حاكميتها على ضوء مسيرة البشر والتاريخ دون أن يُعطى للإيمان أية دور في بناء الحضارة، كما أنه يقتصر في تعريفه للحضارة، بأنها تفنن في الترف وأدنى اعتبار لما يؤسس له ابن خلدون يكشف عن أنه متحامل على الحضارة بما هي فعل واقعي مادي، بينما نجد الإسلام يغفل عن هذا المعنى، ويؤكد على دور الفطرة الإنسانية في بناء الحضارة التي لا تتحكم بها فنون الترف، كما في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ فالحضارة إذا كانت متوفرة على هذا الشرط فإنه لا يعقل أن يكون لها اطوار وتقلبات، لأن القانون الحاكم في هذه الحالة =

ونرى أيضاً أنه قد تكون هناك حضارة من دون ترف، وقد يكون هناك ترف من دون حضارة، كما كان حال الأمويين الذين اترفوا في الحياة الدنيا دون أن يكون لهم أدنى فعل أو تقدم على مستوى الحضارة، بل ساهموا في ما مارسوه من استبداد وترف بقتل الروح التي هي عماد الحضارة الإلهية في الأرض، وأساس حيوية الإنسان في انطلاقته لبناء صروح المعرفة والإيمان

= لا يكون المُلك المؤسس على العصبية، ولا على ما يشهده الإنسان من اطوار البداوة والحضارة، وانما الفطرة والانسجام التام بالإفعال معها، ولهذا قال تعالى: ﴿**ذلك بأن الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾.

وعلى ضوء هذا القانون الذي يخضع تبدل النعم او زوالها إلى ما تكون عليه النفس، فإننا نستطيع القول بأن الحضارة ليست نقمة على الإنسان، بل نعمة استحقها بأفعاله، لكن دوامها يحتاج إلى دوام صلاح النفس، فلو فرضنا أن نبياً من أنبياء الله تعالى أسس لحضارة ما وحافظ أهلها على صلاح أنفسهم وسلامة اهدافها، فإن ذلك يؤهلهم لأن ينتقلوا من طور إلى طور دون أن يكون المعيار لأي تغيّر الواقع الموضوعي، بل تبقى النفس هي المعيار للحكم على الحضارة ما إذا كانت نعمة أو نقمة، فالملك في ضوء الفطرة وسلامة الأهداف يبقى حضارياً في كل الأطوار الطبيعية للدول على حد تعبير ابن خلدون، ولهذا نحن نعتبر تعريف الحضارة بأنها تفنن في الترف، هو تعريف صحيح بلحاظ الواقع الموضوعي لنشأة وتطور الملك الذي يستتبع الرفاه والإسراف في الأموال، إلا أننا في ضوء ما تمت مناقشته لا يمكننا التسليم مع ابن خلدون بأن الحضارة هي تفنن في الترف فيما لو كانت هذه الحضارة نتيجة لفعل ايجابي تدفع اليه الفطرة الإنسانية على ضوء قوانين الشرع والعقل معاً.

إن ما يؤسف له هو أن ينطلق علماء الإجتماع في عصرنا الحاضر في بحوثهم للحكم على الحضارة من واقع التبدلات البشرية التي غالباً ما كان سببها معاندة الفطرة، والكفر بنعم الله تعالى، وإذا كان علم التاريخ قد أفاد هذه الأحكام في ضوء صراع البداوة والحضارة، واضطر الباحثون الإجتماعيون والتاريخيون إلى ملاحظة هذه التقلبات للحكم عليها، فإن ذلك من شأنه أن يُبقي على سلبية الحضارة ما دامت تفنن في الترف، لكن الحقيقة هي غير ذلك تماماً باعتبار أن سلبية الحضارة وما يتبعها من فنون تنشىء دائماً مما تكون عليه النفس التي ينتهي الأمر بها في كثير من الأحيان إلى الترف، ومن هنا يمكن القول: إن الإنسان هو الذي يبدل نعمة الله كفراً فيما يلجأ إليه من فنون ترف، وليس للحضارة ذنب فيما لو أراد الإنسان التأسيس لها على فنون ترفه وفساد نفسه...!؟

في كل زمان.

وهكذا كان حال العباسيين الذين أُترفوا لدرجة الشرق بالماء وهم عطاشى، وقد تولد عن ترفهم حضارة ما لبثت أن توارت خلف الجواري، وتنافس الخلفاء على ما طاب ولذ من المأكول والمشروب والمنكوح، فقد روى أن المأمون في عرسه دفع مهر بنت الحسن بن سهل ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة مَنٍ وهو رطل وثلثان، وبسط لها فُرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت...»[١]. وهذا ـ كما يقول ابن خلدون ـ «من طبيعة الملك الذي يقتضي الترف، فالفقير يهلك والمترف يستغرق عطاءه بترفه...»[٢].

إن الأنبياء في صراعهم ضد المترفين وما كان ينادون به من مشاريع ترف وحضارة، بنوا أُسساً ومرتكزات جديدة لحركة الإنسان في الحياة، وأرشدوا المجتمع الإنساني إلى أن يكون أول فعل حضاري هو الفعل في نفسه قبل الطبيعة، لأن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، ومن شأن تجاوزها إلى الفعل في الطبيعة انتاج فعل حضاري غير متوازن مما يؤثر سلباً على المشروع الإلهي الذي يحتاج إلى قوى وادراكات عقلية ونفسية تسهم في بلورته وتحقيقه على النحو الذي يستطيع معه الإنسان أن يربح نفسه أولاً والعالم الطبيعي ثانياً، فما لم تروض النفس بالتقوى، ويتحقق القلب بحقائق الإيمان، فإن الترف سيجد طريقه إلى افساد أي فعل خارجي يقوم به الإنسان، لأن الترف «مفسد للخلق بما يحصل في النفس من الوان الشر والسفسفة وعوائدها، فتذهب من الناس خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة على

(١) ابن خلدون، المقدمة، م. س. ص١٧٣.
(٢) م. ع. ص١٦٩.

الآدبار والانقراض. . . »[1].

إذن عمل الأنبياء وهدفهم كما اشرنا سابقاً، كان متمركزاً حول إثارة دفائن العقول لأجل ان تنطلق هذه انطلاقة سليمة في فهم ظواهر العالم الخارجي واسراره، لأنه كلما كان العقل متحرراً من طغيان الشهوة واللذة، كلما كان اقوى على الاعتبار والتأمل، أضف إلى ذلك ما تتوفر له من قدرة على تعزيز الحالة الإيمانية، ومن هنا صح القول أن الحضارة ليست فعلاً في النفس فقط، ولا في الطبيعة فقط، وانما هي في كلاهما معاً، يقول قسطنطين زريق: «الطبيعة بذاتها لا تكون حضارة وسواء اعتبرنا طبيعة الأرض أو طبيعة الإنسان، فإن هذه أو تلك لا تعدو أن تكون مادة أو امكاناً، أما الحضارة فهي فعل فيهما وحصيلة هذا الفعل، ولذا فإن المجتمع الذي

---

(١) إن للترف دخالة عظمى فيما انتهت إليه الأمة الإسلامية من هزيمة حضارية على مستوى النفس والواقع معاً، فقد الهاها التكاثر، وهان عليها الإختلاف والتناثر مع ما رافق ذلك من فنون ترف في الحياة العامة والخاصة للناس، أضف إلى ذلك ما استقرت عليه الأمة الإسلامية من تبدلات وتغييرات في النفس، مما ادى بها إلى أن تكون عرضة لتغيير النعم كما بين الله تعالى، وكانت كلما كثر رياشها كلما تقهقرت أمام النعمة، ووفور الثروة، ولكن كما يقول الله تعالى: ﴿فما اغنت عنكم كثرتكم. . .﴾.

لقد هزمت الأمة قبل أن تصل إلى الأندلس، وقبل ان تبني صرحها الممرّد ذلك أن التمدد البشري والجغرافي يوافقه كثيراً الترف وحب الملك والرياسة وغير ذلك مما تتشكل منه الهزيمة. بمعنى اخر نقول: ان الترف مع سياسة الامتداد والغزو يمكن أن يحقق انتصارات مادية، إلا أنه لا يحفظ ما يتحقق من انتصار لآن خلال الشر لا تبقي على صديق، ولا تبني صروح مجد، وإن استطاعت فلوقت قصير جداً!؟ إن انتشار الأمة وامتدادها على طول الزمان والمكان لو رافقه، زهد بالدنيا وتدبير للثروات وسلامة في الأهداف، لما كانت استبدلت الأمة بكثير من الهزائم والأجانب، فالترف هو عدو الإنسان ومرضه، لأنه يقتل روح الجهاد ويزيد من حب الدنيا وكراهية الموت فيكون ذلك علامة على الادبار والانقراض لكل أمة تستبدل النفس بالمال، وحضارة العقل بحضارة البصر، وخلال الخير بخلال الشر والذي هو خير بالذي هو أدنى. . . ؟!

يكون خاضعاً لمحيطه الطبيعي أقصى الخضوع، والذي يسير افراده بدافع السليقة والشهوة يظل قاصراً عن مرتبة الحضارة»[1].

فالأنبياء لم يبعثوا ليكونوا ملوكاً، ولا ليخففوا من عزيمة الإنسان في سعيه من أجل بناء حياة مادية سليمة غير مترفة، وانما جاءوا للكشف عن هوية ومضمون كل الملوكيات العارية التي كانت تحول دون تواصل الإنسان مع خالقه، وتستخف بالقيم والأخلاق والمبادىء، حيث أن رحمة الله وعنايته وحكمته أبت أن يترك الناس هملاً تقذف بهم اهواء الترف وسياسات الغرور في كل اتجاه، وهذا ما عبر عنه الرسول محمد ﷺ بقوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فالتركيز على المسألة الأخلاقية كان جوهر ما جاء به الأنبياء والرسل، وعمدة المشروع السياسي الذي عملوا على تحقيقه.

إن حضارة تتقوّم بالأخلاق كانت ولا تزال مطلباً أساسياً في حركة الدعوة إلى الله تعالى، وأية حضارة تقتصر على التفنن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش وسائر ما يمكن أن تصنعه من تكنولوجيا وتقنيات ومعارف علمية موضوعية تبقى عرضة للزوال ما لم يكن فيها للروح والأخلاق والدين والمعتقد معانيها وتأثيراتها وانعكاساتها على حياة الإنسان...[2].

أما أن يقتصر التحضر على فنون الترف ومظاهر المادة، فهذا ما سبق لفرعون أن اعتبره أساساً وجوهراً وروحاً للحياة، وكانت النتيجة أن أهلك

(١) قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، بيروت دار العلم للملايين، ط١، ١٩٤٢، ص٤١.

(٢) فرح موسى، بين ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة، عند الشيخ شمس الدين، بيروت، دار الهادي، ط١، ١٩٩٤، ص٢٥٩.

نفسه بما أترف فيه وظنه أنه لن يبيد أبداً، وغداً يقال له ارجع ولا تركض إلى ما أترفت فيه، كما في قوله تعالى: **﴿فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون، لا تركضوا وارجعوا إلى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾**[(١)].

وهذا ما نعيشه نحن اليوم في ظل حضارة الغرب من ترف، الحضارة الشوهاء ـ كما يقول غاردوي ـ التي ما هي إلا طور من اطوار الحضارة ليس أحسنها ولا أكثرها انسانية وتقدمية، انها عرض طارىء لا قدرة لها على إقامة حوار حقيقي بين الحضارات بسبب ولاء الغرب الأعمى لثقافته وحضارته»[(٢)].

فالترف مفسد للنفس والأخلاق، ومشجع على كل الوان الشر، وهو كما قلنا سابقاً لا يحتاج دائماً إلى تقنية وسلاح كيما يعبر عن نفسه، ولا من ضروراته ومستلزماته أن يكون هناك حضارة بالمعنى المعروف والمألوف عن الحضارات: فكل من تبطره النعمة وتدفع به إلى الطغيان والكفران بأنعم الله، هو في الجوهر انسان مترف حتى ولو تظاهر بالزهادة والقداسة والعبادة، باعتبار أن هناك «من الناس مَن لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة حدّه ونضيض وفره[(٣)]»، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام، وقد سقنا من أمثلة الترف والمترفين ما يدل على أن الترف يكون فعله في النفس أكثر مما يكون فعله في الواقع، من قبيل ما كان عليه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي قيل أنه كان من أفقه وأنسك الناس في المدينة، ولما بويع بالخلافة اطبق القرآن وقال له: هذا أخر عهدنا بك. . .

إن حضارة النبوة ووظيفتها تهدف فيما تهدف إليه إلى حفظ مكاسب

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٣.
(٢) را: فرح موسى، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة، م. س. ص٢٥٨.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٦٣.

الإنسان وانجازاته على مستوى الروح والمادة معاً، وارشاده إلى السبل التي تؤول به إلى السعادة في الدنيا والآخرة، إضافةً إلى حمايته من شرور الترف فأهدته إلى ما حلل الله تعالى وحرم، وامرته بالاعتدال فيما يتناوله مما أحله الله له بحيث يكون مقسطاً، كون الله أمر بالقسط، ونهى عن الاسراف وغير ذلك مما سبق لنا أن وقفنا عليه في ابحاثنا السابقة.

لكن المترفين شق عليهم هذا الأمر فدعوا إلى خلافه، وإلى تناول ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، كما هو حال الحضارة الغربية اليوم التي لا ينقصها إلا أن تنادي في قومها كما نادى فرعون في قومه. فقال تعالى: **﴿ونادى فرعون في قومه قال يا قوم اليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾**[1].

تلك هي حالنا اليوم في منتهى فنون الترف، وفي غاية الاتجار بالنفس والروح والأخلاق وبكل المبادىء والقيم التي من شأن نفوذها في مجتمعنا التخفيف من حدة الشهوة والعدوان، وحماية الإنسان من شرور ترفه وغرور نفسه، وبطر شهوته، فلا تكون الحضارة عبأ ولا هماً على الإنسان الذي كرمه الله تعالى وجعله قادراً ـ بما زوده به من قدرات وامكانات وقوى عقلية ونفسية، على التحكم بالطبيعة، وهادياً له إلى كل الأسباب التي تساعده على التكيف مع نفسه ومع العالم من حوله، فلينظر الإنسان إلى ما كان فيه وإلى ما اصبح عليه، وليعتبر بنعم الله عليه الروحية والمادية[2]، لعله بذلك يحفظ

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥١.

(٢) يروي ابن خلدون انه وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة فقد حكى أنه قدم لهم المرقّق فكانوا يحسبونه رقاعاً وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينتهم ملحاً ومثال ذلك كثير فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة من أمثال ذلك افادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه. انظر المقدمة، م. س. ص١٧٢.

=

ما كان ويكون منه في المستقبل من تطور وعلوم ومعارف . . .

فالحضارة ـ كما تبين فلسفة السماء ودعوة الأنبياء، ليست بديلاً للإنسان، ولا نقيضاً له، وانما هي فعله في نفسه وفي الطبيعة، وما سبق للإنسان أن عاشه أو أُترف فيه لم يكن له بمعزل عن ارادته، ولكنه صنع الداء لنفسه حينما وقع اسيراً لما صنعه بيديه، وحينما حل ضيفاً على مائدة الشهوة واللذة، فانقلب ما صنعه عليه وحوله إلى الة صماء، من كونه انساناً فاعلاً إلى انسان منفعل، وانتهى به ما أنجزه الى مستوى من التحضر هو في الحقيقة غاية السخف والإنحطاط، ولو كان المترفون، حينما قالوا للأنبياء إنا بما ارسلتم به كافرون نحن أكثر اموالاً واولاداً. . . على أدنى تأمل في أنفسهم وفي العالم لما رأوا في النبوة أدنى خطر عليهم، ولعرفوا أن دورها هادف إلى تعزيز مكانة الإنسان في هذا العالم بحيث تكون كل مظاهر الدنيا في خدمته يستعين بها على تكميل نفسه مادياً وروحياً بعيداً عن الترف وعما يؤول إليه من مهانة على مستوى الحضور والفاعلية والأهداف. . .

= يستفاد من هذا النص أن الإنسان قياساً على ما كان عليه في الماضي قد تطور كثيراً وأصبح على فنون ومعارف وتقنيات قلما شهدتها حضارة من الحضارات، وهذا إذا كان يدل على شيء فإنه يدل على ما من الله به على الإنسان من نعم مادية وروحية دفعت به إلى أن يكون السماء مطلباً له للكشف عن أسرارها، فبين أن يكون الكافور ملحاً، والمرقّق رقاعاً، وبين ما وصل إليه المسلمون في تاريخهم وحضارتهم فرق كبير وسرّ عظيم. . . تأمل واعتبر.

الحضارة ومشروع النبوة

قلنا: إن معنى أن تأتي النبوة لتحقق هداية وتنشر علماً، لا لتقيم ملكاً عضوضاً، ولا لتعلن حرباً ضروساً، معناه أن النبوة وخاصة الخاتمة منها ارادت أن تقيم تواصلاً حقيقياً بين الزمني واللا زمني، وبين المحدود واللامحدود، وكون هذا هو الهدف من بعثة النبوة، فإنه لا يعقل أن تكون السماء المخترقة لجدار الأرض عبرها متجاهلة لوحدة العلوم التي حثت على طلبها وتحصيلها، أينما كانت وحيثما وجدت، باعتبار أن العلم المحصل في دائرة الزمني ليس منعزلاً عن العلم الإلهي أو مناقضاً له، لأنه لو كان كذلك لما كان بامكان الإنسان في هذا الزمن أن يتواصل مع الزمن الحقيقي...

بيد أن طبيعة العلوم كلها، خاصة تلك العلوم المسماة بالمادية، تأبى إلا أن تكون متكاملة، متفاعلة، متوحدة في كل عضوي واحد إذا ما تحكم الإيمان به، فلا مناص من أن تعبر هذه العلوم عن عالم هو في حقيقته تجلي لآيات الله التي جاءت النبوة لترجمتها والتعبير عنها تاركة للعقل الإنساني أن يوحّد بينها على قاعدة ايمانية كاشفة عن هوية وحقيقة هذا العالم من دون أن يكون لها تفصيلات في جزئياته، ولا تعليلات في كلياته إلا أنه عالم واحد

جاءت النبوة لتؤكد صيرورته وقيمته نحو الواحد المطلق الذي خلق فسوى وقدر فهدى، يقول غارودي: «إن حكمة الإيمان تدمج جميع العلوم في كل عضوي واحد، لأن موضوعها ـ كلها ـ عالم، هو في مجمله تجلٍ، وتجسيد لآيات الله، ففي الكون يكشف الواحد الأحد (الله) نفسه ويتبدى من خلال المتعدد بواسطة الف رمز»[١].

فالحضارة حينما تتحقق على ضوء الإيمان، وتكون محكومة للإنسان من خلال القدرة عليها والإنطلاق بها في حدود ما رسم من خطوط بيانية وضعها الأنبياء لأقوامهم، فهي ترشدهم إلى الحدود التي إذا ما جاوزها وقعوا في تصارم حقيقي مع ما حققوه من إنجازات ومعارف، قبل أن يقعوا في تصادم مع اللامحدود والمطلق الذي يعملون ويعرفون لأجل الإتحاد به والتحقق معه من خلال ما كلفوا به من مهام في هذه الحياة. فالوحي عالمي، والنبوة كذلك ومن شأن الأهتداء والاقتداء بها أن تتحقق للإنسان العالمية على مستوى الفعل الحضاري، وذلك لا يتأتى له ما لم يكن على مستوى تلقي الوحي والسماع له، والبعد عنه لا بد أن يتولد عنه خلل فيما يريد أن يستكمل انجازه الإنسان في هذه الحياة، إذ انه ليس المطلوب بحسب اطروحة النبوة أن لا تكون مترفاًفقط، وانما المطلوب هو أن تكون عالمياً من حيث البداية والنهاية، وذلك لا يتم إلا من خلال استحضار النبوة وامتثال مشروعها والاستجابة إلى حيثيات الدعوة العالمية. هذا هو الشيء الوحيد الذي يحمي الإنسان من التجزؤ في التاريخ وفي الحضارة، وفي حركة كل ما هو زمني نحو المطلق، وما اسلفنا الكلام فيه من ان حضارة الغرب لا تصلح أن تكون حضارة عالمية لما تتسم به من عماء وارتداد على نفسها، ومن

(١) انظر غارودي، الإسلام في الغرب، بيروت، دار الهادي، ترجمة محمد مهدي الصدر، ص١، ١٩٩١، ص٢١٣.

معارف وعلوم وتقنيات، انما عنينا به هذا الشيء، أنها منقطعة الصلة مع الوحي، فضلاً عما هو متحقق فيها من تجزئة للتاريخ، وفصل للزمان على النحو الذي يجعل منها حضارة مترفة فاقدة لصفتي الحيوية والامتداد، وأية حضارة تفقد هذه الصفات لا بد أنها تفقد عالميتها حتى ولو تحول العالم كله إلى سلعة من سلعها، لأن أي حضارة لا يسبقها المعنى والهدف تبقى قاصرة عن بلوغ العالمية والوحدة في التاريخ والزمان. ولهذا نجد أن أول شيء حملته النبوة إلى الناس هو الهدف الذي يجعل لكل فعل أثراً وامتداداً، ونحن حينما نقول بالنبوة الخاتمة لا نقصد بذلك أكثر من أن هذه النبوة مكتملة الأبعاد، وواضحة الأهداف، وهي تحتاج فقط إلى انسان يمتثل لها ليكون له مالها من أبعاد واهداف. . .

إن تواتر النبوات، وإثارة دفائن العقول، وتحقق الإنسان على مستوى الروحية والحيوية، كل ذلك يفصح بوضوح عن غاية من وراء قول النبوة: «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» لأن هذا هو الشرط الأساس في توحد الرؤية العلمية وظهور الحقيقة التاريخية التي أكدت على عالمية الهدف من خلال عالمية الوحي، فالحضارة فيما لو أريد لها أن تكون من تعبيرات الحقيقة التاريخية، وترجمات عالمية الوحي، فإنه لا يسع الإنسانية إلا أن تضع نصب اعينها معنى خاتمية النبوة التي ما كانت ختاماً إلا لتؤكد وحدة الدعوة، ووحدة المشروع ووحدة التاريخ، وحدة تترافق مع خلق مستمر للعالم، وابداعات متواصلة للإنسان، وحضارات متكاملة على مستوى الأبعاد والأهداف، ومن هنا نرى أن الحضارة الإسلامية فيما لو قامت لا تعني نفي الحضارات الأخرى، لأنه نفي للإنسان، بل تعني التوليف والتركيب على ضوء هدف واحد، ورؤية واحدة تمنع من التجزؤ وتعطي الفعل الإنساني عالميته، يقول علي الشامي: «فكما وحدت الدعوة رسالات الأنبياء في

مهمة أخيرة، تعترف بهم وتوحدهم في نفس اللحظة التي تؤكد فيها الدعوة عالميتها من خلال انتشارها في العالم واستمرارها فيه، كذلك الحضارة التي تفاعلت مع جميع الحضارات استمدت منها وطورتها ثم ما لبثت أن استوعبتها ووحدتها في صيغة جديدة وقدمتها إلى العالم على نفس الطبق الذي قدم عليه المسلمون دعوتهم إلى الإنسانية جمعاء»[1].

إذن النبوة الخاتمة لم تكن نفياً لما سبقها من نبوات، ولا هي نفي لما سبقها من حضارات حال الترف دون أن يكون لها البعد والهدف والعالمية والامتداد، إنها تأكيد لحضور الإنسان من جديد، ومزيد من التكامل والتفاعل مع العالم الذي هو في الحقيقة تجسيد لآيات الله الظاهرة في الأنفس والأفاق، إذ انه في كل شيء له آية تدل على أنه واحد، وعلى ضوء تعاليم النبوة وارشاداتها يستطيع العقل الإنطلاق لسبر أغوار العالم الخارجي، بعد أن يكون قد استهدى وأثير بما يمنعه من دراسة الظواهر على أنها منتهى التأمل وخاتمة الفعل الحضاري، بحيث ينطلق بعد ذلك ليرتع ويلعب ويلهو ويدّعي أنه قطع حبل الزمن، وادخل اللامحدود في المحدود، والمطلق في النسبي. إن عقلاً يكون هكذا فعله الحضاري احرى به العجز عن استكناه غوامض الخلق واسرار الوجود، وجدير به الترف اللامحدود الذي يُلقى به خارج دائرة المعرفة الحقيقية، وقد قيل انه من عرف نفسه فقد عرف ربه، ولا شك أن مهمة الحضارة الإنسانية التي غالباً ما تستقر بالإنسان عند حدود الشهوة واللذة، أن تمكن الإنسان من عبور هذا العالم الذي جعله الله تعالى مادة للتأمل والاعتبار أو وسيلة لامتحان العقل فيما يسعى لاكتشافه والخوض فيه، وشرط هذا كله كما عرفنا معرفة الإنسان لذاته لما بينته الأحاديث من أنه عالم صغير انطوى فيه العالم الأكبر، ومن يعرف نفسه

---

(١) علي الشامي، الحضارة والنظام العالمي، م. س. ص٢٤١.

وعالمه الخاص به، لا يجد عناءً في معرفة العالم الموضوعي الذي يتجلى باستمرار أمام وحدة النفس التي تقول انها مسرورة وحزينة، وقوية وضعيفة وتتمظهر تمظهرات شتى رغم أنها واحدة، فالوحدة أصل في الوجود، وأصل في الأمة، وأصل في العالم وليس من مهمات الفعل الحضاري إلا استكشاف هذه الوحدة بدأً من نفسه مروراً بالعالم الموضوعي وانتهاءً بالواحد الأحد الذي أوحى للإنسان أن أمن واعمل الصالحات، وأن ليس لك إلا ما سعيت، وإن سعيك سوف يرى. . .

إن ما جاءت به النبوة الخاتمة هدف إلى تنوير الإنسان فيما يحتاج إليه في عبوره من هذا العالم إلى العالم الآخر، والقرآن كتاب تدويني يهدي للتي هي أقوم، وهو بحد ذاته عالم من الآيات والسور، وبه يتجلى الخالق رغم أن آياته وسوره ليست واحدة لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى، ولكنها تعبر عن هدف واحد، وعن حقيقة واحدة، وهكذا كتابه التكويني، فهو ظاهر التعدد والتنوع في الآيات والسور، ولكنه دليل في جوهره على وحدة الخالق.

وهذا ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام: «سبحان من تجلى للعقول من خلال علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم».

وكيف كان، فإن ما دلت عليه النبوة الخاتمة، وما عبرت عنه في سياق الارشاد إلى الأسس والمبادىء التي لا بد منها في تأسيس منهجية وغاية الفعل الحضاري للإنسان، يكشف عن أنها كانت ولا تزال مرجعية كل فعل حضاري على مستوى المرتكزات والأهداف، لأنها فعل دائم في حياة الإنسان، واستمرار للوحدة من حيث الهدف، وهي لم تترك شأناً يحتاج إليه الإنسان إلا بينته واهدت العقل إليه، وما على العقل إلا إعادة تكوين نفسه وفق ما اهدته إليه وكملته به، يقول غارودي: «إن ما انجزته النبوة الأخيرة

وضمنته هو تعاقب الرسالات السماوية التي جاءت بالقانون السماوي، فالشريعة منذ ذاك، تامة مكتملة، أي أنها تشمل جميع ميادين الحياة الشخصية والاجتماعية، والمستقبل مفتوح تماماً أمام انتشار معناها وتطبيقاتها في عالم ما زال خلقه مستمراً على يد الله تعالى: **﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾**[1]، وحيث الله تعالى: **﴿كل يوم هو في شأن﴾**[2].

إن النبوة الخاتمة أسست لمنطق ومنهج وفعل حضاري، ومنعت من الترف، لا لأنه ترف بما هو ثروة ونعمة وعيش رغيد، وانما منعت منه وحالت دون سيادته فيما يدعو إليه من اطروحات، ولما يتولد عنه من منطق ومنهج وفعل مناقض تماماً لما فطر عليه الإنسان وشهد به أمام الله تعالى بقوله «بلى»، وبما أن النبوة لم تدخل الزمن لأجل أن تغيب، بل لتبقى فيه فاعلة حاضرة باطروحتها الإيمانية والتوحيدية، فإن أهم فعل حضاري يمكن أن يقوم به الإنسان هو اخضاع حركته التاريخية وحيويته الزمنية إلى منهج وفعل وحركة النبوة الخاتمة التي لم تكن بوجه من الوجوه خاصة أو محدودة، بل عالمية كما في قوله تعالى: **﴿وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[3].

إن عالمية النبوة تستدعي أن يكون الإنسان على مستوى حركته التاريخية المتواصلة مع حركة النبوة والمرتكزة عليها فيما تدعو إليه من منهج ايماني وفعل حضاري، ولهذا نرى بأن القطع وعدم التواصل معها من شأنه أن يجعل من الترف والمترفين بديلاً للنبوة، وقد أثبتت التجربة التاريخية أنه حيث حصل التصارم حل الاستبداد وقامت الفرعونية على ساق، وعادت

---

(١) سورة يونس، الآية: ٤.
(٢) سورة الرحمان، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

لتحي أمجاد المترفين من جديد، فالنبوة كانت وستبقى شرط التحقق الوجودي للإنسان سواء في هذا العالم أو في العالم الأخر، ونحن حينما نقول انها عالمية فيما جاءت به ودعت إليه من مبادىء وأحكام جديدة أوحت بها السماء، إنما نعني بذلك التحقق بها والتجوهر من خلالها حتى يمكن التأسيس لحضارة روحية وعقلية وايمانية تساعد على الامتداد الحيوي في الزمن على النحو الذي يؤدي إلى سعادة الإنسانية وتحقيق كمالها على ضوء ما جاءت به النبوة من نصوص كاملة ونعم تامة، كما في قوله تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[1].

وبناء على ما تقدم، فإننا نرى فيما رضيه الله لنا من نعم في الدين والدنيا أساساً لبناء الحضارة، وروحاً لحركة التاريخ، وجوهراً لمعنى الزمن، وتحقيقاً للإرادة الإنسانية الحرة ذلك هو معنى أن يكون الإنسان عالمياً وتاريخياً، أن يكون له تواصل مع حقيقة النبوة لا باعتبارها تاريخاً، وانما باعتبارها روحاً للتاريخ ومنهجاً للحياة، وشهيداً على الإنسان فيما يؤديه من مهام ومسؤوليات على ضوء ما امرته به ونهته عنه. . .

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

الحضارة والمجتمع

فيما تقدم من أبحاث رأينا أن الحضارة ليست شيئاً تجريدياً يتطلع إليه الناس، وإنما هي فعل في النفس والطبيعة، وتحت هذا العنوان (الحضارة والمجتمع) سنحاول الكشف عما للناس من أثر في الفعل الحضاري سواء أكان ايجابياً أم سلبياً أخذين بعين الإعتبار حالة الترف التي تقود في كثير من الأحيان إلى السلبية في العلاقات الإنسانية، هذا فضلاً عما تقود إليه من سلبية على مستوى العلاقة مع الكون والطبيعة.

فالحضارة إذاً حالة معاشة ومؤثرة في المجتمعات الإنسانية، وهي غالباً ما تكوّن شكل المجتمع ولونه وروحه، إذ انه لا يمكن الفصل بين المجتمع وثقافته، أو بين المجتمع وما يكون عليه من حالات مادية وروحية وعاطفية، فهي ـ أي الحضارة ـ تمثل مزيجاً من هذه الحالات[1]، وإذا كان الأمر كذلك، فإننا اليوم لا نستطيع الفصل بين الإنسان والحضارة بمعزل عما إذا كانت هذه من صناعته أم من صناعة غيره، فالإنسان يعيش الحياة ويتفاعل

(١) را: السيد فضل الله، محمد حسين، مجلة المنطلق، عدد: ١٢، كانون الثاني ١٩٩٠، ص١٣٢.

مع كل ما هو سائد فيها ويتأثر ويؤثر في حدود انسجامه أو نفوره مع ما يصنعه أو يفرض عليه.

إذن الناس كما يقول البعض ليس لهم منطق ومنهج واسلوب خارج ثقافاتهم وحضاراتهم، لأن الحضارة غالباً ما تفرض منطقها ومنهجها على المجتمعات الإنسانية، وهناك ثمة من يقول بأن الخروج عن منطق واسلوب ومنهج الحضارة السائدة يؤدي بأصحابه إلى الارتكاس فيما هو أقرب إلى التخلف منه إلى التقدم، وهذا ما توسم به اليوم الحركات الاصولية في العالم بأنها خارج التاريخ وشيء من الماضي البعيد. . . !؟

وإذا كان لا بد من الاعتراف بأن أي حضارة تفرض منطقها ومنهجها، وتقدر على صياغة مفاهيم قد تكون قريبة من الإنسان أو بعيدة عنه فيما يؤمن به أو يعتقده، إلا أن ذلك لا يعني أن الحضارة في ضوء ما تفرضه من منطق ومناهج واساليب تستطيع أن تمحو الشخصية الداخلية للإنسان التي غالباً ما تؤثر في صناعة الواقع الخارجي، بدليل أن الإنسان فيما مضى من قرون وحضارات وثقافات كان يخلق واقعه ويؤلف فكرته، ويصيغ اطروحته على ضوء كثير من الاعتقادات والمعارف والقوانين والعادات التي كان يعتقد أنها تمثل وجوده وكيانيته، حيث أنه كان يرى فيها المنهج والاسلوب والمنطق والفعل الحضاري، ومن هنا عرفت الثقافة كما يقول تايلور: «أنها ذلك المركب الكلي الذي يشتمل على المعرفة والمعتقد، والفن والأدب، والأخلاق والقانون والقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع. . . »[1].

إن الهالة الحضارية المهيمنة يمكن لها أن تفرض منهجها ومنطقها

---

(١) انظر: جان فريمون «تلاقي الثقافات والعلاقات الدولية» في مجلة العلاقات الدولية، العدد ١٢٤ ترجمته مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، عدد ٢٩، ص٨٥.

وطريقة التعامل معها، إلا أنها هيمنة تبقى خارج إرادة الإنسان وفعليته ما لم يتحرك الإنسان ليعبر بها عما لديه من ذلك المركب الكلي، وهذا هو حال مجتمعاتنا اليوم في ظل الحضارة الغربية، وهكذا كان حال المجتمعات الإنسانية في ظل الحضارات الغابرة، حيث أنها كانت تقبل ما تفرضه الحضارة المادية من مناهج ومنطق حتى ولو كان ذلك مخالفاً لما تعتقد به وتخضع له من قوانين وعادات. . ؟؟

لكن السؤال هنا: لماذا يخضع المجتمع الإنساني لما يفرض عليه، ويقبل بتشويه ما لديه من ثقافة ومعرفة وقوانين وعقائد يعتقد أنها معبرة عنه وملائمة له. ؟

والسؤال الأخير: لماذا يقبل الإنسان بأن تكون الحضارة عنواناً له في وقت يستطيع أن يكون عنواناً لها؟

وهل أن الناس يقبلون الحضارة لما تغدقه عليهم من أموال وثروات، أو لما تؤمنه لهم من فرص عمل جديدة واستثماراتِ للإنطلاق في سبيل جمع المال والثروة لتحقيق المجتمع المترف؟

ما هي الأسباب التي تحول دون وقوف الناس في وجه الحضارة فيما لو تأكدوا أنها في جوهرها نفي لهم، وسبيل للاستخفاف بهم واستعبادهم بحيث يكونوا عبيداً للمترفين كما كان حال الناس في ظل كل ما حدثنا عنه التاريخ من حضارات!؟

إن التأمل والتفكر في القصص القرآني حول طبيعة العلاقة والأهداف بين الأنبياء والمترفين من شأنه أن يكشف لنا عما كانت عليه حالة الناس في ظل حكم المترفين والفراعنة، كما أنه يوضح لنا طبيعة الدور الذي كان يلعبه الناس في تدعيم حكومة الترف، لأن القرآن حينما يستعرض لنا هذا القصص

عن حالة الأنبياء مع المترفين ويبين لنا المفردات والمعاني وسائر التعبيرات التي استعملت من قبل الناس والمترفين في مواجهة الأنبياء، لا يكون القرآن بذلك قاصداً المفردة بحد ذاتها أو التعبير، وانما هو يريد أن يبين لنا منطق وفهم وأُسلوب الناس في مواجهة الدعوة إلى الله، وتبيان الطريقة والدعم الذي قدمه الناس للمترفين ـ باعتبار أن أكثر الناس ـ كانوا ولا يزالون سبباً لطغيان الحاكم، كما هم سبب أيضاً لطغيان الحضارة، ولهذا قد يصح قولنا أن الترف الإجتماعي والسياسي والاقتصادي لم يكن حكراً على مجموعة خاصة من الحكام الظالمين، وانما يتعداهم إلى كثير من الناس الذين الفوا الترف إلى حد الشرك بالله تعالى، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فكيف نستطيع أن نفسر المعاندة التي أبدوها في مواجهة الدعوة، والمسامحة الكبيرة في تلقي منهج ومنطق واسلوب الاستبعاد والاستخفاف من قبل المترف؟

أليس للقاعدة التي تقول كيفما تكونوا يولى عليكم مكان في الإجابة على ما ورد من اسئلة؟

فلو لم يكن هناك فرعون في باطن كل انسان، وقلب مترف، وعقل دفين الشهوة لما كنا نجد هذه المسامحة، وهذا الاستعداد لقبول ما يفرض من حاكم الجور وحكومته، بل لما كنا نجد هذا التكيف السريع مع الحضارة المادية في عالمنا المعاصر. إن التكيف السريع هو دليل على وجود استعداد دائم للترف بكل ما يتولد عنه من مظالم، بدءً من قبول الجائر وتسويغ نظام حكمه وانتهاءً بالحالة الخاصة لكل انسان همه الترف في الحياة الدنيا.

وكيف كان، فإن استعراض جملة من الآيات يكون مفيداً لنا في تبيان ما كان عليه الناس أكثر الناس ـ تمهيداً لما نريد التحقق منه والوصول إليه، واعني بذلك توجيه النقد الى المجتمعات الإنسانية وتحميلها مسؤولية كبيرة فيما يعود إلى سيادة حياة الترف والافساد في الأرض!؟

قال تعالى: **﴿فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين﴾**[١].

وقال تعالى: **﴿ما أمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم ان يفتنهم فرعون، وإن فرعون لعالٍ في الأرض وانه لمن المسرفين﴾**[٢].

وقال تعالى: **﴿... فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾**[٣].

وقال تعالى: **﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾**[٤].

وقال تعالى: **﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾**[٥].

نلاحظ أن الآيات تتحدث عن حالات ترف وفساد عامة، ومَن لم يكن مشاركاً في حالة الترف، كان ساكتاً عليها، كما هو الحال بالنسبة لناقة ثمود التي عقروها، حيث قال تعالى: **﴿فعقروها فاصبحوا نادمين﴾**[٦].

وقد سئل الإمام علي عليه السلام عن ذلك فقيل له لما عبر القرآن فعقروها، والفاعل واحد، فقال عليه السلام: انما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم العذاب لما عموه بالرضا، فقال سبحانه: **﴿فعقروها فأصبحوا نادمين...﴾**[٧].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٧٨.
(٤) سورة هود، الآية: ٨٩.
(٥) سورة هود، الآية: ٩١.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧.
(٧) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

وكذا قوله: اليس فيكم رجل رشيد ناظر إلى حالة عامة كان يعيشها قوم لوط حيث أنهم كانوا يأتون الرجال شهوة دون النساء. !؟

أما قوله تعالى: إنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك، فهو مرشد إلى أن أكثر الناس كانوا في جانب الترف والفساد في مواجهة شعيب...

وقوله تعالى: **﴿لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود، أو قوم صالح، وما قوم لوط فيكم ببعيد﴾** دليل على أن الترف والفساد ومعاندة الحق قد أودى بحياة هذه الأقوام كلها، فلم ينجُ منها إلا القليل، وهم النبي وقومه الذين آمنوا بدعوته واستجابوا لطلبه في أن يعبدوا الله الذي ما لهم من إله غيره... وما حل في هذه الأقوام من عذاب كان سببه اتخاذ الترف والاسراف والعلو في الأرض عناوين كبرى في حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية، وكل ما تتشكل منه عناصر الحضارة المترفة.

إن ما نعيشه اليوم ليس غريباً عن الماضي ولا بعيداً عنه، بل يكاد يكون الماضي في كثير من تفاصيله وذلك من حيث عقلية الترف، وهيمنة المادة، والاسراف والتبذير، وانعدام منطق **﴿قد أفلح مَن تزكى﴾**(١) واستبداله بمنطق **﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾**(٢)، كما قال تعالى: **﴿وإنّ فرعون لعالٍ وانه لمن المسرفين﴾**، فالحاضر كما نرى ونشاهد في حياتنا الخاصة والعامة متشكل من أكثر عناصر الماضي سواء لجهة عقلية الترف وسياسة القرار ومنطق العلو، أو لجهة استجابة الناس لمنطق ومنهج وأُسلوب الحضارة المادية..!؟

---

(١) سورة الأعلى، الآية: ١٤.
(٢) سورة طه، الآية: ٦٤.

لقد انبرى من الكتاب مَن يدافع عن الناس، ويُلقي المسؤولية كاملة على طبقة الحكام نافياً الفساد عن الأمة بقوله: «ان فساد الطبقة الحاكمة لا يعني فساد الأمة، فإن الأمة ـ جماهير الناس ـ لا تفسد، وانما يشتد عليها الظلم فيقل نشاطها نتيجة للحد من الحريات...»[1].

لا شك أن الدكتور حسين مؤنس في كلامه هذا يفصل بين الطبقة الحاكمة وبين الناس، ويغرب عنه بأن الطبقة الحاكمة إذا فسدت كان فسادها نتيجة وامتداد لفساد الناس، ولأجل أن نحمله على التحقق مما يقوله، فإنا نلفت نظره إلى أن الأمة في تاريخنا الإسلامي سمعت لقول يزيد بن معاوية ولم تسمع لقول الحسين بن علي، سمعت لمعاوية ولم تسمع لعلي! اليس من المؤسف فعلاً أن يقول علي بن أبي طالب: «لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي»[2].

وما دام حسين مؤنس يعتبر الترف موقفاً من الحياة، وليس خاصية من خصائص الأغنياء، فلما نراه يبعد الأمة عن الفساد على الرغم من كل ما أبدته الأقوام السالفة من رغبة واستعداد للترف؟

أم أنه يسهى عن أن الطبقة الحاكمة في ظل وعي الأمة وفهمها لدورها ومسؤوليتها، لا يمكنها الوصول إلى الحكم فضلاً عن عجزها عن البقاء على رأس السلطة، فيما لو خبرنا أنها كانت صالحة ثم فسدت بعد أن وصلت إلى الحكم.

الله سبحانه وتعالى يقول للنبي ﷺ: **﴿وإن تطع أكثر مَن في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبّعون إلا الظن، وإن هم إلا يخرصون﴾**[3].

---

(١) را: حسين مؤنس، كتاب الحضارة، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨. ص: ٢٥٢.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة: ٩٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

فالناس على دين ملوكهم، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «وإنما الناس مع الدنيا والملوك إلا من عصم الله»[1].

وهل هذا إلا بيان تاريخي يعبر فيه الإمام عليه السلام عن حالة الناس الذين تدفع بهم الدنيا فضلاً عن الملوك إلى إفساد أوضاعهم وقتل قادتهم الصالحين ارضاءً لشهواتهم وطلباً للجور والظلم، كما قال تعالى: **﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**[2].

كان يجدر بالمؤلف أن تستوقفه حالة الناس في التاريخ أكثر بحيث يتسنى له التعمق فيما يريد بيانه، وقوله: إنما يشتد عليها الظلم فيقل نشاطها نتيجة للحد من الحريات... يمكن لنا أن نرده عليه مع تسليمنا بأن ظلم الحاكم يفسد حياة الناس، بأن نقول: إن فساد الناس وترفهم يستبطن ظلمهم لإنفسهم، ولم يعد لهم ثمة حاجة لطبقة حاكمة تفسد عليهم الدين والدنيا، وما قوله تعالى: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾**[3]. إلا تعبيراً عن هذه الحقيقة، لأنه «ما ظهر فساد في البر والبحر إلا عن أتراف الناس واسرافهم في أمر الزينة أو الرزق»[4].

كما أن قوله تعالى: **﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله...﴾** دال على أن أكثر الناس مع الهوى، ويريدون أن يكون المال والثروة وسائر ما هم مترفون فيه هو الحق والحضارة، وقد نهى الله تعالى رسوله عن اتباعهم في ذلك كما في قوله تعالى: **﴿ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾**[5].

---

(1) نهج البلاغة، الخطبة: ٢١٠.
(2) سورة النحل، الآية: ١١٨.
(3) سورة الروم، الآية: ٤١.
(4) انظر تفسير الميزان، م. س. ج٨، ص٨٠ ـ ٨١.
(5) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.

إن الله سبحانه وتعالى بين في جملة من الآيات أن المترفين في المجتمع ـ وهم أكثر الناس ـ هم أسمع وأطوع للحضارة والثقافة المادية منهم إلى الثقافة الروحية، وحينما نقول الثقافة الروحية إنما نعني بها كل تمثلاتها وعلى رأس ذلك النبوة بما هي مشروع وأُطروحة متقوّمة بالمعنى الروحي، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد تكميل الإنسان والعالم بالنعم الروحية والرسالات السماوية لأجل أن يتحقق المجتمع الصالح بكل أبعاده المعنوية والمادية «إن فقه الفساد الذي يحوي بين دفتيه جميع صور الفواحش، سهر عليه الذين لعنهم الله في القرآن، والله تعالى لعن في القرآن ابليس واليهود والمشركين والمنافقين والملغون لا يمكن بحال من الأحوال أن يقيم مجتمعاً فاضلاً عادلاً، لأن المجتمع الفاضل لا يقوّمك إلا بالأخلاق الفاضلة، وهذه تحتاج إلى عامل يحرسها ويحفظها في ثباتها ودوامها، ولا يكون هذا العامل سوى التوحيد»[1].

فالناس هم في أغلبهم أهل ترف، وهؤلاء كلما تقدموا في الحضارة وفي الاطروحات السياسية والاجتماعية، كلما كانوا أحرص على الترف المؤدي بهم إلى الطغيان، إن مجتمعاً يسكنه هؤلاء أو دولة يقيمها هؤلاء، أو مصالح يحرسونها، أو افكار وتعاليم يؤدونها لا بد أن تكون مساهمة في افساد المجتمع بكل أحواله وأموره! ولا بأس أن يعاد النظر فيما اعتقده الدكتور مؤنس في كتابه الحضارة من أن الناس لا يفسدون على ضوء ما هم عليه اليوم من حضارة وسياسة وقوانين واعتقادات، لكي لا نكون بصدد تشويه حقيقة تاريخية يدعونا إليها المؤلف. ومن هنا نقول إن الحضارة المادية هي شكل المجتمع وروحه وتبقى كذلك ما لم يتحول الناس إلى أفكار وأطروحات اخرى أكثر ثباتاً ودواماً مما هو مألوف ومُتبدل لدى

(١) سعيد أيوب، الانحرافات الكبرى، بيروت، دار الهادي، ط١ ١٩٩٢، ص٢٦٩.

المجتمعات الإنسانية في التاريخ والزمان. . !

فالمنطق والدين يقضيان بإعادة النظر فيما آل إليه وضع الناس لجهة الفقر والغنى على المستويين المادي والروحي، لعل ذلك يسهم في بلورة حقيقة سبق لها أن تجلت تاريخياً وعبرت عن نفسها بمنطق ودين مختلف تماماً عن المنطق والدين الذي جاءت به النبوة. والحق يقال: إن الناس فقراء مادياً وروحياً ورغم ذلك نجد أنهم على الترف تقليداً للحضارة وتعبيراً عنها وحرصاً على الانتماء إليها حتى لو لم يكن لهم أدنى نصيب من نعمها المحصورة والمستغلة من قبل تسعة رهط، كما بين الله تعالى: ﴿**وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض**﴾[1].

(١) سورة النمل، الآية: ٤٨.

الناس والترف

إن المترفين في أي مجتمع ـ كما بينا في البحث السابق، هم الكثرة الغالبة، والمترف الغني يمتاز عن المترف الفقير بما له من قدرة على الاستخفاف به، في حين أن ما يمتاز به الفقير هو استعداده الدائم لانفاذ الترف في نفسه وواقعه، وقد سقنا الأمثلة والبراهين والأدلة الساطعة على أن ترف أكثر الناس بالحضارة تعود أسبابه إلى سيطرة الشهوة واللذة على حياة الإنسان، ولما كان الترف ديناً يدان به عند الكثيرين، وسياسة عامة يخضع لها الإنسان في ضوء ما تعن له نفسه من شهوات وملذات، فقد رأينا أن نستكمل هذا البحث عن الترف والمترفين باستعراض صور ونماذج عن أصناف الناس قدمها لنا الإمام علي عليه السلام، وهي تختصر حالة الناس في كل تاريخ وزمان، فلا يقال بأنه تشخيص لحالة على ضوء ظروف ومعطيات معينة، ولا أنه خاضع للتخمين والاحتمال، باعتبار أنه سبق لنا أن اعتبرنا الترف حالة عامة معاشة عند الفقراء والأغنياء، ويمكن الإشارة إلى هذا المعنى، أو بالأحرى يمكن ملاحظته فيما عرضه القرآن ونهج البلاغة عن المترفين إذ ان قوله تعالى: ﴿**إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون**﴾ وتأويل ذلك على نحو تخصيص الترف بمجموعة من الناس هم قادة الشر في

المجتمع ليس له وجه اللهم إلا أن يكون المقصود من هذا التخصيص إبراز المترفين الأغنياء الذين يتربعون على عرش الرياسة، ويحكمون الناس بما لديهم من ثروات طائلة، أما أن يقال بأن المترفين هم قادة الشر وأصحاب الخلال الذميمة دون من يمكنهم من مقاليد الأمور ويستجيب لدعوتهم فيما يأمرون به وينهون عنه، فذلك شطط في القول، لأن هذا التخصيص يؤدي إلى تعريف الترف بالغنى والثروة بمعزل عن النفس التي لا تتورع وهي في حالة الفقر عن تمني هذه الحالة والسعي الحثيث في طلبها.

إن الواقع مثاله النفس، وهو صورة عن أحوالها، والترف هو احدى الحالات التي تعبر بها النفس عن فرحها ونزوعها وحبها للثروة ظناً منها بأن ذلك هو غاية الكمال ومنتهى السعادة.

لقد وقع ابن خلدون في هذا الخطأ حينما خص الترف بالأغنياء وأهل السلطة، واعتبره حالة خارجية وطبيعية تنتهي إليه الشعوب والدول حينما تسكن إلى الدعة وتستسلم للذة، يقول ابن خلدون: «إن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورة العيش وخشونته إلى نوافله ورقته... إلى أن يقول وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة إلى أن تبلغها بحسب قوتها وعوائد مَن قبلها سنة الله في خلقه...»(١).

وقد قوّم حسين مؤنس في كتابه الحضارة كلام ابن خلدون مصححاً لما أفاده في معنى الترف، مبيناً أنه ليس من الضرورة أن يكون الغني مترفاً، فقد يكون الإنسان غني وغير مترف، وقد يكون فقيراً ومترفاً، يقول: «ولكن ابن خلدون حسب أن الترف خاصية من خصائص الأغنياء والأقوياء وذوي

---

(١) ابن خلدون، المقدمة... م. س. ص١٦٧.

السلطان، مع أنه في حقيقته نزوع يوجد في الأغنياء وفي الفقراء على السواء، ومرده إلى ضعف الإنسان عن مقاومة رغباته ومطالبه مما يروق له ويمتعه ويريحه أو يتصور أنه يمتعه ويريحه ويصبح هذا العجز طبعاً فيه لا يستطيع مغالبة مطالب نفسه ونزعاتها. . . »[1].

إذن الترف حالة نفسية قبل أن يكون حالة واقعية، وهو ما سنجد له تأكيداً عند الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة حيث أن الإمام عليه السلام يقسم الناس إلى أصناف، ويعتبر أن هناك أصنافاً من الناس فيما لو فسح المجال أمامها لما كان قادة الشر الظاهرين في المجتمع شيئاً أمامها، لكن قلة الحيلة وضعف الشوكة عند هؤلاء يحمل على التصور أو الاعتقاد بأن هذا الصنف من الناس متميز في وداعة نفسه، وفقر حالته، وغالباً ما يثير فينا الشفقة عليه لما هو عليه من مسكنة وتقوى، يقول الإمام عليه السلام: «أيها الناس انا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود، يعد فيه المحسن مسيئاً، ويزداد فيه الظالم عتواً، لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عما جهلنا. . . فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة حده، ونضيض وفرِه، ومنهم المصلت لسيفه، والمعلن بشره، والمجلب بخيله، ورجله، قد أشرط نفسه وأوبق دينه لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده. . . ومنهم مَن يطلب الدنيا بعمل الأخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا قد طامن من شخصه وقارب من خطوه وشمر من ثوبه وزخرف من نفسه للأمانة واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية، ومنهم مَن أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال عن حاله فتحلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة وليس من ذلك مراح ولا مغدىً»[2].

---

(١) حسين مؤنس، الحضارة، م. س. ص١٥٧.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٣٢.

هؤلاء هم المترفون حقيقة، والحكام ـ كما تبين ـ صنف من المترفين، وهذه الأصناف كلها كان لها دورها في التاريخ الإسلامي في مواجهة النبوة بكل أبعادها وامتداداتها، وكم كان من السهل على أي حاكم عادل القضاء على المترفين فيما لو كانوا مجموعة اشخاص مكنتهم أموالهم من الوصول إلى السلطة، وكل صنف من هذه الأصناف كان ينتظر دوره أو يندب حظه. . . !

المسألة إذن ليست مسألة شخص أو مجموعة حاكمة أو متربصة بالحكم أو اقعدها الضعف والفقر المادي عن ذلك كله، وانما هي مسألة امة ومجتمع تتألف غالبيته من هذه الأصناف جميعاً، وهذا ما يقوي اعتقادنا ويجعلنا أكثر اصراراً على ما ذهبنا إليه من أن الأمة تفسد والأمر ليس مقتصراً على الطبقة الحاكمة فقط كما ذهب مؤنس، ومما يزيد الطين بلة، هو دخول علماء الدين إلى عالم الترف وحجز أماكنهم في قاعة التربص والانتظار، كما بينا في بحث الترف الديني عمدة الاستبداد السياسي، ولو أن الغلبة كانت لأهل الزهادة والتقوى لما كان حصل في تاريخنا الاسلامي ما حصل، بل ولا كان حصل ما حصل مع الأنبياء جميعاً على طول تاريخ هذا الصراع بين النبوة والترف، أو بين الإمامة والترف.

وهنا يمكن أن نرجع قليلاً إلى مسألة الحضارة ودور هذه الأصناف في تحويلها من نعمة الهية إلى نقمة، ومن مجال لعمل العقل إلى مجال لعمل الشهوة، فنقول: إن النعم المادية التي مَن الله بها على الإنسان لا تكون وبالاً عليه إذا ما احسن التصرف فيها. . . ولما كان الناس في غالبيتهم هاجرين للإيمان والتقوى، ومتربصين بعالم المادة والثروة، وحاكمين على أنفسهم بالترف، فقراء واغنياء، فمن الطبيعي جداً في ظل ذلك كله ـ أن تتحول هذه النعمة لتصرف في وجوه الترف واللذات. فما يكون ذنب النعم المادية

والروحية إذاً؟ وما هو ذنب الحضارة إذن. ؟[1].

إنه الإنسان الذي يرتع ويلعب ويلهو عما يراد به، ويترف في كل شيء ظناً منه أن ذلك من الكمالات والسعادات!، ومن ثم يأتي من يقول إن الجماهير لا تفسد، وان هذه الحضارة قاتلة للإنسان فيما أمنته له من رخاء وتقدم؟! .

فالإنسان هو قاتل الحضارة، وعابث بالعقل، ومفسد للنفس، والحضارة إذا كانت تساهم بذلك فلأن الإنسان سبقها إليه، وما هي إلا تعبير عنه في كل ما ينتهي إليه في احواله الداخلية والباطنية (النفسية). إن الإنسان يُسيء استخدام كل شيء حرصاً منه على الترف وطلباً منه للدنيا بدافع المزيد من الترف، وهذا ما جاء الأنبياء لقطع أسبابه من خلال الدعوة إلى تهذيب النفس والأخلاق وارشاد العقل إلى مجالات عمله بحيث يكون له من ذلك الاستمرار في الكشف عن أسرار الطبيعة والاستفادة منها فيما هو بحاجة إليه لبقاء نوعه وتحقيق سعادته الدنيوية والاخروية. . .

إن ما انتهى إليه الإنسان من حضارة هو دليل على ما تميز به الإنسان عن سائر خلق الله، ولكن ما انتهى إليه الإنسان من سوء استخدام ما أنتجه العقل، هو في الحقيقة دليل على أمراض نفسية وقلبية حتمت انقلاب هذه النعم كلها إلى نقم، وقد تجلت أمراض الناس هذه فيما اقدموا عليه من كفران بالنعم الروحية التي هي الانبياء والأئمة. . . !؟

(١) يقول حسين مؤنس: «إن التحضر والتدرج في مراتب الحضارة لا يضعفه الإنسان أو الجماعة بل يقويه ويقويها، فإن الحضارة علم ومعارف وخبرة وتجربة، وكل هذه تزيد ملكات الإنسان، ارهافاً، وتفجر في كيانه ينابيع جديدة من القوة كما نرى في أيامنا هذه، ولكن الذي يضعف البشر هو سوء استخدامهم لنعم الحضارة.. انظر كتاب الحضارة، م. س. ص١٥٤.

من يمنع إذاً من تحقق هذه الأصناف الأربعة التي أشار إليها الإمام في الواقع؟ إن الذي يمنع من ذلك كله هو النبي أو الإمام المعصوم، أو من ينوب عنهما في حال غيابهما، وقد لعن الله كل الذين اترفوا، واصابهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم فذاقوا العذاب بما كان يفعلون. انها سنة الله في خلقه أن لا يترك أهل الإيمان عرضة لترف المترفين، وظلم الظالمين، إلا أن ذلك لا يعني أن لا يصيب الترف الناس، وخاصة المؤمنين منهم، بحيث يعانون من العذاب والبلاء، حيث أننا نسمع الكثير من الأهات في نهج البلاغة قد اطلقها الإمام علي عليه السلام حزناً على قوم يطلبون الدنيا بعمل الأخرة ولا يطلبون الأخرة بعمل الدنيا. . .

إن خطب نهج البلاغة كلها تشهد على فساد الناس، كما أن كثيراً منها يبدأ بقوله عليه السلام: أيها الناس، كما هو شأنه في هذه الخطبة. «لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً، ومما لك عند الله عوضاً».

انه ترف ديني وسياسي شق طريقه في المكان والزمان، في السياسة والإجتماع والاقتصاد، والثقافة، ولا يزال يشق طريقه تحت عناوين وشعارات شتى، والمسؤولية الكبرى في ذلك كله تقع على مَن تزين بلباس أهل الزهادة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية. . . اضف إلى ذلك ما يتحمله علماء الدين من مسؤولية في إقامة حكم الله تعالى، والصدع بالرسالة، والقيام بما قامت به النبوة من موقعها المقابل لكل اطروحات وسياسات الترف، وليس معنى أن لا يكون هناك نبوة أن تخلو الحياة من موقعها، أو أن يتخذ المستبدون منه موقعاً وذريعة إلى معصية الله تعالى، إنه موقع ممتد في الزمان والمكان واطروحته حية قائمة وكاملة، فقط هي تحتاج إلى من يقوم بها في مواجهة سياسة الترف، ومجرد أن يتحول الدعاة والمبلغين عن هذا الموقع، أو أن يتأثروا بالمترفين يصبحون فراعنة

وطواغيت حتى ولو تعمموا بعمامة الدين، وتزينوا بلباس أهل الزهادة والتقوى. . . فالعالم الديني مهمته ووظيفته ودوره أن يخوض صراعاً ضد المترفين في كل وقت وفي كل حين، وليس له أن يرجع عن خوض الصراع بحجة أنه ليس نبياً ولا إماماً معصوماً، فهو مسؤول في حدود علمه ومعرفته وما كلف به، وله ما كان للنبي ﷺ من وظائف عملية فيما يتعلق بتحقيق العدالة الإلهية، وحماية القانون الإلهي وهذا يحتم أن يبقى المبلغ الديني في موقع النبوة وامتداداً لها ونقيضاً للترف والمترفين بكل أشكاله والوانه ومعانيه حتى لو بقي وحيداً في خوض الصراع مع هؤلاء الناس سواء اكانوا حكاماً أو كانوا اناساً عاديين ينتظرون الفرص للعب دورهم وتحقيق غاياتهم ورغباتهم الدنيوية. . . !

إذن المبلغ ـ بما هو عالم في الدين والسياسة، مخير بين أمرين، بين أن يكون في موقع النبوة معبراً عنها ومترجماً لكل ما جاءت به من قوانين وأحكام ومبادىء، وبين أن يكون في موقع المترفين فيكون له ما كان لهم في كل زمان سواء على مستوى الحضور السياسي والاجتماعي. أو على مستوى الخرافات والأساطير من حيث المبادىء والاعتقادات، وبالتالي يكون له ما كان لهم من حيث البلاء والعقاب والضلال، فهو لا يستطيع أن يكون في الموقعين ومضطلعاً بالدورين، لأنه بذلك يخسر الموقعين معاً، ويفوز بعذاب اليم.

وقد أثبتت التجارب أن تقارب الفقهاء من المترفين أدى إلى أن يكون لهؤلاء سبيل عليهم مما منعهم من القيام بما كلفوا به من تحقيق العدل وتحكيم أمر الله في حياة الناس فأوردوهم مورد الهلكة فيما اقدموا عليه من تبرير للسلطة ودعم لها في مواجهة أهل التقوى والعدل!

إنهم فقهاء السلطة الذين جمعوا إلى وزرهم أوزار الناس، وكما قال

تعالى: ﴿**ويوم نأتي كل أناس بإمامهم**﴾. وهنا نسأل، ماذا سيكون حال كل مَن تسمى بالعلم وليس به فيما لو كان كتابه غداً مليئاً بالترف الديني والسياسي وبالمواقف الداعمة لهما؟

هل استطاع الناس والفقهاء معاً من حماية موقع النبوة من أن تطاله يد المترفين؟

تلك هي حال الناس في أجواء الترف الديني والسياسي يميلون مع كل ريح وينعقون مع كل ناعق ولا يلجأون إلى ركن وثيق، كما قال الإمام علي. وهذا كله يؤكد أن الترف ليس خاصية من خصائص الأغنياء، أو رجال السياسة، كما انه ليس خاصية من خصائص رجال الدين، وانما هو خصيصة عامة في كل هؤلاء، ويشاركهم فيها الناس بأشكال وتعابير شتى، وما لم يحفظ موقع النبوة، فلن يتورع المترف عن تنصيب نفسه نبياً يوحى إليه، ولن يتردد الناس حينئذ في قبوله مرشداً وحاكماً وولياً. . !؟

الأمة والأمل

إن ما ذهبنا اليه من أن الناس يفسدون أيضاً، وأن مما يزيدهم فساداً فساد العالِم الذي يفترض فيه أن يكون في موقع النبوة دائماً وأبداً، لا يستفاد منه أن الأمة الإسلامية لا خير فيها ولا رجاء، وانما نعني بفساد الأمة انها تترف في الحياة، كما يترف الحاكم، ولكي تكون الأمة خير أمة، فهي لا تكون كذلك ما لم تحقق الشروط اللازمة لهذه الخيرية باعتبار أن الله تعالى خلق الخلق ولم يتركه هملاً، فبعث بالرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، وأوحى بالمبادىء والقوانين والتعاليم التي تؤهل الأمة لدورها ومسؤولياتها، وأوجب عليها الطاعة لأولي الأمر، وفضلاً عن ذلك كله ارشدها إلى ما تكون به حية وفاعلة وامة وسطاً وشاهدة. . . فإذا لم تلتزم الأمة بما امرها الله به ونهاها عنه، وإذا لم تطع أولي الأمر، وانصرفت إلى طاعة مَن اغفل الله قلبه وجعل أمره فرطاً، وأهملت المبادىء والقوانين والتعاليم الأخلاقية التي جعل الالتزام بها شرط كل خيرية وقدسية، فإذا أهملت ذلك كله، فلن يكون لها الصلاح والفلاح، بل تكون أمة فاسدة وكافرة بما أنعم الله به عليها.

إن الترف إذا أصاب النفس والواقع معاً، فإنه لن يبقي مجالاً

للإصلاح، ذلك أن طبيعة الترف تقتضي الإفساد، وما لم يكن هناك تفاعل حقيقي بين الأمة وبين مَن جعل ولياً عليها ومرشداً لها. فلن يجد المترفون صعوبة في اخضاع الأمة إلى سياسة وعقلية الترف، وهذا هو الذي حصل في تاريخ البشرية، ان المترفين ما استطاعوا تحقيق رغباتهم إلا بعد أن فصلوا بين الأمة وولاة امرها الحقيقيين، مما أدى إلى أن تكون الأمة عرضة لأهواء الترف في جميع امورها.

الله سبحانه وتعالى يقول: **﴿كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...﴾**[1]، والأمة إنما تكون صالحة فيما لو استطاعت أن تبني نفسها وفق ما أمر الله تعالى ونهى عنه، وبما أن الأمر والنهي يحتاجان إلى مبلغ، وبما أن المبلغ لا يكون كيفما اتفق، بل ينبغي أن يكون عالماً بالمعروف والمنكر وحقائق الإيمان، فإن ذلك كله يؤكد على ضرورة أن تكون الأمة متفاعلة مع ولي أمرها العالم بالكتاب والسنة، ومطيعة له فيما يأمر به وينهى عنه حتى يكون لها الصلاح والخير والقداسة.

وكيف لا يكون هناك فساد في جسم الأمة على طول تاريخنا الإسلامي، ونحن نسمع الإمام الحسين عليه السلام يشكو من ترف الأمة وغربتها، باعتبار أن قوله: «ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه، فقد أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً...»، هذا القول ما هو إلا دليل على تجذر الفساد في مجتمع المسلمين، فلم يعد أمام الحسين عليه السلام إلا أن يحقق الصلاح بنفسه.. وهكذا هو حال الأمة في كل زمان تحتاج إلى إمام يعرفها بالصلاح ويأمرها به، فماذا سيكون الحال لو أن هذا الإمام مال به الترف عن موقع النبوة..؟

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

فهل ستكون النتيجة أمة صالحة، أمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، ومؤمنة بالله. ؟

لقد مال الترف الديني والسياسي بالحكام والأمة معاً، فتارة الحاكم يكون على شكل الأمة، وتارة تكون الأمة على شكل الحاكم، فالصلاح لا يتطلب أن يكون الحاكم والأمة على شكل واحد، وانما يستدعي التحقق بما يجب أن يكونا عليه معاً من التزام بأمر الله تعالى فيما لو كان المطلوب هو تحقيق الخيرية للأمة والحاكم معاً.

إن الله تعالى لكي يحقق هذا المجتمع الإنساني على مستوى الوجود والفعلية الإيمانية والسياسية، بعث بالأنبياء والرسل والأئمة الذين لا يجد اليهم الترف سبيلاً، أئمة يهدون بأمره، ويفعلون الخيرات، ويخرجون الناس من الظلمات بما حملهم من الأوامر والنواهي والأحكام، فإذا كان لا بد من تحقق الأمة على مستوى الوجود والفعلية، فإنه ينبغي عليها أن تهتدي بهؤلاء فلا تجعل للمترفين عليها سبيلاً بالتهاون بأمر الله تعالى، والخروج عن سبيله، كما في قوله تعالى: **﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾**[1].

إن من شروط خيرية الأمة وصلاحها أن تهتدي إلى أمر الله، وتنبذ الترف جانباً، وان تمتثل لأوامر من يمثلون امتداد النبوة في الواقع حتى يصح القول انها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، باعتبار أنه لا معنى لأن تهتدي بأمر الله وتنبذ الترف وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وهي تمكن الاستبداد الديني والسياسي من نفسها، وانه تناقض فاضح أن يقال بأن الأمة صالحة والحكام مترفون فاسدون، أو أن الحكام صالحون والأمة

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

فاسدة، وإذا صح أن هناك حكاماً صالحين وأمة فاسدة، فإن هذه الأمة لا تلبث أن تقتل الحاكم الصالح كما حصل مع الإمام الحسين في كربلاء. فدوام الصلاح يحتاج إلى أمة وإمام صالحين، وبما أن الله سبحانه وتعالى قد تكفل باصلاح هذه الأمة عن طريق ارسال الرسل والأنبياء، فإن المسؤولية كلها كانت ولا تزال ملقاة على عاتق الأمة، فهي التي تحدد ما إذا كانت تريد الصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد ما توفرت لها القيادة الصالحة من قبل السماء حيث أن الله تعالى جعل أولي الأمر، وأمر الأمة بالطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[1]. وكونها هي التي تحدد رؤيتها وموقفها، فلا ينبغي إلا أن نقول بأن الأمة هي التي اختارت سلوك سبيل الترف الديني والسياسي حينما استجابت لأوامر الحكام المترفين، وقد بينا في الأبحاث السابقة إن الأمة حمدت الله تعالى على ولاية معاوية بالقول له: الحمد لله الذي أعز نصرك وأعلى كعبك. . . !؟

وكذلك هي التي تختار سلوك سبيل الايمان والطاعة لأولي الأمر، ولعل قوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ ناظر إلى هذا المعنى: أن أي شيء لا يمكن أن يتم بمعزل عن ارادة الأمة، مثلما أن أي حاكم لا يستطيع الحكم إلا إذا أرادت له الأمة ذلك. . . وحينما نقول أن الأمة هي حقيقة خير أمة، فكونها خير أمة ومقدسة فإنها لا تستمر على ذلك ما لم تجد الإمام الحق الذي يطأ بها الطريق ويرشدها إلى سواء السبيل.

بمعنى أخر نقول: إن الأمة لا تستقل بنفسها فيما تسعى إليه من خيرية وقداسة، إذ انها لو كانت قادرة على ذلك لما ارسل الله الرسل والأنبياء ليحق

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

القول عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فجعل الأنبياء والرسل والأئمة من قبل السماء دليل على أن الخيرية للأمة والقداسة لها تبقى مشروطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان بالله على ضوء ما يأمر به الإمام الحق في كل زمان، يقول الشريف الرضي: «وقد اختلف العلماء فيمن أريد بهذه الآية، فروى ابن عباس رضي الله عنه: انه قال: نزلت «كنتم خير أمة اخرجت للناس» فيمن خرج مع النبي ﷺ من مكة، وهاجر بعد هجرته إلى المدينة، وحكى أن بعض الصحابة كان يقول: لو شاء الله لقال انتم فكنا كلنا كذلك، ولكن خرج ذلك في خاصته من اصحاب محمد ﷺ، وروي عن مجاهد: انه قال: المعنى أنكم كنتم خير أمة، على شريطة أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتؤمنوا بالله، فأنتم كذلك ما التزمتم هذه الشرائط..»[1].

هم كانوا خير أمة لأنهم خرجوا مع النبي محمد ﷺ يسمعونه ويطيعونه فيما يأمر به وينهى عنه، فلم تكن لهم الخيرة والقداسة بمعزل عن النبي ﷺ فيما كانوا يرونه معروفاً أو منكراً، وانما كانت لهم الخيرية بما كان منهم من سمع وطاعة والتزام، فالأمة تبقى كذلك ـ أي خير أمة ـ ما دامت عارفة بالإمام ومطيعة له ولن يكون لها شيء من ذلك فيما لو استقلت بنفسها في معرفة الأمور ـ ولعل هذا المعنى متضمن في قوله تعالى: ﴿**يوم ندعوا كل أناس بإمامهم**﴾[2].

(١) انظر: الشريف الرضي، حقائق التأويل، إيران، قسم الدراسات الإسلامية، ١٤٠٦، ص٣٤٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧١.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ نهج البلاغة.

٣ ـ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، بيروت، دار صادر (لا ـ ت).

٤ ـ ابن خلدون، المقدمة، بيروت، الأعلمي، ١٩٨٠م.

٥ ـ ابن رشد، فصل المقال، فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال، بيروت، دار المشرق، ط٢، ١٩٨٦م.

٦ ـ أرسطو، كتاب السياسة، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، ط٢، ١٩٨٠م.

٧ ـ ابن سينا، كتاب السياسة، طبعة مجلة الشرق، ١٩٠٢م.

٨ ـ ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.

٩ ـ ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، بيروت. (لا ـ ت).

١٠ ـ أسد حيدر، الامام الصادق والمذاهب الأربعة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

١١ ـ إمام عبد الفتاح إمام، الطاغية، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٤م.

١٢ ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٣م.

١٣ ـ أبو حسن الأشعري، مقالات الاسلاميين، بيروت، دار الحداثة، (لا ـ ت).

١٤ ـ أحمد محمود صبحي، الامامة لدى الشيعة الإثني عشرية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩م.

١٥ ـ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

١٦ ـ جعفر مرتضى العاملي، الحياة السياسية للإمام الحسن، بيروت، دار

السيرة، ط١، ١٩٩٤م.

١٧ ـ جعفر المهاجر، ستة فقهاء أبطال، التأسيس لتاريخ الشيعة، مركز دراسات المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى، ط١، ١٩٩٤م.

١٨ ـ جعفر سبحاني، عقائدنا الفلسفية والقرآنية، بيروت، دار الروضة، ط١، ١٩٩٣م.

١٩ ـ جوادي آملي، خمس رسائل، بيروت، دار الصفوة، ط١، ١٩٩٤م.

٢٠ ـ جان فريمون، تلاقي الثقافات والعلاقات الدولية، في مجلة العلاقات الدولية، العدد ١٢٤. ترجمة مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، عدد ٢٨.

٢١ ـ حسين النائيني، تنبيه الأمة وتنزيه الملة، مجلة الغدير، عدد ١٢، ١٩٩١م.

٢٢ ـ حسين مؤنس، الحضارة، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

٢٣ ـ حسن عباس حسن، في الفكر السياسي الشيعي، بيروت، الدار العالمية، ١٩٨٨م.

٢٤ ـ روجيه غارودي، الإسلام في الغرب، بيروت، دار الهادي، ترجمة محمد مهدي الصدر، ١٩٩١م.

٢٥ ـ روح الله الخميني، الحكومة الاسلامية، طبعة النجف الاشرف، (لا ـ ت).

٢٦ ـ سعيد أيوب، الإنحرافات الكبرى، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢م.

٢٧ ـ سيد قطب، معالم في الطريق، دار دمشق، (لا ـ ت).

٢٨ ـ صدر الدين الشيرازي، المعروف بالملا صدرا، مفاتيح الغيب، مؤسسة مطالعات، ايران، ١٤١٢هـ.

٢٩ ـ صدر الدين الشيرازي، شرح أصول الكافي، طهران، مؤسسة مطالعات. (لا ـ ت).

٣٠ ـ صالح عضيمة، مصطلحات قرآنية، الجامعة العالمية للعلوم الاسلامية، لندن، ط١، ١٩٩٤م.

٣١ ـ الشريف الرضي، حقائق التأويل في متشابه التنزيل، ايران، قسم الدراسات الاسلامية، ١٤٠٦هـ.

٣٢ ـ علي حرب، نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٦م.
٣٣ ـ علي زيعور، مذاهب علم النفس، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٤م.
٣٤ ـ عبد الغفار مكاوي، جذور الإستبداد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٤م.
٣٥ ـ عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٤م.
٣٦ ـ علي الشامي، الحضارة والنظام العالمي، بيروت، الدار الانسانية، ١٩٩٥.
٣٧ ـ فرح موسى، ضرورات الأنظمة وخيارات الأمة عند الشيخ شمس الدين، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٤م.
٣٨ ـ فرح موسى، التحقق الوجودي في الاسلام، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢م.
٣٩ ـ فرح موسى، سلطة الفقهاء وفقهاء السلطة عند الامام الخميني، بيروت، دار الوسيلة، ١٩٩٥م.
٤٠ ـ فرح موسى، السلام المسلح بين العرب وإسرائيل، بيروت، ، دار الوسيلة، ١٩٩٥م.
٤١ ـ قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٤٢م.
٤٢ ـ محمد باقر الصدر، إقتصادنا، بيروت، دار التعارف، ١٩٨٦م.
٤٣ ـ محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، بيروت، مؤسسة الأعلمي.
٤٤ ـ محمد جواد مغنية، الشيعة والحاكمون، بيروت، المكتبة الأهلية.
٤٥ ـ محمد جواد مغنية، تفسير الكاشف، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١م.
٤٦ ـ مالك بن نبي، شروط النهضة، ايران، قم، ١٩٧٩م.
٤٧ ـ محمد بن محمد النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالشيخ المفيد، تصحيح الاعتقاد، منشورات الرضى، قم ١٣٦٣هـ.
٤٨ ـ الشيخ المفيد، أوائل المقالات في المذاهب المختارات، بيروت، دار الفكر الاسلامي، ١٩٩٣.

٤٩ ـ الشيخ المفيد، أجوبة المسائل العكبرية، بيروت، مجمع البحوث الاسلامية ١٩٩٤م.

٥٠ ـ محمد مهدي شمس الدين، بين الجاهلية والإسلام، بيروت، ١٩٨٤م.

٥١ ـ محمد مهدي شمس الدين، الإحتكار في الشريعة الاسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠م.

٥٢ ـ محمد مهدي شمس الدين، حركة التاريخ عند الامام علي، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٥.

٥٣ ـ محسن الأمين، المجالس السنية، بيروت، دار التعارف، ١٩٩٢م.

٥٤ ـ مرتضى مطهري، الاسلام ومتطلبات العصر، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٣م.

٥٥ ـ مرتضى مطهري، الاسلام وإيران، بيروت، دار الحق، ١٩٩٣م.

٥٦ ـ مرتضى مطهري، المجتمع والتاريخ، بيروت، دار المرتضى، بيروت، ١٩٨٨م.

٥٧ ـ موريس دوفرجيه، مدخل الى علم السياسة، ترجمة سامي دروين، وجمال الأتاسي، دار دمشق، (لا ـ ت).

المعجم الوسيط في اللغة العربية، مجمع اللغة العربية، القاهرة، (لا ـ ت).

٥٨ ـ هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢م.

٥٩ ـ هيغل والمجتمع، ترجمة منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣م.

٦٠ ـ وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان، بيروت، دار الراشد، ١٩٨٩م.

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس